محاضرات
حول مواقف سيدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم مع العالم
(مقامات أهل الإيمان)

الجزء الرابع

ويليها

قبسات من محاضرات في بيان مطالب الأمانة الإلهية الكبرى التي حملها الإنسان

ومحاضرات حول منازل أهل المعاملات مع الله تعالى

ألقاها

الإمام المفسِّر المحدِّث الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رضي الله تعالى عنه

جمع وتقديم

وَلَدِهِ المهندس

محمد مُحيي الدين سراج الدين

دكتوراه في الدراسات الإسلامية

اعتنى بتخريج أحاديثها وضبط ألفاظها

خادم العلم الشريف

د . بكري بريمو السمان

بسم الله الرحمن الرحيم
أيها القارىء الكريم
هَبْ ثواب قراءتك سورة الفاتحة
إلى العلامة الكبير والعارف الشهير
الإمام الحافظ المفسِّر الشيخ
عبد الله سراج الدين الحسيني
وإلى والده العلامة العارف الكبير
حامل لواء الحُجَّة بالكتاب والسنة الشيخ
محمد نجيب سراج الدين الحسيني
رضي الله عنهما وجزاك الله خيراً

الموقع الرسمي للشيخ الإمام
www.srajalden.com

كلمة شكر وتقدير

يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[لا يشكر الله من لا يشكر الناس] [1]

تحقيقاً لنصوص الكتاب الكريم والسنة الشريفة في إسناد المعروف إلى أهله وشكرهم على إتقانهم عملهم ، فإني أتقدَّم بالشكر والثناء لمن كانت له يد بيضاء وجهد خفي - منذ سنوات عديدة - في إظهار ما صدر من الكتب المتعلقة بما نُقل عن الشيخ الإمام رضي الله عنه من بيانات ونصوص ودروس ومحاضرات - وما سيصدر إن شاء الله تعالى - ، وإخراجِها بهذه الحلّة النافعة الزاهرة ، تجلّى ذلك في ضبط الألفاظ من حيث اللغة ، والتوسع في تخريج الأحاديث النبوية الشريفة وضبط ألفاظها ، فلم يَكْتفِ بالموسوعات الإلكترونية وشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) ، بل رجع في توثيق ذلك إلى المكتبات العالمية كمكتبة الإسكندرية والمكتبات الوقفية وغيرها ، والمخطوطات الموجودة فيها ، وكذا ما وجد عند كبار أهل العلم من كتب بطبعات قديمة كالطبعات البولاقية والميمنية .

إن الذي قام بذلك هو :
خادم العلم الشريف الأخ الدكتور بكري بريمو السمان
وفقه الله تعالى لما فيه رضاه ، وبارك في نفعه في التربية والتعليم .

وقد لازمني أخي بكري منذ سنة ١٤١٨ هـ وأكرمه الله تعالى بالأخذ عن مولانا الإمام في مجالسه الخاصة في بيته المبارك ، وشملته أنظار ودعوات مولانا الإمام وعندما استأذن الأخ بكري مولانا رضي الله عنه في الذهاب إلى العمرة خصّه بمكرمة كبرى حيث قال له : اعتمر بدلاً عني وقل :
(يا رب أُهدي ثواب هذه العمرة لسيدي الشيخ عبد الله سراج الدين)
وقد امتثل الأخ بكري أمْر الشيخ الإمام ، تقبّل الله منه ... آمين .

ومرة قَصَّ أخي بكري على سيدنا الشيخ الإمام رؤيا مباركة رأى فيها حضرة النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم فأقرَّه مولانا وبشَّره ببشارة عظيمة وأجازه بورد خاص وأوصاه بالمحافظة عليه ..

ثم طلب من مولانا الإمام أن يتفضل عليه بالإجازة فقال له رضي الله عنه :
(أجيزك يا بنيّ بما أجازني به شيوخي من الحديث الشريف والتفسير المنيف وبما لي من مرويات ومقروءات ومسموعات وبما سمعتَه مني وما لم تسمعه مني ، وأجيزك بإجازة من تراه أهلاً لذلك ، راجياً من الله تعالى أن لا يقطع هذه السلسلة الطاهرة المباركة إنه لسميع الدعاء) . اهـ

---

[1] رواه الترمذي في سننه في كتاب البر والصلة وصحَّحه ، ورواه أبو داود في سننه في كتاب الأدب عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وبعد وفاة مولانا الإمام رضي الله عنه رأيت شيخنا الإمام مرات عديدة راضياً عن أخي بكري مبشِّراً له ومسروراً بجهوده وإخلاصه .
وقد خَصَّ الله تعالى أخي الأستاذ بكري بالعناية بتحقيق تراث مولانا العلمي كلِّه ، فمن الكتب التي اعتنى بها وطُبعت بحمد الله وتوفيقه :
(دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم) و(محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم) الجزء الثاني والثالث و (محاضرات حول الفضائل المحمدية) و (محاضرات حول الإيمان بالقضاء والقدر) و(محاضرات حول الإسراء والمعراج) و(محاضرات حول هجرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم) و (محاضرات حول عالم الجنة) و (محاضرات حول تفسير خواتيم سورتي البقرة وآل عمران والمعوذات وأذكار بعد الصلوات) وكتابنا هذا ، وغير ذلك كثير مما لم يُطبع بعد ،
ونسأل الله المزيد من فضله .
وقد عرفتُ في شخص أخي بكري الصدق والإخلاص والتفاني في خدمة مولانا الإمام رضي الله عنه ومحبته ونشر تراثه العلمي ، وله ديوان في مديح النبي صلى الله عليه وسلم والأولياء والصالحين لم يُطبع بعد .
وقد حصل الأستاذ بكري على ثانوية التعليم الشرعي الخاصة ، وتخرّج من معهد التعليم الشرعي (الشعبانية) بحلب بتفوق باهر سنة ١٤٢٠ هـ
إلى جانب حصوله على الثانوية السورية العامة .
كما نال الإجازة العالية (الليسانس) في علوم الحديث النبوي الشريف سنة ١٤٢٥ هـ .
ثم حاز على الماجستير سنة ١٤٣٢ هـ
ثم أكرمه الله تبارك وتعالى بنيل الشهادة العالمية (الدكتوراه) في علوم اللغة العربية وآدابها سنة ١٤٣٥ هـ
ولأخي الأستاذ بكري خبرة عملية في تدريس العلوم الشرعية واللغة العربية منذ سنة ١٤١٧ هـ ، لأن الله تعالى فَطَره على حب العلم تعلّماً وتعليماً منذ سِني طلبه الأولى ، كما أن له خبرة في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها ، ولا يزال يقوم بالتدريس في الكلّيات العامة والخاصة وفّقه الله تعالى لما فيه رضاه .
وللتواصل معه عبر شبكة المعلومات (الإنترنت) :

www.ostazbakri.com

ostazbakri@gmail.com

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الأولى

حول معنى الإسلام ومراتبه

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

لقد أرسل الله تعالى في كل أُمّة رسولاً، والرسل عليهم الصلاة والسلام هم أُمَناء الله تعالى على خلقه ، وهم النُّصَحاء والسادة والقادة.

وهذه الرسالات الإلهية تشتمل على جميع المصالح البشرية ، وأهمُّ الرسالات وأجمعها وأشملها للمصالح البشرية والسعادات البشرية إنما هي رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ولقد اتفقت جميع الرسالات الإلهية على الأصول الإيمانية والأصول العملية ، إلا ما كان من بعض الأحكام فاختلفت باختلاف الشرائع .

فجميع الرسالات متفقة على الإيمان بأنه لا إله إلا الله و متفقة على الإيمان بأن سيدنا محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومتفقة على أن الصلاة لله تعالى حق ، وأن الزكاة حق ، وأن الصيام حق ، وهكذا ...

لأن الدين في كل رسالة إنما هو دين الإسلام ، وكل رسول إنما جاء يدعو بدعاية الإسلام لأنه يدعو إلى دين الله ، والدين عند الله هو الإسلام كما قال تعالى :

{ إن الدين عند الله الإسلام }

فلقد جاء آدم عليه السلام بدين الإسلام ودعا إليه ، وكذلك نوح عليه السلام وكذلك إبراهيم عليه السلام وموسى وعيسى وجميع أنبياء بني إسرائيل صلوات الله عليهم أجمعين إنما دعوا إلى دين الإسلام .

وكذلك خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم إنما جاء يدعو إلى دين الإسلام ، وهو الذي اجتمعت له مراتب الإسلام كلها .

أما الدليل على أن نوحاً عليه السلام جاء يدعو إلى دين الإسلام ، وأن الدين الذي دان به ولقي الله به هو الإسلام فقد أخبر الله تعالى عن سيدنا نوح عليه السلام قوله { فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

والدليل على أن دين سيدنا إبراهيم عليه السلام هو الإسلام وأن دعوته كانت إلى الإسلام هو قوله تبارك وتعالى مخبراً عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قولهما { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ }

وهكذا فإن دين سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام هو الإسلام ، قال الله تعالى :

{ وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ }

وأنبياء بني إسرائيل دينهم الإسلام ، قال تعالى :

{ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا }

وقال تعالى : { وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }

وكذلك دعوة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام كانت إلى الإسلام ، ودينه كان الإسلام ، قال تعالى :

{ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي } - أي بعيسى بن مريم - {قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ }

وهكذا فإن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جاء يدعو إلى دين الله وهو الإسلام ، قال تعالى :

{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا }

وقال الله تبارك وتعالى : { هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا }

وإنما اختصت الأمة المحمدية بهذا الاسم (المسلمين) من بين الأمم والشرائع من باب التمييز بين الأمم والأديان .

فيقال عن أتباع سيدنا إبراهيم عليه السلام : (أهل الملة الحنيفية)

بدليل قوله تعالى واصفاً إبراهيم عليه السلام :

{ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }

ويقال عن أتباع سيدنا موسى عليه السلام الذين اتبعوه على الحق : (اليهود) [1]

---

[1] اليهود مأخوذة من (هاد هَوداً) أي : رجع ، فهو هائد والجمع هُود ، قال الله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا } أي أتباع سيدنا موسى على الحق
وقال الله تعالى مخبراً عن موسى عليه السلام قوله : { إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ } أي رجعنا

ويقال عن أتباع سيدنا عيسى عليه السلام الذين اتبعوه على الحق يقال عنهم : (النصارى)

ويقال عن أتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : (الأمة المسلمة) .

هذا من ناحية الاسم العلمي والتمييز بين الأمم والشرائع

وأما من حيث الوصف فالكل جاؤوا يدعون بدعاية الإسلام .

وعلى هذا الأساس اتفقت جميع الشرائع الإلهية على مبادئ الإسلام ، الذي هو دين الله في أرضه ، والذي يقوم على أعمال ظاهرة وعلى عقائد قلبية باطنة وعلى أحوال روحية إحسانية يترقى العبد في مراتبها .

فدين الله تعالى - أي الإسلام - يقوم على هذه الأصول الثلاثة ، وهذه الأصول متفَق عليها في جميع الشرائع ، لكن أوسع من توسَّع بها وأعظم من جاء بمراتبها الإيمانية والإسلامية والإحسانية على أكمل الوجوه وأعلاها إنما هو شرع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فالإيمان القلبي العَقَدي الذي جاء به سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هو أعلى مراتب الإيمان ، والإسلام العملي الذي جاء به هو أكمل الأعمال الإسلامية وكذلك الأحوال الإحسانية التي جاء بها .

ولقد بيَّن عليه الصلاة والسلام أصول هذا الدين الإسلامي في الحديث الذي رواه مسلم والترمذي وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

(بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يَعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه) - أي على فخذي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم منحنياً متواضعاً ، وفي هذا تعمية وتلبيس حتى لا يعرف الصحابة أنه جبريل عليه السلام -

---

وقال سبحانه :
{ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }
كما أن (هُود) اسم عربي ، وقد تسمّى به بعض أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام .
ولفظ اليهود اسم علم ، ويقال : (هوَّد الرجل ابنه) - أي جعله يهودياً ، كما جاء في الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم : (كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه) ... الحديث
ويقال : (تهوَّد) :أي دخل في دين اليهود .
وأما النصارى فهم الذين ناصروا سيدنا عيسى عليه السلام واتبعوه على الحق ، ومفرده : نصراني كما في الآية { فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }

(وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً

قال : صدقت ، قال : فعجِبنا له يسأله ويصدقه) - أي هل عنده سابق علم ؟ -

(قال : فأخبرني عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت .

قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال : فأخبرني عن الساعة ، قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل

قال : فأخبرني عن أَماراتها

قال : أن تلد الأمَة ربَّتها وأن ترى الحُفاة العُراة العالة رِعاء الشاء يتطاولون في البنيان .

قال : ثم انطلق فلبثتُ ملياً ثم قال صلى الله عليه وسلم : يا عمر أتدري مَن السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلِّمكم دينكم) [١]

فهذا سيدنا جبريل - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - جاء قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وفي آخر الأمر بعدما قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم قضايا الدين ، وبيَّن حقائق الدين وتفاصيله ، أرسله الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله عن أصول الدين إجمالاً حتى يجمع مجامع الدين على مسمع من الصحابة رضي الله عنهم ليحفظوها وينقلوها للأمة فيكون هذا إجمالاً بعد تفصيل .

ولقد جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة المتعلم بين يدي المعلم .

ففي الحديث أنه قال: (السلام عليكم يا محمد [٢]) فسلَّم بصيغة الجمع وخصّص رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخطاب .

وقال بعضهم : قوله : (السلام عليكم) أراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الخير كله ، وكل خير في الصحابة هو من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالأصل إنما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

[١] صحيح مسلم كتاب الإيمان واللفظ له وسنن الترمذي كتاب الإيمان

[٢] كما في مسند إسحاق بن راهويه

والصحابة إنما هم ثمرات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك قال عليه السلام : (السلام عليكم يا محمد) أي أنت الكل بالكل وأنت أصل الخير كله ومرجعه ،

وفي هذا تعظيم وتوقير من جبريل عليه السلام لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ خاطبه بصيغة الجمع تعظيماً وتكريماً لجنابه الشريف صلى الله عليه وسلم ثم قال جبريل بعد أن سلَّم :(يا محمد) أراد الوصف- أي يا كثير المحمودية - وفي رواية عن أبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا :

[فردَّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم السلام ، قال - أي الرجل - : أدنو ؟

فما زال يقول : أدنو ؟ ويقول محمد صلى الله عليه وسلم : (ادنُه) حتى وضع يديه على ركبتي رسول الله صلى الله عليه وسلم] [١]

فجلس جلسة المتعلم بين يدي المعلم متأدباً متواضعاً ، وفي هذا تعليم بالتأدب مع جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن تعظيم النبي عليه الصلاة والسلام وتوقيره أمر مهم وركن قوي من أركان الدين لأن جبريل عليه السلام إنما جاء يعلِّم الصحابة دينهم بالقال والحال كما قال صلى الله عليه وسلم :

(فإنه جبريل أتاكم يعلِّمكم دينكم)

فدلَّ على أن تعظيم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيره والتأدب معه هو من الدين أيضاً كما أن الإسلام والإيمان والإحسان من الدين .

وفي رواية : [إذ أقبل رجل أحسن الناس وجهاً وأطيب الناس ريحاً ، كأن ثيابه لم يمسَّها دنس ، حتى سلَّم في طرف البساط فقال : السلام عليك يا محمد ، فردَّ عليه السلام ، قال : أدنو يا محمد ؟ قال : (أُدْنُه) فما زال يقول : أدنو ؟

مراراً ويقول له صلى الله عليه وسلم : (أُدْنُه)

حتى وضع يديه على ركبتي رسول الله صلى الله عليه وسلم] [٢]

فقال الصحابة رضي الله عنهم :

[ما رأينا رجلاً أشد توقيراً للنبي عليه الصلاة والسلام من هذا] [٣]

- أي من جبريل الذي هو سيد الملائكة عليهم السلام .

---

[١] ابن منده في كتاب الإيمان

[٢] سنن النسائي كتاب الإيمان وشرائعه

[٣] المسند ٣٧٤

ولقد بين سبحانه وتعالى أن توقير النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه أمر من الدين والإيمان فقال جل جلاله :

{ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ }

- أي تعزّروا وتوقّروا محمداً صلى الله عليه وسلم -

{ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } : أي تسبِّحوا الله تعالى .

فذكر جل وعلا حقَّين من حقوق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين حقَّين من حقوقه سبحانه وهما الإيمان والتسبيح .

ثم وصف سبحانه أهل الفلاح بأنهم هم الذين يعظِّمون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويوقرونه فقال جل وعلا :

{ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }

واعلم أن سيدنا جبريل عليه السلام ما فعل ذلك - أي ما تأدَّب مع حضرة النبي عليه الصلاة والسلام إلا لعلمه بِعلُّو مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي تقاصر عنه جبريل عليه السلام ليلة الإسراء والمعراج ، وما أفاض عليه الله جل وعلا من علوم ومعارف فكان حقيقاً أن يعظِّمه ويوقِّره لأن الأدب بأجمعه عند سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال : (أدَّبني ربي فأحسن تأديبي[1])

وقول سيدنا جبريل عليه السلام : (يا محمد) صلى الله عليه وسلم أراد به الوصف والمقام - أي : أيها الرسول المحمود في السماء والأرض .

وفي سنن النسائي عن أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهما قالا :

[كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس بين ظهراني أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أيّهم هو حتى يسأل ، فطلبْنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نجعل له مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه فبنينا له دكاناً من طين كان يجلس عليه]

- أي : دكّة وهو الموضع المرتفع - وجعل النبي صلى الله عليه وسلم يجلس عليه حتى إذا دخل الأعرابي أو الغريب الذي لم ير رسول الله من قبل عَرَفَهُ ، هذا وإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفاً بأنواره وبكماله وبجماله لكن الأعرابي أو الغريب حين يدخل مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تأخذه الدهشة والحيرة ولابد للداخل أول مرة من دهشة وحيرة وإلا فأنوار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيّنة ظاهرة وتسطع على أصحابه في مجلسه .

[1] عزاه في كنز العمال إلى ابن السمعاني في أدب الإملاء عن ابن مسعود

قالا - يعني أبو هريرة وأبو ذر رضي الله عنهما - :

[وإنا لَجلوس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلسه إذ أقبل رجل أحسن الناس وجهاً وأطيب الناس ريحاً كأن ثيابه لم يمسَّها دنس]

- أي إن ثوبه أبيض ناصع -

[حتى سلَّم في طرف البساط فقال : السلام عليك يا محمد فردَّ عليه السلام[١]] الحديث

وفي رواية ابن حبان :

أن جبريل عليه السلام جاء بصورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد اللحية [٢]

ثم بيَّن صلى الله عليه وسلم أن هذا الرجل هو جبريل عليه السلام جاء يعلِّم الصحابة دينهم ، أي أن الدين الإسلامي يقوم على هذه الأصول وهي أعمال ظاهرة وعقائد باطنة قلبية وأحوال ومراتب إحسانية تشترك بها جميع الرسالات الإلهية إلا ما كان من بعض الأحكام فتختلف باختلاف الشرائع .

ويدل على هذا ما رواه الترمذي وأحمد عن الحارث الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، وإنه كاد أن يبطئ بها) - أي بالتبليغ بها - (فقال عيسى : إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم ، وإما أنا آمرهم ، فقال يحيى : أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أُعذَّب) - أي إن لم أبلِّغ - (فجمع الناس في بيت المقدس ، فامتلأ المسجد وقعدوا على الشُّرف ، فقال : إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن ، وآمركم أن تعملوا بهن : أوَّلُهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص مالِه بذهب أو ورِق) - أي فضة -
(فقال : هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدِّ إلي ، فكان يعمل ويؤدّي إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟)

- يعني أن الله تعالى أمركم بالتوحيد وبعبادته وألا تشركوا معه غيره من صنم أو ذهب أو امرأة أو دنيا كما في الحديث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(تَعِسَ عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة) [٣]

---

[١] سنن النسائي كتاب الإيمان وشرائعه
[٢] صحيح ابن حبان كتاب الإيمان
[٣] صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير

فمثال قباحة الشرك بالله كمثل رجل غني اشترى عبداً ووضعه في بيته وطلب منه أن يعمل ويؤدي إليه ، فراح هذا العبد يعمل في دار سيده ويأكل من نِعم سيده ويقدِّم العمل لغير سيده فأي أحد يرضى أن يكون عبده كذلك ؟

ولما كان الخلق كلهم عباد الله وهم ساكنون في أرض الله وتحت سماء الله ويأكلون من رزق الله ، والله تعالى يمدّهم ويعطيهم ويسقيهم فهل يجوز عقلاً أن يعبدوا غيره سبحانه ؟ !

فمن باب أولى لا يجوز ذلك شرعاً .

ثم قال عليه السلام : (وإن الله أمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا) - أي لا بوجوهكم ولا بقلوبكم -

(فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت ، وآمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة) - أي : جماعة -

(معه صرّة فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها ، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك) - أي مثل دافع الصدقة - (كمثل رجل أسَرَه العدو ، فأوثقوا يده إلى عنقه وقدّموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ، ففدى نفسه منهم) - فالزكاة والصدقات تكفِّر الذنوب والخطايا وتشفع لك عند الله

(وآمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك) - أي مثل نفع الذكر للذاكر لله -

(كمثل رجل خرج العدو في أثره سِراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله) [1]

وهكذا فإن هذه الأوامر نزلت على بني إسرائيل وأُمروا بالعمل بها ، والأمة المحمدية مأمورة بها كذلك لكن تختلف بالكيفية والمقدار .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه ذكر أن في التوراة :

(إن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل ، ويُبطل به اللعب والزَّفْن) - أي الرقص - (والمزمارات والمزاهر والكَنَّارات)

زاد ابن رجاء في روايته : (والتصاوير والشعر والخمر ، فمن طَعِمها أقسم بيمينه وعزَّته : لَمَن شربها بعدما حرّمتُها)- أي مصرّاً على شربها -

(لأعطشنَّه يوم القيامة ،ومن تركها بعدما حرَّمتها سقيته إياها من حظيرة القدس) [2]

---

[1] سنن الترمذي كتاب الأمثال والمسند ١٧١٣٢

[2] السنن الكبرى للبيهقي

ولقد وصف الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم في التوراة

فعن عطاء بن يسار ، قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة

قال : [أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن :

يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحِرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخّاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء] - أي اعوجاج الناس في العقيدة -

[بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعيناً عُمْياً ، وآذاناً صُمَّاً ، وقلوباً غُلْفاً] [١]

[١] صحيح البخاري كتاب البيوع

الإسلام : معانيه - مراتبه

إن كلمة (الإسلام) قد تطلق على الدين كله بمفاهيمه كلها وأسهُمه كلها ، وهذا هو معنى تسمية الإسلام بأنه أعمال وأقوال وإيمان وإحسان .

وقد يطلق الإسلام على معنى خاص ويراد منه الأقوال والأعمال ويقابله الإيمان وهو العقائد الإيمانية.

وقد يطلق الإسلام أحياناً ، ويراد منه كلمة الشهادة وهي :

(لا إله إلا الله محمد رسول الله) صلى الله عليه وسلم .

أما من حيث إطلاق كلمة الإسلام على المعنى العام الذي يراد منه الأعمال والأقوال ، والعقائد الإيمانية والإحسان ففي هذا قال ابن عباس رضي الله عنهما لما سُئل : (ما الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمَّهن ؟

قال: الإسلام ثلاثون سهماً : منها عشر آيات في براءة :

{ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ }

وعشر آيات في أول سورة المؤمنون :

{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

وَ {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} ، وعشر آيات في الأحزاب :

{ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا }

قال : فأتمَّهُنَّ كلّهن)[١]

---

[١] انظر تفسير ابن كثير لقوله تعالى : { وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات }

فبيّن ابن عباس رضي الله عنهما أن الدين الإسلامي يقوم على هذه الأسهم الثلاثين

أما قوله سبحانه في سورة الأحزاب {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ} ....

فقد ذكر سبحانه المقامات للرجال والنساء وسبب ذلك أن السيدة أم سلمة زوج النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم قالت للنبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم:

(يا رسول الله ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يُذكر الرجال ؟)

- أي بالمقامات والفضائل ، ومن ذلك قوله تعالى :

{ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ }

و { رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ}

و { لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}

- قالت: [فلم يَرُعني منه يوماً إلا ونداؤه على المنبر :

(يا أيها الناس) ، قالت : وأنا أسرّح رأسي فَلَفَفتُ شعري ثم دنوتُ من الباب فجعلت سمعي عند الجريد فسمعته يقول :

(إن الله عز وجل يقول { إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات } هذه الآية) [1]

وفي ذلك جبرَ الله سبحانه وتعالى قلوب النساء وذكرَ مراتبهن ومقاماتهن إلى جانب الرجال .

و أما معنى قوله تعالى : { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ} .

فقد يطلق الإسلام على معنى الدين كله من عمل وقول وعقيدة وإحسان .

وقد يطلق ويراد منه معنًى من معانيه كما يطلق على نصوص الشهادتين ، ولهذا إذا تشهّد الكافر بأن قال : [لا إله إلا الله محمد رسول الله] فإنه يُعتبر مسلماً بمعنى أنه خرج من الكفر الظاهر وصار ماله ودمه وكله حراماً مُحصناً .

عن عبيد الله بن عدي بن الخيار أن رجلاً من الأنصار أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مجلس فسارّه استأذنه في قتل رجل من المنافقين، فجهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أليس يشهد أن لا إله إلا الله ؟

قال الأنصاري: بلى يا رسول الله، ولا شهادة له .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أليس يشهد أن محمداً رسول الله؟

---

[1] المسند ٢٥٣٦٣

قال: بلى يا رسول الله .

قال : أليس يصلي؟

قال: بلى يا رسول الله ، ولا صلاة له .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أولئك الذين نهاني الله عنهم).[١]

فكونه نطق بالشهادة فقد أسلم واعتبِر مسلماً وخرج عن الكفر الظاهر ، فإن وافق القلب على الشهادتين وأذعن وأقرّ فهو مسلم مؤمن صادق ، وإذا كان باللسان دون القلب فهو مسلم بالظاهر لكنه منافق بالواقع ، ولكن الاعتبار لظاهر الأمر كما في الحديث عن أسامة بن زيد قال :

بعثنَا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فصبَّحنا الحُرَقات [٢]من جهينة فأدركت رجلاً فقال : [لا إله إلا الله] فطعنتُه ، فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أقال لا إله إلا الله وقتلتَه) ؟!

قال : قلت : يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح .

قال : (أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟) [٣]

ولقد جاء في الحديث عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(ثلاثٌ مِن أصل الإيمان : الكفُّ عمَّن قال لا إله إلا الله)
- أي وشقيقتها الملازمة لها : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيجب الكف عمن قالها واعتباره مسلماً -

(ولا نُكفِّره بذنب ولا نُخرجه من الإسلام بعمل) ..... الحديث

- أي إلا إذا عمل كفراً صريحاً-

ثم قال صلى الله عليه وسلم في الثالثة التي هي من أصل الإيمان - :

(والإيمان بالأقدار) [٤]- أي قدر الله تعالى - .

فالإسلام القولي هو النطق بالشهادتين ويعتبر الناطق بهما مسلماً خارجاً عن الكفر الظاهر .

---

[١] المسند ٢٢٥٥٩ وفي موطأ مالك كتاب النداء للصلاة

[٢] الحرقة: اسْم قَبيلَة من جُهَيْنَة. وَقَوله: (فصبحنا الحرقات) إِشَارَة إِلَى بطُون تِلْكَ الْقَبِيلَة أي : أتيناهم صباحاً

[٣] صحيح مسلم كتاب الإيمان

[٤] سنن أبي داود كتاب الجهاد

أما الإسلام العملي فهو امتثال الأوامر ، وهناك الإسلام القلبي وهو استسلام القلب إلى الله تعالى فيما أمر ونهى وفي العقائد الإيمانية والتوكل والتسليم والتفويض إليه سبحانه ، ومن هذا قوله سبحانه وتعالى :

{ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى }.

ومعنى إسلام الوجه: إسلام القلب وإسلام الذات بأن تستسلم كل ذرة إلى الله تعالى شرعاً وأمراً ونهياً ورِضاً عن دين الله

وإسلام الوجه من أعلى مقامات الإسلام ولهذا قال جل وعلا :{ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ } - أي وأتباعي أسلموا وجوههم إلى الله تعالى .

{ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ }- أي قلباً وذاتاً { وَهُوَ مُحْسِنٌ }- أي محسن في عمله وقوله مع الله بأن يعبد الله على مشاهدة أو مراقبة

كما قال عليه الصلاة والسلام في بيان الإحسان :

(الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) [1]

وقال بعض العارفين : [إذا كنت تتكلم فلاحظ سمع الله تعالى لك]

- أي قبل ملاحظتك أن الناس تسمع -

[وإذا سكتَّ فلاحظ أن الله يرى قلبك] .

فقوله تعالى : { إن المسلمين والمسلمات } أي الذين اتصفوا بالإسلام ، والإسلام يقتضي أمرين :

أمراً يتحققون به ذاتاً وصفات وأفعالاً وأقوالاً ، وأمراً يتعدى منهم لغيرهم ، فهم الذين استسلموا قولاً بأن نطقوا بالشهادة وأكثروا من الكلام الطيب .

ثم استسلموا بقلوبهم إلى الله تعالى رضىً عن الله تعالى فيما شرع وأمر ونهى واستسلموا بقولهم لله ، لم ينتقدوا على شرع الله كما يقال :

[لِمَ حرَّم هذا ، ولِم أمر بهذا ؟] - على وجه الانتقاد -

فهذا ليس من الإسلام في شيء.

وعلى قدر ما يتحقق العبد بالإسلام في قوله وعمله وقلبه يكون إسلامه للغير أي السلامة منه للناس وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم في تعريف المسلم الذي استسلم فسلم الناس من شروره :

---

[1] صحيح البخاري كتاب الإيمان وصحيح مسلم كتاب الإيمان

(المسلم مَن سَلِمِ المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر مَن هجر ما نهى الله عنه) [1]

وهنا فسر الإسلام بالسلم والسلامة لأن الإسلام صفة إسلامية قلبية قولية عملية يلزم منها أن يكون المسلم سلماً للناس لا يصدر منه إلا الخير ،فلما قال جل وعلا : { إن المسلمين والمسلمات } فالمراد : الذين أسلموا أولاً وخرجوا عن الكفر وأسلموا عملاً بترك الفسوق وأسلموا اعتقاداً بأن استسلموا إلى الله بقلوبهم وذاتهم حتى إن الناس سلموا من لسانهم ويدهم ، وهذا هو المراد من هذه المرتبة الإسلامية في قوله تعالى : { إن المسلمين والمسلمات } .

أما قوله عليه الصلاة والسلام : [المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده]

فيدل على أن المسلم الذي لا يسلم الناس من لسانه ويده هو متهم في استسلامه لأن الإسلام محض الخير والسلامة .

ولهذا يقول الله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة} - أي الإسلام لأنه سلم وأمان فمن تحقق بأوامر الإسلام لا يصدر عنه إلا الخير وعلى قدر تحققه بالإسلام على قدر ما يحصل منه السلام والأمان .

والمراد من كلمة [يده] في الحديث السابق : القدرة .

ومن استسلم لله وسلم الناس من شره كان في سلم وأمان من عذاب الله ومن لم يكن كذلك لا يكون في سلم وأمان من عذاب الله كما بيَّن عليه الصلاة والسلام أن أسباب عذاب القبر بالنسبة للمسلمين إنما هي النجاسات الحسية والمعنوية، ومن جملة النجاسات المعنوية: بذاءة اللسان وأذاه ،كما جاء في الصحيحين عن ابن عباس قال : مَرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بقبرين ، فقال : (إنهما ليعذَّبان ، وما يعذبان في كبير) - أي بسبب كبير في نظر الناس - (أما أحدهما فكان لا يستتر من البول) وفي رواية : (فكان لا يستنزه من بوله) [2] ، (وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة)

وفي رواية : (وأما الآخر فيعذب في الغيبة) [3]

- وكلاهما متلازمان فمن نم اغتاب الناس -

ثم أخذ صلى الله عليه وسلم جريدة رطبة ، فشقَّها نصفين ، فغرز في كل قبر واحدة ، قالوا : يا رسول الله ، لِم فعلت هذا ؟

قال : (لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا) [1]

---

[1] صحيح البخاري وصحيح مسلم كتاب الإيمان

[2] سنن ابن ماجه كتاب الطهارة وسننها

[3] سنن ابن ماجه كتاب الطهارة وسننها

فالمسلم: من استسلم بقلبه ووجهه وقوله وعمله إلى الله تعالى وكان سلماً للناس

وقد بين صلى الله عليه وسلم ذلك في الحديث الذي رواه بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال قلت : يا نبي الله ما أتيتك حتى حلفت أكثر من عددهن - لأصابع يديه - ألا آتيك ولا آتي دينك ، وإني كنت آمراً لا أعقل شيئاً إلا ما علّمني الله ورسوله ، وإني أسألك بوجه الله عز وجل بِم بعثك ربك إلينا ؟

قال : بالإسلام

قال : قلت : وما آيات الإسلام ؟

قال : أن تقول : أسلمت وجهي إلى الله عز وجل ، وتخليت ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، كل مسلم على مسلم محرم ، أخوان نصيران) [٢]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، ولا يحقره التقوى هاهنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه ، وماله ، وعرضه) [٣]

ولقد بين صلى الله عليه وسلم أن هذا الدين الإسلامي يتطلب أموراً من أقوال وأفعال كما في المسند عن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط سوران - وفي رواية : داران - [٤]، فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : أيها الناس ، ادخلوا الصراط جميعاً ، ولا تتعرجوا ، وداع يدعو من فوق الصراط ، فإذا أراد يفتح شيئاً من تلك الأبواب ، قال : ويحك لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تَلِجه ، والصراط الإسلام ، والسوران : حدود الله ، والأبواب المفتحة : محارم الله ، وذلك الداعي على رأس الصراط : كتاب الله ، والداعي من فوق الصراط : واعظ الله في قلب كل مسلم) [٥]

فالداعي الذي على رأس الصراط إنما هو القرآن النازل من الله عز وجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمتمثل به صلى الله عليه وسلم وهو حامل لواء القرآن ، فالحق أن الداعي هو القرآن وحامله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

[١] صحيح البخاري كتاب الوضوء وصحيح مسلم كتاب الطهارة
[٢] سنن النسائي كتاب الزكاة
[٣] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب
[٤] سنن الترمذي كتاب الأمثال
[٥] المسند ١٦٩٧٦

قال الله تعالى :{ وداعياً إلى الله }.

والقرآن إنما هو كلام الله تعالى ، ودعوة القرآن هي دعوة الله ، قال تعالى :
{ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم }الآية .

ودعوته تعالى إلى دار السلام إنما باتباع الصراط المستقيم وهو شرع الله ، فالداعي على رأس الصراط إنما هو القرآن ، ودعوة القرآن هي دعوة الله وهي دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً ، فالدعاة عند رأس الصراط هو رب العالمين أولاً ثم كلامه سبحانه ، ثم الرسول المبلغ عن الله تعالى .

والمراد من واعظ الله في قلب كل مؤمن : النور الإيماني الذي أودعه الله تعالى في قلب المؤمن من يوم { ألست بربكم قالوا : بلى }.

ولهذا تجد المؤمن لما يريد أن يرتكب إثماً لأول مرة تراه يشعر من نفسه بتوقف قلبي وامتناع عن ذلك لكنه يكبح ذلك بجرأة من نفسه ، ومن شياطين الإنس والجن حتى يقع في الذنب .

وإذا كان إيمانه قوياً تاب من ذنبه واتعظ بمواعظ الإيمان ، وإلا فإنه يعود إلى الذنوب وارتكاب المحرمات ولا يعود للمواعظ القلبية تأثير عليه .

وهناك الواعظ القرآني بآياته التدوينية والتكوينية ، قال الله تعالى :
{ يستعجلونك بالعذاب وقد خلت من قبلهم المثلات} - أي علام يستعجلونك بالعذاب يا محمد وهم يفعلون المعاصي ويصرون عليها ويكفرون ويضلون وهم ينتظرون العذاب أليس ما حل بالأمم السابقة موعظة لهم ؟!

وقوله جل وعلا { المثلات} أي العقوبات .

ثم قال سبحانه وتعالى :

{ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب }.

أي إنه سبحانه لا يعجل العقوبة بل يؤخرها لحلمه سبحانه وتعالى .

وقوله جل وعلا {ذو مغفرة } وهي مغفرة التأجيل وتأخير العقوبات لعلهم يتوبون ويرجعون إلى ربهم ومن لم يتب استحق عليه العذاب قال جل وعلا :

{ وإن ربك لشديد العقاب }.

ومن المواعظ أيضاً مواعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى :
{ وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً }.

فلقد وعظ وبين عليه الصلاة والسلام ، ومن جملة مواعظه عليه الصلاة والسلام قوله :

(يا أيها الناس ، إن لكم علماً فانتهوا إلى علمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، فإن المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري كيف صنع الله فيه ، وبين أجل قد بقي لا يدري كيف الله بصانع فيه ، فليتزود المرء لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشباب قبل الهرم ، ومن الصحة قبل السقم ، فإنكم خلقتم للآخرة والدنيا خلقت لكم ، والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستتب ، وما بعد الدنيا دار إلا الجنة والنار ، وأستغفر الله لي ولكم) [١]

وخطب مرة عليه الصلاة و السلام فقال :

(إن الدنيا عرَض حاضر يأكل منها البر والفاجر ، وإن الآخرة وعد صادق يقضي فيها ملك قادر ، ألا وإن الخير كله بحذافيره في الجنة ، ألا وإن الشر كله بحذافيره في النار ، واعملوا وأنتم من الله على حذر) - أي : خوف وخشية - (واعلموا أنكم معروضون على أعمالكم وأنكم ملاقو الله ربكم لا بد ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) [٢]

فذرة الشر لابد أن تراها لكن بعد ذلك إما العفو وإما العقاب .

حتى الكافر يرى ما عمل ولو ذرة خير فإنها تخفف عنه شدة العذاب لا مُدَّته .

وهذا هو قوله تبارك وتعالى { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ } - أي الموازين العادلة - {لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ }

فالأقوال لها ميزان خاص بها ، والأعمال لها ميزان خاص بها ، والصلاة لها ميزان وهكذا

كما قال صلى الله عليه وسلم : (والحمد لله تملأ الميزان) [٣] أي ميزان المحامد فكل عبادة لها ميزان ، وليس المراد من قوله صلى الله عليه وسلم :

(الحمد لله تملأ الميزان) الأشياء الحسية الملموسة وإنما أنوار هذا الحمد وحسناته تملأ ميزان المحامد كما تقول عندما تصلي صلاة بحضور وخشوع تقول :
والله لقد امتلأ قلبي بنور هذه الصلاة وهكذا ، وكما تقول: فلان محبته ملأت قلبي ، وليس امتلاء القلب هنا امتلاء حسياً ، وإنما أمر معنوي روحي ، فالمؤمن الصادق امتلأت ذراته بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم

فامتلاء كل شيء بحسبه فافهم .

---

[١] شعب الإيمان للبيهقي
[٢] السنن الكبرى للبهقي
[٣] صحيح مسلم كتاب الطهارة

ومن هذا تفهم ما هنالك من تحسسات القلوب وأحكام القلوب وخصائصها في هذا المعنى .

ومن هذا قول الله تعالى : { وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا } أي يجد الله واجداناً قلبياً بالمغفرة والرحمة .

كما أن من عصى الله وخالفه يجد الله غضباناً عليه ، وهذا ما يشعره القلب الذي فيه واعظ إيماني ،أما قلب الكافر فلا يجد ذلك فيه لأن قلبه ميت .

ومن هذا أيضاً قوله تعالى : { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا } - أي بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم - { تَوَّابًا رَحِيمًا }.

ومن هذا ما ورد في الأثر عن عبد الكريم بن رشيد أن داود عليه السلام قال : أي رب أين ألقاك ؟ قال : تلقاني عند المنكسرة قلوبهم[١] "

وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني !

قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده)[٢]

أي وجدت الله برحماته وأنواره وإحسانه

فهناك من يتجلى الله تعالى عليهم ، وهناك من تجد الله عندهم ، فإذا ذكروه فهم جلساؤه وإذا ذكروه جعل قلوبهم عنده ، وإذا خضعوا وذلوا إليه صارت قلوبهم عنده ، وهو عند قلوبهم سبحانه وتعالى .فما أعلى مقام هؤلاء ..

---

[١] الزهد الكبير للبيهقي
[٢] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

* انشراح الصدر للإسلام :

إن من تحقق بالأعمال الإسلامية الظاهرة ، والعقائد الإيمانية الباطنة انصبغ بالصبغ النورانية لتلك الأعمال وظهرت عليه آثارها ،وما ذلك إلا لأن الله تعالى شرح صدره للإسلام ، وهذا قوله تعالى :

{ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ }

ومعنى شرح الصدر : توسعته .

فيجب أن ينقاد جسمك لأعمال الإسلام من صلاة وزكاة ، ثم بالمواظبة على ذلك يزداد النور في قلبك إلى أن ينشرح للإسلام أي يتسع .

ومثال هذا : مثل المريض الذي يعالج نفسه بالأدوية حتى تعود إليه صحته شيئاً فشيئاً و يصير صحيح الجسم تماماً فمتى زالت عن هذا العبد أمراض القلب من حسد وحقد وغيبة وغش وصح قلبه فحينئذ ينظر الله إلى قلبه نظر عناية ويشرح هذا القلب ويوسعه ويفتحه - ومنه لغة المكان المنشرح أي الواسع المنفسح ، ومنه تشريح اللحم أي تفتيحه -

ثم أنزل عليه سبحانه نوراً من عنده واستنار هذا القلب حتى سرى النور إلى سائر الحواس والمدارك فصار هذا العبد يرى أموراً لا يراها غيره ويسمع أموراً ما يسمعها غيره وهكذا .

ومن هذا لما شرح الله تعالى صدور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا دائماً يلهمون الإلهامات الصادقة فسيدنا عمر رضي الله عنه لما كان يمر عليه بعض الناس من التابعين فينظر سيدنا عمر فيه نظرة فيعرف هذا الرجل وما انطوى فيه من إيمان أو نفاق أو غير ذلك وما قال عمر لأمر إني أظنه كذا إلا كان كما يظن رضي الله عنه

فعن عبد الله بن عمر قال :

(ما سمعت عمر لشيء قط يقول : إني لأظنه كذا إلا كان كما يظن) [1]

وروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رجلاً دخل عليه وكان قد مر بالسوق فنظر إلى امرأة فلما نظر إليه قال عثمان : يدخل أحدكم علي وفي عينيه أثر الزنى ! فقال له الرجل : أوحيٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فقال : لا ! ولكن برهان وفراسة وصدق [2]

---

[1] صحيح البخاري كتاب المناقب

[2] انظر تفسير الإمام الرازي لقوله تعالى : { أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً } وانظر فيض القدير للمناوي ١ / ١٤٢

فهذا نظر بنور الله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) [1]

وقال الله تعالى :

{فمن يرد الله أن يهديه } - أي هدياً خاصاً- { يشرح صدره للإسلام }

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم { فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام } فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن النور إذا دخل الصدر انفسح فقيل : يا رسول الله ، هل لذلك من علم يعرف ؟ قال : " نعم ، التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله) [2]

وهذه علامة انشراح الصدر للإسلام

ولقد كان الصحابي الجليل أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري رضي الله عنه يصلي في حائطه [3] فطار دبسي [4] فطفق يتردد يلتمس مخرجاً [5] ، فأعجبه ذلك فجعل يتبعه بصره ساعة ثم رجع إلى صلاته فإذا هو لا يدري كَمْ صلّى ، فقال :
(لقد أصابتني في مالي هذا فتنة) [6] فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له الذي أصابه في حائطه من الفتنة ، وقال :
يا رسول الله هو صدقة لله [7] فَضَعْه حيث شئت [8]
فهذا هو التجافي عن دار الغرور

---

[1] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

[2] شعب الإيمان للبيهقي ومصنف ابن أبي شيبة ومستدرك الحاكم

[3] أي : بستانه

[4] قال الحافظ الزرقاني في شرحه موطأ الإمام مالك :
(دبسي) بضم الدال المهملة وإسكان الموحدة وسين مهملة ، قال ابن عبد البر : طائر يشبه اليمامة ، وقيل هو اليمامة نفسها .

[5] قال الباجي : يعني أن اتساق النخل واتصال جرائدها كانت تمنع الدبسي من الخروج فجعل فجعل يتردد ويطلب المخرج .

[6] أي اختبار أي اختُبرت في هذا المال فشُغلت عن الصلاة

[7] قال الباجي : أراد إخراج ما فُتن به من ماله ، وتكفير اشتغاله عن صلاته .
وقال الغزالي : كانوا يفعلون ذلك قطعاً لمادة الفكر ، وكفارة لما جرى من نقصان الصلاة ، وهذا هو الدواء القاطع لمادة العلة ، ولا يغني عنه غيره .
(انظر جميع ما سبق في شرح الزرقاني للموطأ)

[8] انظر موطأ الإمام مالك كتاب النداء للصلاة والسنن الكبرى للبيهقي وتاريخ دمشق لابن عساكر والزهد والرقائق لابن المبارك

ومقام انشراح الصدر على مراتب :

فهناك انشراح صدر للمؤمنين ، والمؤمنون على مراتب : فيهم الصالحون وفيهم الشهداء ، وفيهم الصديقون ، ومن نال مقام انشراح الصدر نال مقام السكينة ، ونال مقام الطمأنينة ، قال جل وعلا : {ألا بذكر الله تطمئن القلوب }.

وهناك مقام انشراح الصدر للأنبياء والرسل وهم متفاوتون في الفضل والرتبة فهناك مقام انشراح الصدر لموسى عليه الصلاة والسلام :

{ قال رب اشرح لي صدري }.

أي شرحاً يليق بأعباء النبوة والرسالة الموسوية .

وهناك مقام انشراح الصدر الخاص بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واللائق بنبوته ورسالته ، وهو أعلى مقام في انشراح الصدر وأجمعه ، قال تعالى :

{ ألم نشرح لك صدرك ...} الآيات

أي لقد شرحنا لك صدرك شرحاً خاصاً يليق بك وبمقامك يا محمد صلى الله عليه وسلم .

والشرح إنما هو لنزول النور ، وبهذا الشرح وهذا النور المحمدي كان صلى الله عليه وسلم يرى مالا يرى غيره ويسمع مالا يسمع غيره من العوالم اللاحقة والماضية ، وإنما كان ذلك بالنور النازل على قلبه ، والنور ما به الظهور ، وكلما قوي النور أظهر خفايا الأمور ولا أعظم من نور رسول الله عليه الصلاة والسلام ولا أظهر منه فافهم .

ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الثانية

حول معنى الإيمان : مطالبه - مراتبه

بيان معنى قوله تعالى :{ والمؤمنين والمؤمنات }

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

تقدم الكلام على حديث السيدة أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها عندما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالنا لا نُذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟

فأنزل الله تعالى : {إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات }. [١]

وذكر سبحانه في هذه الآية مقامات أهل الإيمان من الرجال والنساء ، وقد ذكر ذلك سبحانه وتعالى في معرض المدح والثناء عليهم بدليل قوله جل وعلا : { أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً } .

وتقدم بيان المراد من قوله تعالى :{ إن المسلمين والمسلمات } وما هي معاني ومراتب الإسلام المقصودة من هذه الآية .

فما هو المراد من الإيمان في قوله جل وعلا :{ والمؤمنين والمؤمنات }؟

اعلم أن المراد بقوله تعالى :{ والمؤمنين والمؤمنات } هم الذين جمعوا حقائق الإيمان الكامل ويشمل مراتب الإيمان كلها وهو الإيمان المنقذ من الكفر ، والإيمان المنقذ من النفاق ، والإيمان الموصل إلى مقام السكينة والطمأنينة والإيمان الموصل إلى انشراح الصدر ، والإيمان المذيق لحلاوة الإيمان ، والإيمان المثمر الفياض بالثمرات القولية والفعلية في كل وقت وحين ، وهو الإيمان الكامل نسأل الله ذلك من فضله .

أولاً: الإيمان المنقذ من الكفر وهو أول مراتب الإيمان ويكون بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا الإيمان والإسلام بمعنى واحد ومن تحقق به خرج عن اسم (الكافر)

ثانياً : الإيمان المنقذ من النفاق

وهو إيمان القلب بمعنى التصديق الكامل الذي لا يختلط معه شك أو ريب من قضايا الإيمان وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

---

[١] تقدم تخريجه

وهو إيمان الصادقين الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يوم القيامة .

وإذا فقد هذا الإيمان النوراني القلبي صار صاحبه مع المنافقين يوم القيامة ، قال تعالى :

{ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ } فقابل المنافقين بالمؤمنين فافهم .

ثالثاً :الإيمان الموصل إلى مقام نزول السكينة على القلب :

وهو الذي انشرح صاحبه للإيمان وحبب الله إليه الإيمان فصارت كل الأعمال الإيمانية القلبية والفعلية والعملية محبوبة عنده ، وصار كل ما ينافي الإيمان من الكفر والفسوق والعصيان مكروهاً عنده كراهة إيمانية أقوى من كراهة الطبع كما يكره الإنسان النار .

وإن من حل هذا الإيمان في قلبه صار منزل الأمان والاطمئنان فلا يصدر عن صاحبه إلا الأمان ويكون هو من الله تعالى في أمان .

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، والمؤمن من أَمِنه الناس على دمائهم وأموالهم] [١]

فالناس منه في أمان وهو من الله في أمان .

قال تعالى :{الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم } - أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك - { أولئك لهم الأمن وهم مهتدون }.

وعن أنس رضي الله عنه قال : ما خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم إلا قال : [لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له] [٢]

والمراد من الإيمان: الإيمان الخاص الكامل المقتضي للأمان .

فمن أمنه الناس لإيمانه على دمائهم وأموالهم آمنه الله على نفسه وماله ودنياه وآخرته .

وعلى هذا فالإيمان له وصفان :

وصف ذاتي قائم في المؤمن يقتضي التصديق والإذعان

ووصف متعد للغير ويقتضي أن يكون الناس منه في أمان على دمائهم وأموالهم وأعراضهم .

---

[١] سنن الترمذي كتاب الإيمان وسنن النسائي كتاب الإيمان وشرائعه
[٢] المسند ١١٩٣٥

وهذان الوصفان متلازمان : إيمان وأمان .

وقال الله تعالى في بيان حقيقة الإيمان باعتبار أنه نور من الله تعالى أودعه في قلب المؤمن وحببه إليه قال جل وعلا :{ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ } ـ أي الإيمان ـ

{ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صراط الله }الآية

فمن حل هذا النور في قلبه اهتدى إلى الله وعرف الله تعالى

كما قال صلى الله عليه وسلم : (تم نورك فهديت) - أي بنورك إليك

وهذا من جوامع محامده وثنائه صلى الله عليه وسلم على ربه ، وذلك لما نشر الله دينه ودخل الناس في الإسلام وتمكن الإيمان في قلوب الصحابة وبلغ تمامه بفيوضات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإشراقات أنواره عليهم فقال صلى الله عليه وسلم :

(تم نورك فهديت فلك الحمد)- أي تم الإيمان في قلوب الصحابة وانتشر الإسلام -

(عظم حلمك فعفوت فلك الحمد ، بسطت يدك)- أي بالعطاء- (فأعطيت فلك الحمد ربنا)- أي يا ربنا - (وجهك أكرم الوجوه ، وجاهك أعظم الجاه ، وعطيَّتك أفضل العطية وأهنؤها ، تُطاع ربنا فتشكر ، وتُعصى ربنا فتغفر ، وتجيب المضطر وتكشف الضر وتشفي السقيم وتغفر الذنب وتقبل التوبة ولا يجزي بآلائك أحد) - أي لا أحد يحصي حمد نعمك -

(ولا يبلغ مدحتك قول قائل) [1] - أي أنت كما نحمد وفوق ما نحمد وكما نمدح وفوق ما نمدح

وقد بين سبحانه أن حقيقة الإيمان نور من الله تعالى فقال جل وعلا :

{ يريدون أن يطفئوا نور الله }- أي نوره الشرعي المحمدي -

{ بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون}

فقد أخبر سبحانه عن اليهود والنصارى والمشركين أنهم أرادوا أن يطفئوا نور الله الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الشريعة المحمدية فأنزل الله تعالى :{ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم }

---

[1] مسند أبي يعلى

على وجه التهكم بهم إذ إنهم لا يستطيعون أن يطفئوا نور الشمس وهي خلق من مخلوقات الله تعالى فكيف يستطيعون أن يطفئوا نور الله الإيماني المحمدي ؟!

لأنه أثبت وأبقى من دوام الشمس ولا يستطيعون إطفاءه مهما حاولوا ، ولابد له أن يتم ويعم .

وقال صلى الله عليه وسلم : (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق)[١]

إلى أن ينقضي الزمان وتقوم الساعة فينطفئ هذا النور من هذا العالم ويشرق في عالم آخر

فلقد بين سبحانه أن النور الإيماني الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم تام إلى يوم القيامة وتام في القلوب [تم نورك فهديت] .

{ يتم نوره } : يتم نوره في العالم وهي قلوب المؤمنين وعلى قدر تمام النور في قلب المؤمن يكمل إيمانه .

وينبغي على المؤمن أن يسأل ربه أن يتم له نوره من جميع الوجوه والاعتبارات كما قال تعالى مخبرا عن المؤمنين :

{ يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير } الآية .

{ أتمم لنا نورنا } أي من كل الوجوه والاعتبارات وأن يصحبنا كذلك في جميع العوالم

و عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بشر المشائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة)[٢]

وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته دعاء الاستزادة من النور وتمام النور فكان من دعائه صلى الله عليه وسلم إذا أراد المسجد أو إذا قام في الليل - وهو بيان لمعنى قوله تعالى { أتمم لنا نورنا } - كان من دعائه صلى الله عليه وسلم - :

(اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي بصري نوراً وفي سمعي نوراً وعن يميني نوراً وعن يساري نوراً وفوقي نوراً وتحتي نوراً وأمامي نوراً وخلفي نوراً واجعل لي نوراً أو قال : واجعلني نوراً)[٣]

---

[١] صحيح مسلم كتاب الإمارة

[٢] سنن الترمذي كتاب الصلاة وسنن أبو داود كتاب الصلاة

[٣] صحيح البخاري كتاب الدعوات وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

وفي رواية :

(اللهم اجعل لي نوراً في قبري ، ونوراً في قلبي ، ونوراً من بين يديّ ، ونوراً من خلفي ، ونوراً عن يميني ، ونوراً عن شمالي ، ونوراً من فوقي ، ونوراً من تحتي ، ونوراً في سمعي ، ونوراً في بصري ، ونوراً في شعري ، ونوراً في بَشَري)- أي جلدي - (ونوراً في لحمي ، ونوراً في دمي ، ونوراً في عظامي) [1]

ومن اهتدى إلى الله تعالى وعرف الله بالربوبية عرف ما لله عليه من العبودية فأذعن لأمر الله ووجب عليه أن يتحقق بشعب الإيمان القولية والعملية والخلقية والأدبية

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان) [2]

وهذا يدل على أن الإيمان منه قولي ومنه عملي ومنه خلقي

كما بين سبحانه أن الإيمان غرسة في القلب وأن ثمرة هذه الغرسة هي الأقوال الطيبة و الأعمال الصالحة ، وأن لهذه الثمرة حلاوة يجدها المؤمن في قلبه فقال جل وعلا :{ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار* يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء} الآيات .

فقوله جل وعلا {ألم تر } : أي ألم تعلم يا رسول الله علما شهودياً كأنه رؤية عين بالنسبة لك لأنك ترى ما لا يرى غيرك وتسمع ما لا يسمع غيرك

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون) [3]

فأنت يا رسول الله ترى نور الإيمان في القلوب وترى شجرة الإيمان في القلوب وترى ما لا يراه غيرك من عالم الغيوب

{ كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة }ورد عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله عز وجل { كلمة طيبة } قال : [شهادة أن لا إله إلا الله] [1]

---

[1] سنن الترمذي كتاب الدعوات

[2] صحيح مسلم كتاب الإيمان

[3] سنن الترمذي كتاب الزهد وسنن ابن ماجه كتاب الزهد

{كشجرة طيبة } جاء بيانها عن صاحب البيان عن القرآن صلى الله عليه وسلم أنها النخلة

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أُتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع من بسر ، فقال : { ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة } قال : (هي النخلة) [2]

فشبه سبحانه الإيمان بالنخلة

{ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها } فكما أن شجرة النخلة تؤتي أكلها وثمرها على دوام السنة - البلح ،التمر - فكذلك شجرة الإيمان في القلب وهي شجرة [لا إله إلا الله محمد رسول الله] دائمة الإثمار بالأقوال الطيبة والأعمال الصالحة

وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:

(كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم: أخبروني بشجرة تشبه أو كالرجل المسلم لا يتحاتُّ ورقها ولا ولا ولا ، تؤتي أكلها كل حين قال ابن عمر : فوقع في نفسي أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هي النخلة) . فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة ، فقال : ما منعك أن تَكلم ؟ قلت : لم أركم تكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً قال عمر : لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا) [3]

{ أصلها ثابت }: فإن أصول وجذور شجرة النخلة ثابتة في الأرض بما يناسب عطاءها وثمارها وأغصانها ، وكذلك فإن ثمرات شجرة الإيمان على قدر رسوخها في القلب ، فأصل شجرة الإيمان ثابت في أرض القلب وثمراتها في السماء لأن الله تعالى يرفع الأعمال والأقوال إليه .

قال تعالى : { إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه }.

فالكلم الطيب يصعد بنفسه والعمل الصالح ترفعه الملائكة إلى الله تعالى .

ويكون مقر هذه الأعمال والأقوال عند سدرة المنتهى وأنوارها في العرش .

فمن استوفى ورق شجرة الإيمان وحققها جميعها فقد استوفى جميع ورق سدرة المنتهى ، وحطت له أعمال في جميع أوراق السدرة كما هي أعمال الأنبياء والمقربين .

---

[1] الدعاء للطبراني
[2] السنن الكبرى للنسائي
[3] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

ومن كشف له عن أوراق سدرة المنتهى وما انتهى إليها من أعمال النبيين والمقربين يرى أن كل ورقة تضيء على أهل السماوات السبع كما تضيء الشمس على أهل الدنيا .

وإن للأعمال الصالحة أبواباً خاصة في السماء تصعد منها إلى الله

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من مؤمن إلا وله بابان ، باب يصعد منه عمله ، وباب ينزل منه رزقه ، فإذا مات بكيا عليه ، فذلك قوله عز وجل : { فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين }"[1]

أي الكفار لا تبكي على موتهم سماء ولا أرض ، وأما المؤمن فتبكي عليه السماء والأرض لأنها كانت تستنير بنور أعماله .

و عن أبي قتادة أنه كان يحدِّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر عليه بجنازة ، فقال : مستريح ، ومستراح منه ، قالوا : يا رسول الله ، ما المستريح والمستراح منه ؟ قال : " العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب) [2]

وقد بين سبحانه حقيقة الإيمان باعتبار أنه شجرة إيمانية غرسها الله تعالى في القلوب المستعدة للغرس فقال سبحانه وتعالى : { كتب في قلوبهم الإيمان } - أي وما كان بكتابة الله لا يتغير ولا يتبدل - { وأيدهم بروح منه } - أي سيدنا جبريل عليه الصلاة والسلام -

يدل على هذا دعاؤه صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت : (اللهم أيده بروح القدس ما نافح) - أي دافع - (عن نبيك) [3]

{وألزمهم كلمة التقوى }وهي كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله

{وكانوا أحق بها وأهلها } - أي لقوة استعدادهم -

{ وكان الله بكل شيء عليماً }.

وهذه الشجرة الإيمانية لها شعوب وأغصان وثمار وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم :

[الإيمان بضع وسبعون شعبة] كما تقدم ، ولا يدخل المؤمن الجنة إلا إذا تحقق بجميع شعب الإيمان الاعتقادية والقولية والعملية والخلقية .

---

[1] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

[2] صحيح البخاري كتاب الرقاق وصحيح مسلم كتاب الجنائز

[3] المعجم الكبير للطبراني

وإن أدنى شعب الإيمان إماطة الأذى عن الطريق ، ولما كانت إزاحة الأذى عن الطريق من الإيمان كان تعمد أذى الطريق شعبة من الكفر والعصيان فليحذر المؤمن ذلك .

ولما كانت الشجرة لا تعطي ثماراً يانعة إلا بشروط وهي إزالة ما حولها من الحشائش الضارة ، وأن يتعهدها صاحبها بالسقيا بماء عذب نظيف وأن يجنبها صاحبها الرياح والأعاصير المحرقة فكذلك شجرة الإيمان لا يتذوق صاحبها حلاوة ثمارها ويصل إلى مقام يذوق حلاوة الإيمان إلا بعد أن يرعى هذه الشجرة الإيمانية في قلبه بإزالة ما يضرها من الشهوات المحرمة ، وأن يباعد نفسه عن الأهواء والشبهات والانتقادات على شريعة الله ورسوله فإنها بمثابة الإعصار المحرق وربما حبط إيمانه إن هو انتقد على أمر مِن شرع الله ورسوله أو ابتدع أمراً ما شرعه الله ورسوله .

كما لابد من سقيا هذه الشجرة بماء القرآن النازل على خير الأنام صلى الله عليه وسلم على الوجه الذي بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أذكار وقراءة قرآن وتهليل وتسبيح وتحميد وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

ومن لم يتعهد شجرة إيمانه بالسقيا والرعاية فقد عرض إيمانه للضعف والنقصان وربما للزوال وقد بين هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:

(إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب) - أي كما يبلى الثوب على مر الزمان - ، (فاتلوا القرآن يجدد الإيمان في قلوبكم) [1]

- أي يبقيه جديداً غضاً رطباً .

ولما كان أصل شجرة الإيمان هو لا إله إلا الله محمد رسول الله كان الإكثار منها يثبت الإيمان ويقويه في القلب .

وفي هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً للصحابة : " جددوا إيمانكم " ، قيل : يا رسول الله ، وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : " أكثروا من قول لا إله إلا الله "[2]

والمعنى :أنكم إذا أكثرتم من (لا إله إلا الله) أَعَدْتُم إيمانكم إلى قوته وجِدَّته الأولى أما إذا غفلتم عنها عرضتم إيمانكم للخلق والبلى .

وقد امتثل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك فراحوا يتعاطون أسباب تقوية الإيمان إما في البحث والتوسع في علم

[1] المعجم الكبير للطبراني
[2] المسند ٨٣٥٣

ومعاني آيات الله وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو الإكثار من ذكر الله تعالى على جميع الأحيان وفي جميع الأوقات .

ومن هذا ما ورد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : كان عبد الله بن رواحة يأخذ بيدي فيقول : تعال نؤمن ساعة [1]

- أي نقوي ونثبت إيماننا ، فيجلسان ويذكران آيات الله تعالى ويبحثان في معانيها ويذكران الله تعالى .

ويقول جل وعلا : {وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً }

وقد ورد عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه أنه كثيراً ما يجري على لسانه (لا إله إلا الله) فكان إذا كلم أحداً بمسألة يقول : (لا إله إلا الله) بين جملة وأخرى *.

وينبغي على المؤمن أن يردد في ثنايا كلامه ذكر (لا إله إلا الله)، ومن قال عنه : مجنون ، فما قال ذلك إلا لجنون هو فيه .

وقد ضرب الله مثلاً في سقيا القلوب بماء القرآن ، وأن القلب بمثابة الوادي فهناك الوادي الكبير وهناك الصغير وهناك الوادي النظيف وهناك الوادي الممتلئ بالأقذار .

ولما ينزل ماء المطر يأخذ كل واد حظه من الماء على حسب سعته واستعداده .

وكذلك القلوب وسعتها وصفاؤها بالنسبة لماء القرآن .

قال تعالى : { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا } الآية

وإن المنزل الأول لماء القرآن وأسراره إنما هو قلب السيد الأعظم صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى فيه :{ نزل به الروح الأمين على قلبك }

وعن هذا القلب الأعظم استمدت قلوب المؤمنين على حسب سعتها واستعدادها .

واعلم أن الخير كل الخير هو ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ولا خير يرجى من سواه صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا يقول جل وعلا :
{ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون }.

أي قل لهم يا رسول الله :بفضل الله عليكم بالإيمان ورحمته لكم ببعثة خير الأنام كما قال جل وعلا : { وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين }

---

[1] عزاه في كنز العمال للطبراني وجاء في صحيح البخاري : وَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً

{ فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون }.

أي إذا فرح الفرحون بأمر من الأمور فالفرح الحقيقي للمؤمن هو بتفضل الله عليه بالإيمان وتشريفه له بأن جعله من أتباع خير الأنام عليه الصلاة والسلام .

ومَن كملت غصون شجرة إيمانه حتى أينعت وأثمرت بالأعمال الصالحة والأقوال الطيبة ذاق حلاوة الثمار

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله) - أي لإيمانه وصلاحه لا لماله وجاهه الدنيوي - ، (وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار) [1]

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً) [2]

قال جل وعلا : {ومثل كلمة خبيثة }- وهي الكفر - { كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار } فكلمة الكفر كشجرة الحنظلة الكريهة الرائحة المرة المذاق ، ولا أصل لها في الأرض وربما عبثت بها الرياح وأهلكتها { يثبت الله الذين آمنوا } – أي الذين ثبت الإيمان في قلوبهم في الدنيا وقد استثبتوه بالأعمال والأقوال الطيبة وأحاطوه من التفلت بتقوى الله وتعهدوه بسقيا ماء القرآن

{ بالقول الثابت }وهو قول (لا إله إلا الله محمد رسول الله)

{ في الحياة الدنيا } فلا يزيغون ولا يضلون ولا يرتدون لأن الإيمان تعشق في قلوبهم وانصبغ بصبغة الله التي لا تبديل لها

قال تعالى : { وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ }

{ وفي الآخرة } أي في برازخ الآخرة حين يمرون على الفتن والمحن ، وأول برازخ الآخرة هو القبر

وكان الصحابة رضي الله عنهم يعلمون أولادهم من صغرهم أنهم إذا سئلوا في القبر أن يقولوا : [الله ربي ومحمد رسولي والإسلام ديني] .

---

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان واللفظ له و صحيح البخاري كتاب الإيمان

[2] صحيح مسلم كتاب الإيمان

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (المسلم إذا سئل في القبر : يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" ، فذلك قوله تعالى : { يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة } [١]

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(العبد إذا وضع في قبره ، وتولي وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان ، فأقعداه) - أي في عالم برزخي -

(فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال : انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " فيراهما جميعاً ، وأما الكافر أو المنافق فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس) - وهذا شأن من كان دينه تابعاً لهوى نفسه وأهواء الناس إن كفروا كفر وإن فسقوا فسق -

فيقال : (لا دريت) - أي بالتعقل والبحث عن الإيمان -

(ولا تليت) - أي ولا اتبعت الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء عنه -

(ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين) [٢]- أي الإنس والجن ، وأما البهائم فتسمع -

قوله جل وعلا : { ويضل الله الظالمين } :أي لا يهديهم إلى الجواب إن كانوا كافرين أو منافقين .

أما المؤمنون المرتكبون المعاصي المقصرون وقد أدركهم الموت قبل أن يتوبوا فقد يتلكأ أحدهم في الجواب وفي هذا قال السلف رضي الله عنهم :

إن السؤال قد يمتد إلى الميت إلى سبعة أيام حتى يجيب [٣] .

---

[١] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

[٢] صحيح البخاري كتاب الجنائز

[٣] قال السيوطي في الدر المنثور :
أخرج أحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية ، عن طاوس رضي الله عنه قال : إن الموتى يفتنون في قبورهم سبعاً ، فكانوا يستحبون أن يطعم عنهم تلك الأيام .
وقال السيوطي في شرحه صحيح مسلم :
روى أَحْمد بن حَنْبَل فِي الزّهْد وَأَبُو نعيم فِي الْحِلْية عَن طَاوس أَن الْمَوْتَى يفتنون فِي قُبُورهم سبعا فَكَانُوا يستحبون أَن يطعموا عَنْهُم تِلْكَ الْأَيَّام
إِسْنَاده صَحِيح وَله حكم الرّفْع
وَذكر ابن جريج فِي مُصَنفه عَن عبيد بن عُمَيْر أَن الْمُؤمن يفتن سبعاً وَالْمُنَافِق أَرْبَعِينَ صباحاً ، وَسَنَده صَحِيح أَيْضا

وقد ورد عن هانىء مولى عثمان عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال :

(كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: استغفروا لأخيكم و سلوا الله له بالتثبيت فإنه الآن يُسأل) [١]

وفي هذا دليل انتفاع الأموات بدعاء الأحياء واستغفارهم .

اللهم ثبِّتنا على الإيمان و حبِّب إلينا الإيمان ، وزينه في قلوبنا ، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، اللهم أحينا مسلمين و توفنا مسلمين ، واجعلنا من عبادك الصالحين ، غير خزايا ، ولا مفتونين . آمين

ونسأل الله تعالى التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين

---

[١] سنن أبي داود كتاب الجنائز

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الثالثة

القنوت : آثاره ـ مطالبه

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

لقد ذكر سبحانه هذا المقام في معرض المدح والثناء عندما ذكر جملة من مقامات أهل الإيمان الكامل من الرجل والنساء .

فقال جل وعلا :

{ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ }

ثم قال جل وعلا :

{ أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً }والمراد من القنوت في هذه الآية: القنوت الجامع وهو الطاعة والانقياد لأمر الله سبحانه .

ومعنى { القانتين والقانتات } :أي : الطائعين لله تعالى في أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم ، والطائعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أمر به ، والطائعات لله تعالى في أقوالهن وأعمالهن وأحوالهن ، والطائعات لرسول الله صلى الله عليه وسلم بدليل أنه سبحانه ذكر في الآية قبلها :{ ومن يقنت منكن لله ورسوله } الآية .

ومعنى قنوت العبد : هو قيامه بعبادة ربه ، انقياداً لطاعة ربه وامتثالاً لأمره ، فيفعل الأوامر الشرعية طاعة لله فيما أمر ويترك المناهي امتثالاً لأمر الله فيما نهى

وإن للقنوت مراتب وآثاراً فإذا صح قنوت العبد واستحكم فيه حمله ذلك إلى الحضور والخشوع له سبحانه ، وفي هذا يقول جلا وعلا :{ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } .أي قوموا لله تعالى في صلواتكم وأعمالكم وطاعاتكم مطيعين لله تعالى حاضرين بقلوبكم مع الله خاشعين له سبحانه ، أما المراد بالصلوات فهي الصلوات الخمس المفروضة .

وأما المحافظة عليها فتشمل المحافظة عليها بأن لا يترك صلاة منها ، ثم المحافظة عليها في أوقاتها ، وأن لا يؤخر العبد صلاة إلى وقت صلاة أخرى إلا لعذر شرعي ـ كالمسافر الذي له أن يجمع بين صلاتين كما هو منصوص عليه عند الفقهاء ـ وليس انشغال العبد في أمور الدنيا عذراً شرعياً فافهم .

وقد ورد في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من جمع الصلاتين من غير عذر فقد أتى باباً من أبواب الكبائر) [1]

فمن أخَّر صلاة إلى وقت صلاة أخرى فقد أتى باباً من أبواب الكبائر - ولو قضاها - لأن الصلاة فرض ، وإيقاعها في وقتها فرض ، ومن قضاها في غير وقتها فقد سقط عنه فرض المطالبة وعليه إثم التأخير ، ويجب عليه التوبة إلى الله تعالى من ذلك .

ثم هناك المحافظة على الصلوات أي على آدابها وسننها وخشوعها .

ثم هناك المحافظة على الصلوات من الضياع أي من ضياع ثوابها وإحباط أجرها وذلك إذا ارتكب المصلي أموراً تذهب الحسنات كالحسد والحقد والغيبة والنميمة والضرب والسب .

كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (أتدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا مَن لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة ، وصيام ، وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار) [2]

وأما المراد من الصلاة الوسطى فإما أن يكون ذلك من التوسط وذلك لتوسطها بين صلاتين أو من الوسط بمعنى الفضل - والمعنى الصلاة الفضلى - وخير الأمور أوساطها .

قال الله تعالى : { وكذلك جعلناكم أمة وسطاً } أي خِياراً عُدولاً أفضل الأمم .

فما هي الصلاة الوسطى باعتبار أنها من التوسط ؟

قال بعضهم : هي صلاة الظهر لأنها في وسط النهار .

وقال بعضهم - وهو الحق والله أعلم - : هي صلاة العصر لأنها وسط بين صلاتين في النهار وصلاتين في الليل ، وقد سمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة الوسطى كما في يوم الخندق عندما شغل المسلمون عن صلاة العصر وقال عليه الصلاة والسلام :

---

[1] سنن الترمذي كتاب الصلاة

[2] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب وسنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

(ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً ، كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس) [١]

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل المحافظة على صلاة العصر ، والترهيب من تركها أو تأخيرها ، فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

(من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله) [٢]

وقد جاء التأكيد بالمحافظة على صلاة العصر وهي الصلاة الوسطى ، لأن الإنسان غالباً ما يكون مشغولاً في أعمال الدنيا في وقت العصر

وقال بعضهم : هي صلاة المغرب لأنها ثلاث ركعات فهي وسط في العدد بين الصلاة الرباعية والثنائية من بقية الصلوات .

وقال بعضهم : هي صلاة العشاء باعتبار أنه يسبقها صلاة المغرب والعصر ثم يدركها صلاة الفجر والظهر ، والمغرب بعد الغروب والفجر قبل الشروق فهي وسطى من حيث كونها متوسطة بين غروب الشمس وشروقها .

وقال بعضهم : هي صلاة الصبح لأنه يسبقها صلاة المغرب والعشاء وهما في الليل ويأتي بعدها صلاة الظهر والعصر وهما في النهار فهي وسطى من هذا الاعتبار

وقال بعضهم : يحتمل أن تكون كل صلاة هي الصلاة الوسطى وإنما أخفى ذكر تعيينها سبحانه وأجملها حتى يحافظ العبد على الصلوات كلها .

ولهذا نظائر كثيرة فقد أجمل سبحانه ليلة القدر وإنما حددها في العشر الأخير من رمضان حتى لا ينالها إلا من التمسها في كل ليلة من ليالي العشر الأخير من رمضان .

كما أنه سبحانه أجمل وأخفى ساعة الإجابة يوم الجمعة [٣] حتى يشغل العبد يوم الجمعة كله بالعبادة والطاعة ، ومن فعل ذلك فقد صادف ساعة الإجابة .

كما أن في كل ليلة ساعة إجابة يتفضل الله بها على عباده بالقبول والإجابة ، ومن صادف الليلة بالإحياء صادف ساعة الإجابة ، فلله جل وعلا حكم وأسرار في إجماله بعض الأمور .

---

[١] صحيح البخاري كتاب المغازي وصحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة

[٢] صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة

[٣] وأرجح الأقوال أنها آخر ساعة من يوم الجمعة أو وقت الصلاة من حين صعود الإمام إلى انتهاء الصلاة

وقال بعضهم: إن المراد من الصلاة الوسطى الصلاة الفضلى - أي ذات الفضل - وهي صلاة الجمعة .

وقال بعضهم : الصلاة الوسطى هي قيام الليل فإن الصلاة في الليل وإن لم تكن أفضل من الصلوات المكتوبة إلا أن لها فضلاً كبيراً .

قوله تعالى : { وقوموا لله قانتين }: أي طائعين له ويلزم منه الخشوع .

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال :

[كنا نتكلم في الصلاة ، يكلم أحدنا أخاه في حاجته حتى نزلت هذه الآية { حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين } فأمرنا بالسكوت] [١]

ولما كان القنوت الكامل من المقامات العالية وصف الله تعالى به سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال جل وعلا :

{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }

وقنوت إبراهيم عليه السلام قنوت كامل جامع لمراتب القنوت .

فهو قنوت جسمي أركاني وقنوت قلبي وقنوت عقلي وقنوت روحي .

ومعنى قوله جل وعلا : { كان أمة } أي بمنزلة الأمة في كمالاته وفضائله فجمع من الفضائل والكمالات والعلوم ما لو وزع على أمة لوسعهم ، وإن من شأن مَن كان أمة - أي مجمعاً للفضائل والكمالات - من شأنه أن يكون إماماً للناس ، قال تعالى : { إني جاعلك للناس إماماً } ، وأن يفيض الكمالات والعلوم على الناس

ولله در القائل :

وليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد .

وعن الشعبي قال : حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال : قال ابن مسعود :

إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً ، فقلت في نفسي : غلط أبو عبد الرحمن ، إنما قال { إن إبراهيم } قال : أتدري ما الأمة ، وما القانت ؟ قلت : الله أعلم ، قال : الأُمة الذي يعلم الناس الخير ، والقانت المطيع لله ولرسوله ، وكذلك كان معاذ بن جبل يعلم الخير ، وكان مطيعا لله ولرسوله [٢]

- أي فهو على قدم الخليل عليه السلام وإن من شأن من كان أمة في علومه وكمالاته أن يوجِّه أمة وأن يؤمها إلى الخير والكمال .

---

١ صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

٢ المعجم الكبير للطبراني ومستدرك الحاكم

ولما كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الأنبياء والمرسلين كان أمة الأمم وإمام الأئمة صلى الله عليه وآله وسلم .

ولقد حوى صلى الله عليه وسلم من الكمالات والعلوم والفضائل ما لو وزعت على العالمين لوسعتهم ولرجحت بهم ،ويدل على هذا الوزن الذي اتزن به والمقاييس التي قيس بها صلى الله عليه وسلم في كمالاته .

فعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله كيف علمت أنك نبي حتى استيقنت ؟ فقال : يا أبا ذر أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة فوقع أحدهما على الأرض - أي وقف - وكان الآخر بين السماء والأرض فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟

- وليس هذا إشارة إلى الغيبية وإنما إشارة إلى الحقيقة والهوية ، أي الحقيقة المحمدية الجامعة إذ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهود حاضر وليس بغائب عنهما ، وهذا يكون لما يعجز المرء عن التعبير والإحاطة عن الآخر بكمالاته وفضائله ، والمعنى : أهو هو المعروف بكمالاته وفضائله في عالم السماوات والملأ الأعلى وما هنالك ؟-

(قال : نعم قال : فَزِنهُ بِرَجُل فوُزِنت به فوزنته) - وليس هذا الميزان للمباني وإنما هو للمعاني- (ثم قال : فزنه بعشرة فوزنت بهم فرجحتهم ، ثم قال : زنه بمائة فوزنت بهم فرجحتهم ، ثم قال : زنه بألف فوزنت بهم فرجحتهم ، كأني انظر إليهم ينتثرون علي من خفة الميزان ، قال : فقال أحدهما لصاحبه :

لو وزنته بأُمَّته لرجحها) [1]

فهو صلى الله عليه وسلم أمة الأمم وإمام الأئمة ، ومن جملة المقتدين به سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي قال الله تعالى فيه { كان أمة } وذلك ليلة الإسراء والمعراج .

وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام (إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم ، غير فخر) [2]

فهو صلى الله عليه وسلم مهبط الكمالات من رب العالمين ومنزلها الأول وهو قاسم الكمالات على العالمين كما قال صلى الله عليه وسلم :

(وإنما أنا قاسم والله يعطي) [3]

---

[1] سنن الدارمي في المقدمة

[2] سنن الترمذي كتاب المناقب وسنن ابن ماجه كتاب الزهد

[3] صحيح البخاري كتاب العلم واللفظ له وصحيح مسلم كتاب الزكاة

وعنه صلى الله عليه وسلم تكون الإفاضة على العالمين ، صلى الله عليه وآله وسلم أبداً أبداً أبداً .

وقد امتدح الله القانتين وأثنى عليهم فقال جل وعلا :

{ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ }.

فقوله تعالى : { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا }: أي هل يستوي القانت لربه القائم آناء الليل بين سجود وقيام مع غيره ؟

فكما لا يستوي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، كذلك لا يستوي القانت آناء الليل مع غيره .

والمراد من آناء الليل :

إما من نصف الليل إلى آخره ، أو وقت السحَر ، أو في الثلث الأخير منه ، أو من أول الليل إلى آخره .

{ يحذر الآخرة }: أي يخاف يوم القيامة إما خوف العذاب على ذنوب ارتكبها ، أو خوف العتاب على انغماسه في المباحات ، أو تركه الأفضل ، - وقد يعاتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم على تركه لبعض السنن التي سَنَّها صلى الله عليه وسلم -

أو يخاف الآخرة من حيث موقفه بين يدي رب العالمين للسؤال وإن كان على درجة من الاستقامة والطاعة .

كما قال تعالى : { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا } - أي من أعمال صالحة - { وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ } - أي لأنهم إلى ربهم راجعون فقلوبهم خائفة تحذر ذلك الموقف.

فالخوف من الآخرة يكون على حسب حال المؤمن فالعاصي يخاف العذاب ، والتقي يخاف العتاب ، وهناك من يخاف الحجاب ، وهناك من يخاف هيبة الجلال

عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمداني أن السيدة عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت :

(سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : { والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة } قالت عائشة : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟

قال : لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ، وهم يخافون أن لا يقبل منهم) - أي لِما فيها من شيء قد يُخل بالإخلاص مع الله تعالى كشائبة رياء أو سمعة- (أولئك يسارعون في الخيرات) [١]

قوله تعالى : { ويرجو رحمة ربه } فهو يخاف من عمل نفسه ويرجو رحمة ربه .

ومن كان هذا شأنه فهو على درجة من العلم والمعرفة بربه ، قال جل وعلا :

{ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ }

وورد عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما في آية : { أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه } قال : هو عثمان بن عفان [٢]

- أي شهد له أنه تنطبق عليه هذه الآية تماماً وهذا لأن سيدنا عثمان رضي الله عنه كثيراً ما كان يختم القرآن الكريم في ليلة واحدة .

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه شهد بذلك لسيدنا عمار بن ياسر رضي الله عنه [٣]

وهذه الآية هي من جملة الآيات التي أثنى الله فيها على قوَّام الليل وألحقهم بأهل العلم وأولي الألباب .

وكان صلى الله عليه وسلم يحرض الصحابة على قيام الليل ويرغبهم فيه .

وكثيراً ما كان يتعهدهم في قيام الليل حتى خافوا أن يفرض ثانية عليهم لأنه كان فرضاً أول الأمر ثم نسخت فرضيته واستمر استحبابه .

وجاء في الحديث عن بلال رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وإن قيام الليل قربة إلى الله ومنهاة عن الإثم وتكفير للسيئات ومطردة للداء عن الجسد) [٤]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرغب في قيام الليل حتى قال : (ولو ركعة) [٥]- أي ولو شيئاً قليلاً

---

[١] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن
[٢] انظره في حلية الأولياء
[٣] عزاه السيوطي في الدر المنثور لابن سعد في طبقاته وابن مردويه
[٤] سنن الترمذي كتاب الدعوات
[٥] سنن الدارمي كتاب الرقاق

وكان أول ما سمعه عبد الله بن سلام رضي الله عنه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة قوله صلى الله عليه وسلم :

(يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلوا الأرحام ، وصلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام) [1]

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

(قلت : يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني ، فأنبئني عن كل شيء ، فقال : كل شيء خلق من ماء) - وهو ماء الحياة الذي اشتمل على جميع العناصر التكوينية - (قال : قلت : يا رسول الله أنبئني عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة ، قال : أفش السلام ، وأطعم الطعام ، وصل الأرحام ، وقم بالليل والناس نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام) [2]

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن في الجنة غرفة) وفي رواية : (غُرفاً) [3] - والغرف هي القصور العالية -

(يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها) - أي شفافة براقة -

(فقال أبو موسى الأشعري : لِمن هي يا رسول الله ؟ قال : لِمن ألان الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات لله قائماً والناس نيام) [4]

وإن من شرف المؤمن وعلو مقامه عند ربه إنما هو بقيامه بالليل ، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام : (أشراف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل) [5]

وهم قوام الليل الذين صار بينهم وبين الليل صحبة لأنهم لا يدعون ليلة تفوتهم لا يقومون لله فيها .

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال :

(جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، أحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ، وعش ما شئت فإنك ميت ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس) [6]

---

[1] سنن ابن ماجه كتاب الأطعمة وسنن الدارمي كتاب الصلاة

[2] المسند ٧٥٩١

[3] صحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم

[4] المسند ٦٣٢٦

[5] شعب الإيمان للبيهقي

[6] شعب الإيمان للبيهقي والمعجم الأوسط للطبراني

وفي هذا تعليم للأمّة فالعاقل من يتخذ حبيباً دائماً لا يفارقه وهو الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى :

{ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }

والمرء مع من أحب في جميع العوالم في الدنيا والآخرة .

ومن أسرار قيام الليل أن الله تعالى يتقرب إلى عباده في الليل .

جاء في الحديث عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

(أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر ، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن) [١]

فمن بادر إلى قيام الليل ولاحظ قرب الله منه وتقرب إلى الله بالسجود لله

- كما قال سبحانه : { واسجد واقترب} ، و قال صلى الله عليه وسلم :

(أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء) [٢] -

من لاحظ قرب الله منه وتجلياته عليه في الليل وراح يتقرب إلى الله بالصلاة والسجود فلابد أن ينال الوصال .

واعلم أن لله تعالى تجليات في أثلاث الليل ففي الثلث الأول يتجلى على عالم الأرواح ويشعر بهذا التجلي أهل البرزخ وأهل الأرواح العالية وفي الثلث الثاني يتجلى على أهل القلوب وفي الثلث الثالث يتجلى على عالم الشهادة .

وجاء في الحديث عن عثمان بن أبي العاص الثقفي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (تفتح أبواب السماء نصف الليل ، فينادي مناد : هل من داع فيستجاب له ، هل من سائل فيعطى ، هل من مكروب فيفرج عنه) [٣]

وليس من الأدب أن يعرض العبد عن تجليات ربه بالنوم والغفلة ومن امتثل أمر ربه بالقيام والدعاء والابتهال فإن الله تعالى لا يخيبه لأنه أجاب دعوة ربه وعمل بأمره .

---

١ سنن الترمذي كتاب الدعوات وسنن النسائي كتاب المواقيت

٢ صحيح مسلم كتاب الصلاة

٣ المعجم الأوسط للطبراني

ولما سأل سيدنا زكريا عليه الصلاة والسلام ربه جل وعلا الولد - رغم كبر سنه وعقر زوجته - قام عليه السلام في الليل فجعل يهتف بربه يقول خفية : (يا رب يا رب يا رب) فقال الله له : (لبيك لبيك لبيك) [1]

فقال كما أخبر سبحانه عنه :

{ رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً }

فقد قدَّم عرض حاله وعجزه وفقره إلى ربه قدم ذلك بين يدي ربه ثم توسل إلى الله تعالى بعطائه السابق طلباً للنوال اللاحق .

{ولم أكن بدعائك ربي شقياً }:أي لم أكن بدعائك ربي محروم الإجابة فما عوَّدتني إلا الإجابة فلا تقطع عني عوائدك وإحسانك .

وقد أجاب الله دعاءه وحقق مراده وأنزل في هذا

{كهيعص[2] ذكر رحمة ربك عبده زكريا }

أي أن رحمة ربك بالربوبية الخاصة يا محمد - صلى الله عليه وسلم - والذي تعلم من رحمته ما لا يعلمه غيرك ، هذه الرحمة الربانية ذكرت عبده زكريا عليه الصلاة والسلام حينما نادى ربه نداء خفياً .

وهذا يدل على أن المؤمن إذا دعا ربه بصدق وإخلاص ذكرته رحمة الله تعالى ، ومتى ذكرته وصلت إليه ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم :

(من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة) [3]

---

[1] انظر تفسير ابن كثير لسورة مريم
[2] قوله جل وعلا : {كهيعص } كاف : إشارة إلى كفاية الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو اسم الكافي ، قال سبحانه : { أليس الله بكاف عبده }
ها : إشارة إلى اسمه جل وعلا الهادي ، قال تعالى : { ووجدك ضالاً فهدى } أي : فهداك إلى الرسالة والنبوة ، وقال سبحانه : { ويهديك صراطاً مستقيماً }
يا : للتأييد ، قال تعالى : { هو الذي أيدك بنصره والمؤمنين }
عين : إشارة لعناية الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، قال سبحانه : {فإنك بأعيننا}
ص :إشارة لنصره سبحانه لرسوله ، قال تعالى : {وهو خير الناصرين } ، وقال سبحانه : {وينصرك الله نصراً عزيزاً }
فقد ظهرت آثار هذه الأسماء فيك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
[3] سنن الترمذي كتاب الدعوات

وقد قام بعض السلف رضي الله عنهم في الليل فسمع قائلاً يقول :

يا رجال الليل جِدّوا　　　رب[1] داع لا يرد

ما يقوم الليل إلا　　　من له عزم وجدٌّ

ليس شيء كقيام　　　الليل للقبر يُعدُّ

فقال له : زدني ، فقال :

قد مضى الليل وولى　　　وحبيبي قد تجلى

ورؤي بعضهم في المنام فقال : [طاحت تلك الإشارات ، وطاشت تلك العبارات ، ولم ينفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في السحر] [2]

وهذا معنى : ليس شيء كقيام　　　الليل للقبر يعد

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ينزل الله في السماء الدنيا لشطر الليل ، أو لثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، أو يسألني فأعطيه ، ثم يقول : من يقرض غير عديم ، ولا ظلوم) [3]
وفي رواية : (حتى يطلع الفجر) [4]

ولقد جمع الله تعالى ذكر هذه المقامات العالية بقوله :

{الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار }

وقد أخَّر سبحانه ذكر الاستغفار بعد ذكره لباقي المقامات حتى يعرف المؤمن أنه مهما بلغ في مقامات الصبر والصدق والقنوت والتصدق فإنه لا يستغني بعمله عن مغفرة الله تعالى ، كما أن الاستغفار هو شأن أهل الكمال .

ولهذا أثنى الله تعالى على المستغفرين خاصة بالأسحار ، ولما وصفهم سبحانه بالاستغفار بالأسحار فمن باب أولى أنهم من المستغفرين في باقي الأوقات ، ويكون المعنى : والمستغفرين آناء النهار وحتى في الأسحار .

---

[1] [رُبَّ] للتكثير

[2] والمراد منه أن العلم إذا لم يقترن بالعمل الصالح فلا ينفع صاحبه ولهذا جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري : (إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا)
فقرن التقوى وهي العمل الصالح قرنها بالعلم .
وقيل في تفسير قوله تعالى { إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه }.
أي أن الأقوال الطيبة لا ترفع إلى الله تعالى إلا بالعمل الصالح ، والعمل الصالح هو الذي يرفع الأقوال الطيبة إلى الله تعالى ، ومن جملة الأقوال الطيبة عبارات العلم والمعرفة

[3] صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

[4] سنن الدارمي كتاب الصلاة

ولقد خص سبحانه الاستغفار وقت السحر بالذكر لأنه أضمن في الإجابة وأرجى في القبول لأن وقت السحر وقت غفران ورضوان يتجلى فيه رب العالمين على العباد بالمغفرة والإجابة .

ولذلك فإن أهل الكمال يعطون الأوقات والأحوال مطالبها وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الليل بالاستغفار بالأسحار

قال أنس بن مالك رضي الله عنه : (كنا نؤمر) - أي أمرَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم- (إذا صلينا من الليل أن نستغفر بآخر السحر سبعين مرة) [١]

وجاء في الصحيح عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ ليلة فقال : (سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن) - أي من الفتن والبلاء على أهل الفتن والبلاء- (وماذا فتح من الخزائن) [٢] - وفي رواية (وماذا أنزل من الخزائن) (أيقظوا صواحبات الحجر) ؟- أي باقي الزوجات الطاهرات لقيام الليلة – (فرُب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة) [٣]

أي رُب نفس كاسية في الدنيا مكتسية بأزياء وألبسة من حرير وديباج لكن لا عمل صالح لها فتأتي يوم القيامة عارية لأن اللباس هناك هو لباس التقوى ، وكسوة الإنسان يوم القيامة عمله .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قالت أم سليمان بن داود لسليمان : يا بني لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة) [٤]

فمن أراد الغنى فعليه بقيام الليل لأن الله تعالى يقول عندما ينزل إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الأخير : (من يقرض غير عديم ولا ظَلوم) [٥]

ومن أقرض الله بعمل صالح فإن الله تعالى يضاعف أجره وثوابه

قال تعالى : { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً } .

وقد حرم الله تعالى الربا بين عباده ، ولكن أباحه على نفسه مع عباده المؤمنين فقال عز وجل : { ويربي الصدقات }

حتى يأتي ذلك الرجل القائم العامل يوم القيامة وهو غني بالحسنات .

---

١ شعب الإيمان للبيهقي

٢ صحيح البخاري كتاب الجمعة

٣ صحيح البخاري كتاب العلم

٤ سنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها

٥ تقدم تخريجه

**من فضائل ليلة النصف من شعبان

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله ليطّلع في ليلة النصف من شعبان ، فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن) [١]

وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها)

- وقيام ليلها إما بجزء منه أو معظمه أو كله -

(فإن الله ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء الدنيا)

- أي تنزل تجلياته ونفحاته من وقت غروب الشمس ، وإن الشيء إذا أنزل إلى السماء الدنيا فلابد أن يظهر أثره في عالم الأرض-

(فيقول : ألا من مستغفر لي فأغفر له ، ألا من مسترزق فأرزقه ، ألا مبتلى فأعافيه ، ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر) [٢]

ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين.

[١] سنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها

[٢] سنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الرابعة

الصدق : فضائله - مراتبه

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

لقد ذكر الله تعالى مقام الصدق في جملة مقامات أهل الإيمان الكامل فقال تعالى :{والصادقين والصادقات } ثم قال سبحانه {أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً }

إن المراد بالصدق في هذه الآية : مقام الصدق الكامل الجامع لمراتب الصدق كلها فهناك صدق الجنان ، وهناك صدق اللسان ، وصدق الأركان ، وهناك الصدق في الصدق .

واعلم أن الدين الإسلامي الحنيف يقوم على أساس الصدق ، فأولاً يجب أن يكون الإيمان صدقاً ، قال الله تعالى :

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا }

- أي لم يشككوا في كل ما جاء عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم - { وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ }

فأول وصف وصف الله به الصادقين أنهم آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وأما المؤمن الذي يشك في بعض قضايا الإيمان أو ينتقد بعض الأحكام الشرعية فليس صادقاً في إيمانه .

و أما صدق الأقوال فهو أن يكون كلام المؤمن موافقاً للحق والواقع ، وإن مقتضى صدق المؤمن في قوله يحتم عليه إذا أراد أن ينقل كلام أحد أن ينقله بنصه، أما إذا تصرف بكلامه فلا يتم صدقه إلا أن يقول : هذا معنى ما قاله فلان .

وأما صدق الأعمال فهو أن تكون أعمال المؤمن موافقة لأقواله ، وأعماله موافقة لصدق قلبه بأن يخلص في نيته لله سبحانه ، وأما الكلام الذي ظاهره الصدق والعمل الذي ظاهره الصدق ولم يصدر هذا القول والعمل عن قلب مخلص في نيته لله تعالى فهو كذب ومردود ، وتكون هذه الأفعال والأقوال أفعال وأقوال المنافقين والمرائين بأعمالهم .

ودليل هذا ما ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال :

(حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية ، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن) - أي : علَّمه الله القرآن حفظاً أو فهماً -

(ورجل قُتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال ، فيقول الله للقارئ : ألم أعلِّمك ما أنزلت على رسولي ؟ قال : بلى يا رب ، قال : فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار) - أي كنت أقوم بتطبيق ما جاء في القرآن - (فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال : إن فلاناً قارئ) - أي عالم - (فقد قيل ذاك ، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له : ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى يا رب ، قال : فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدق ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله تعالى : بل أردت أن يقال : فلان جواد فقد قيل ذاك ، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله ، فيقول الله له : في ماذا قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله تعالى له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جريء ، فقد قيل ذاك) .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : (ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال :

يا أبا هريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة) [1]
فلقد كذَّبهم الله تعالى رغم صدق أقوالهم لأن أعمالهم لم تكن صادرة عن قلب مخلص لله تعالى .

وهذا قول الله تعالى : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ } - أي التي ظاهرها الصلاح في الدنيا -

{ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

فقد أحبط الله أعمالهم الموافقة للشرع لأنهم لم يخلصوا فيها لله تعالى .

وقد بين سبحانه حقيقة التقوى ووصف المتقين بالصدق فقال : { والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون }

وقال جل وعلا : { والذي جاء بالصدق وصدَّق به}:

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : { والذي جاء بالصدق }
قال : جاء بـ لا إله إلا الله [2]

{وصدَّق به }: أي صدَّق قوله بعمله وعمل بمقتضى قوله { لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصلى لله وعبد الله مخلصاً له في عبادته .

---

[1] سنن الترمذي كتاب الزهد
[2] الأسماء والصفات للبيهقي

ولقد بين سبحانه أن انتفاع العبد يوم القيامة إنما يكون بما صدق من الأعمال و الأقوال ، قال تعالى :{ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم }.

ولم يقل ينفع العاملين عملهم أو القائلين قولهم .

وفي هذا دليل على أن الأعمال والأقوال لا تنفع صاحبها إلا إذا كانت صادقة أي خالصة لله تعالى فلا اعتبار لكثرة الأعمال ، وإنما يعتبر ما كان منها صادقاً خالصاً .

وقال صلى الله عليه وسلم :(أخلص دينك يكفك القليل من العمل)[1]

وقد بين سبحانه أن الصدق مسؤول عنه فقال جل وعلا :

{ ليسأل الصادقين عن صدقهم }.

والمراد بالصادقين مراتب الصادقين كلها ، وكل مرتبة ستسأل عن صدقها في مرتبتها فأول الصادقين الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم لأنهم صادقون في دعوة الخلق إلى الله تعالى وفي تبليغ أوامر الله تعالى ، فإن الله تعالى يسأل المرسلين عن صدقهم الذي صدقوه مع الناس ، أي يسألهم عن تصديق الناس لهم وهل تلقى الناس صدقهم بالقبول والإجابة أم كذبوا وأعرضوا ...؟

وفي هذا يقول جل وعلا

:{ يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ}

{ ماذا أجبتم }: أي هل أجابتكم الأمم بالقبول أم أعرضوا وردوا كلامكم وصدقكم عليكم ؟

{ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ}: وهذا لا يدل على أنهم لم يعرفوا الإجابة لأن كلاً منهم يعرف ما أجابته أمته من الإيمان أو الكفر أو الإعراض ، لكنهم قالوا (لا علم لنا) من باب تفويض العلم إلى الله تعالى - أي لا علم لنا من ذاتنا إلا ما علمت منا وعلَّمتنا .

وكأنهم قالوا : أنت أعلم منا يا رب بالأمر ، وأنت تعلم حقيقة المصدق والكافر والمنكر فإنك عالم بالشهادة وأنت علام الغيوب .

كما أن في قوله تعالى إخباراً عنهم : { لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} معنى الشكاية إلى الله تعالى وكأنهم قالوا : أنت يا رب تعلم أن أكثر الأمم لم تؤمن وأنكرت وكفرت ، وقد جرى ذلك شهوداً منا لكنك عالِم الغيب والشهادة وأنت علّام الغيوب .

---

[1] شعب الإيمان للبيهقي ومستدرك الحاكم

وكذلك يسأل سبحانه الصادقين عن صدقهم فيسأل الأمم : { ماذا أجبتم المرسلين }

عن عبد الله بن عكيم ، قال : سمعت ابن مسعود رضي الله عنه بدأ باليمين قبل الحديث قال :

(والله إن منكم أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، يقول : ما غرَّك بي ابن آدم ؟ ما غرك بي ابن آدم ؟ ما غرك بي ابن آدم ؟ ماذا عملت فيما علمت ؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟) [١]

ومعنى (ما غرَّك بي) أي أني قد أنعمت عليك وأعطيتك فهل غرَّك دوام إنعامي عليك وإفضالي عليك ورحت تعرض وتكفر ؟!

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(ليلقين اللهَ أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فليقولن له : ألم أبعث فيك رسولاً فيبلغك) [٢]

أي فماذا كان موقفك مع هذا الرسول صلى الله عليه وسلم .

والمرتبة الثانية من الصادقين في قوله تعالى : { ليسأل الصادقين عن صدقهم }

هم الصادقون من الأمم من الناس وهم الذين صدقوا بقولهم [لا إله إلا الله محمد رسول الله] ، فيسألهم سبحانه عن صدقهم بقولهم هذا ، وهل عملوا بمقتضى قولهم : [لا إله إلا الله] - لأن معنى لا إله إلا الله : لا معبود بحق إلا الله -.

ومن اعترف بأنه لا يعبد حقاً إلا الله وجب عليه أن يعبد الله تعالى وإلا فقد كذب في قوله [لا إله إلا الله] فهو صَدَقَ بالقول وكذب بالعمل ، وهذا معنى قوله جل وعلا : { ليسأل الصادقين عن صدقهم } أي الصادقين بالقول عن صدقهم بالعمل .

كما يسأل الصادقين في الأعمال عن صدقهم في النية - وهو الإخلاص في العمل لله تعالى .

وكذلك يسأل الصادقين بالقول عن صدقهم هل كان صدقهم حلالاً أم حراماً ؟

لأنه هناك صدق في القول لكن الإتيان به حرام .

وهو الكلام الصدق الذي يكرهه صاحب الأمر الذي يتكلم عنه وهذا هو معنى الغيبة

فالغيبة : هي كلام صدق ، ولكنه غير مشروع لأن فيه إيذاءً للغير .

---

[١] المعجم الكبير للطبراني
[٢] صحيح البخاري كتاب المناقب

فلو دخلت بيت شخص ورأيت عنده هرة عرجاء ، ثم لما خرجت من بيته تكلمت عن هرته بأنها عرجاء فقد ارتكبت حراماً ـ وإن تكلمت صدقاً ـ لأن كلامك حول هِرَّته يكرهه ويؤذيه وهذه هي الغيبة وهي [ذكرك أخاك بما يكره]

وإذا ذكرته بما ليس فيه فقد بَهَتَّه أي افتريت عليه كذباً وبهتاناً .

كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته) [١]

ولو ادعى المغتاب أنه يتكلم أمام من يغتابه فيُقال له : لقد ارتكبت ما هو أشد حراماً من الغيبة ، لأن في ذلك مقابلة الغير ومواجهته بما يكره .

وكذلك النميمة فإنها كلام صدق لكن نقل هذا الكلام من فلان إلى فلان يفسد بينهما ويوقع بينهما ولذلك كانت حراماً .

وقد بين صلى الله عليه وسلم أن من لازم الصدق في أقواله وأعماله ونياته ارتقى إلى مقام الصديقية .

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر) ـ أي مقام الأبرار ثم المقربين ـ (وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صِديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور)

ـ أي كذب الأقوال يهدي إلى فجور الأعمال ـ

(وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) [٢]

ومعنى (يكتب عند الله صديقاً) أي في كتاب الأبرار والمقربين الذي أشار الله تعالى إليه بقوله {كلا إن كتاب الأبرار في عليين }

وليس هذا الكتاب كتاب القضاء والقدر بل هو كتاب أعمال الأبرار إعلاء لهم وتشريفاً .

وينشر هذا الكتاب في الملأ الأعلى فيحبونه ويشهدون له بالصديقية حتى تنزل محبته إلى أهل الأرض فيحبونه ويثنون عليه .

---

[١] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

[٢] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

وإن من استحكم فيه الكذب كُتب عند الله كذاباً حتى يُعرف بذلك في الملأ الأعلى والأدنى بالبغضاء .

وكما أمر الله تعالى المؤمنين بالصدق أمرهم أن يكونوا مع الصادقين قال تعالى :
{ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين }

فإن من مقتضيات صدق المؤمن أن يصحب الصادقين ويكون معهم وأما من زعم الصدق وهو يصحب المنافقين والفجار فهو كاذب في صدقه لأن الصحبة لها أثرها في النفس ، وربما سرت عدوى النفاق والفجور إلى من يصحب أهل النفاق والفجور وأفسدت عليه صدقه ودينه .

ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكِير ، فحامل المسك إما أن يحذيك) - أي يدهنك – (وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يُحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحاً خبيثة) [١]

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول (لا تصحب إلا مؤمناً) - وفي رواية : (لا تصاحب) [٢]

(ولا يأكل طعامك إلا تقي) [٣]

- أي حتى يكون الطعام عوناً له على تقوى الله لا على معصية الله .

واعلم أنه لابد للصادق في مقام الصدق أن يَحُفّه الصدق في جميع أحواله

قال الله تعالى : { وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ} [٤]

أي أن تكون جميع مداخل المؤمن ومخارجه بالصدق ، فإذا دخل في الصلاة مثلاً يجب أن يدخل بصدق في قوله [الله أكبر] عند تكبيرة الإحرام ويبقى صادقاً في صلاته كلها أي حاضراً مع الله تعالى خاشعاً له حتى إذا خرج من الصلاة خرج بصدق ثم دخل في عمل آخر بصدق وخرج منه بصدق وهكذا في سائر أعماله حتى يثاب عليها لأنه كان صادقاً فيها .

قوله تعالى : {هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم }.

---

[١] صحيح البخاري كتاب الذبائح والصيد و صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب
[٢] سنن الترمذي كتاب الزهد و سنن أبي داود كتاب الأدب
[٣] سنن الدارمي كتاب الأطعمة
[٤] فهذه الآية الكريمة وإن كانت نزلت في خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة ودخوله المدينة إلا أن خصوص السبب لا ينافي عموم النص .

ثم إن من كان هذا شأنه فإنه ينال لسان الصدق وقدم الصدق وينال مقعد الصدق عند مليك مقتدر ، قال جل وعلا إخباراً عن سيدنا إبراهيم عليه السلام :

{ واجعل لي لسان صدق في الآخرين}

أي ثناء حسناً يُثني علي به الأمم المتأخرة إلى يوم القيامة .

ولقد أعطى الله تعالى ذلك لإبراهيم عليه السلام وجعل جميع الأمم بعده تثني عليه بالصدق حتى إن من أثنى عليه من الأمم هذه الأمة المحمدية التي تقول في صلاتها : [اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم ...] .

ولقد أعطى الله تعالى الخليل عليه السلام لسان صدق في الآخرين بعد سؤاله لذلك وطلبه لذلك أما الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم فقد أعطي أعلى مقام في لسان الصدق والمدح والثناء عليه صلى الله عليه وسلم وتجلى ذلك في قوله تعالى متفضلاً على رسوله صلى الله عليه وسلم :{ ورفعنا لك ذكرك }.

وقد رفع الله تعالى ذكر حبيبه صلى الله عليه وآله وسلم إلى مستوى ليس فوقه مستوى ، ألا وهو قوله تعالى في الحديث القدسي : (لا أُذكر إلا ذُكِرت معي)[1]

جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (أتاني جبريل فقال : إن ربي وربك يقول لك : كيف رفعت ذكرك ؟ ، فقال صلى الله عليه وسلم: الله أعلم ، قال : إذا ذكرت ذكرت معي)[2] - أي قرنت ذِكرك بذِكري واسمك باسمي .

وهذا كما جاء واضحاً في كثير من الآيات القرآنية

قال الله تعالى :{أطيعوا الله وأطيعوا الرسول }

وقال جل وعلا : {والله ورسوله أحق أن يرضوه }

و عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لما فرغت مما أمرني الله به من أمر السموات والأرض) - أي ليلة المعراج - (قلت : يا رب إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كرَّمته ، جعلت إبراهيم خليلاً ، وموسى كليماً ، وسخَّرت لداود الجبال ، ولسليمان الريح والشياطين ، وأحييت لعيسى الموتى ، فما جعلتَ لي ؟

---

[1] عزاه في كنز العمال لأبي يعلى في مسنده وابن حبان في صحيحه
[2] صحيح ابن حبان كتاب الزكاة

قال : أو ليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله ؟ أني لا أُذكر إلا ذُكرت معي ، وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهراً ولم أعطها أمة)
- أي يحفظونه عن ظهر قلب ولم يكن ذلك للأمم السابقة بل كانت أنبياؤهم فقط تحفظ الكتب السماوية أما بقية الأمم فيحفظون مقاطع منها ، قال تعالى :

{ بما استحفظوا من كتاب الله } -

(وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) [١]

وفي تفسير الطبري : فقال الله تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم :

(قد اتخذتك حبيباً وخليلاً ، وهو مكتوب في التوراة : حبيب الله) [٢]

وقد أعطى الله أتباع الصادقين أعطاهم لسان صدق في الآخرين فترى أن الأمم إلى يوم القيامة يثنون على أبي بكر وعمر وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أولياء الله والعلماء العاملين فإن ذكرهم رطب حي إلى يوم القيامة رضي الله عنهم أجمعين .

فمن صدق نال مقام لسان الصدق ونال نفع الصدق ونال قدم الصدق، قال عز وجل : { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ }.

أي قدوم صدق حتى يحلوا في مقعد صدق عند مليك مقتدر كما قال جل وعلا : { إن المتقين في جنات ونهر * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ }.

وإن كلمة [المقعد] دليل الثبوت في المقام إذ إنهم لما ثبتوا على الصدق في الدنيا نالوا مقعد الصدق في الجنة .

{ونهر }: أي أنهار ومنهم من قال { نهر } :أي أنوار وأضواء فليس في الجنة ظلمة ليل

قال عبد الله بن مسعود :

(إن ربكم تعالى ليس عنده ليل ولا نهار ، نور السماوات والأرض من نور وجهه [٣])

وجاء في الحديث في ثنائه صلى الله عليه وسلم على ربه تبارك وتعالى :

(القلوب لك مفضية) - أي مرئية لك ظاهرة - (والسر عندك علانية ، الحلال ما أحللت ، والحرام ما حرمت ، والدين ما شرعت ، والأمر ما قضيت ، والخلق

---

[١] عزاه ابن كثير في تفسيره لدلائل النبوة لأبي نعيم
[٢] انظر تفسير الطبري لسورة الإسراء
[٣] المعجم الكبير للطبراني

خلقك ، والعبد عبدك ، وأنت الله الرءوف الرحيم ، أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض ، وبكل حق هو لك ، وبحق السائلين عليك ، أن تقبلني في هذه الغداة أو في هذه العشية وأن تجيرني من النار بقدرتك)[1] -

وقوله صلى الله عليه وسلم : (بكل حق هو لك) - أي على عبادك ، وهو أن يعبدوه جل وعلا ولا يشركوا به شيئاً من أنواع الشرك .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

---

[1] المعجم الكبير للطبراني

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الخامسة

الصبر : مطالبه ـ فضائله

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

قال الله تعالى {والصابرين والصابرات } الآية

المراد من الصبر في هذه الآية الصبر الجامع لأنواع ومراتب الصبر كلها ، لأن الصبر على أنواع ، وكل نوع منها واجب إيماني على المؤمن أن يتحقق به ليتم إيمانه .

والصبر هو إمساك النفس وإيقافها على حكم الله سبحانه وتعالى ، وإن حكم الله تعالى على نوعين :

الأول : حكم قضائي قدري وهو قضاء الله وقدره .

والثاني : حكم تشريعي أمري وهو الأحكام الشرعية بما فيها من أوامر ومناهٍ .

أما الصبر على أحكام القضاء والقدر فيتضمن الصبر على البلاء والأمراض والشدائد والهموم والأحزان التي قد تصيب العبد بقدر الله وقضائه .

وفي هذا النوع من الصبر يقول سبحانه وتعالى : { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ}

فقوله جل وعلا { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} :

أي أحكام الربوبية وهي أحكام القضاء والقدر ، وهو ما قضاه الله وقدره من تسلط أذى المشركين عليك يا رسول الله ، ومن الهم والحزن الذي يعتريك من إعراضهم وكفرهم ، فاصبر على ذلك حتى يقضي الله الحكم فيهم ، ولا يزعجك ولا يحزنك تخويفهم وتهديدهم فإنهم لا يضروك شيئاً لأنك بعين عنايتنا ورعايتنا وحفظنا فلا يصلون إليك يا رسول الله لا بقتل ولا اغتيال ، قال تعالى :

{ والله يعصمك من الناس }

قوله سبحانه : {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ}

أي حين تقوم من المجلس كما ورد عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أراد أن يقوم من المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، فقال رجل : يا رسول الله ، إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى ،

فقال صلى الله عليه وسلم : كفارة لما يكون في المجلس) [1]

- أي لما يمر على الإنسان في المجلس من هفوات وهذا تعليم للامة وصلى الله على معلم الناس الخير .

{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ}

أي حين تقوم إلى الصلاة بأن يقول من قام إلى الصلاة : [سبحان الله وبحمده] .

وقال بعضهم : { حين تقوم } أي حين تقوم في الصلاة بعد دخولك فيها بتكبيرة الإحرام كما ورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت :

(كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا افتتح الصلاة قال : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك) [2]، وبهذا أخذت السادة الحنفية .

{ ومن الليل فسبحه } أي صلِّ له في الليل وهو قيام الليل

{ وإدبار النجوم } أي حين يطلع الفجر ويمتد الصباح وتدبر النجوم فصلِّ حينذاك ركعتين سنة الفجر .

وقد بين سبحانه وتعالى أن المؤمن قد تعتريه بعض المصائب والشدائد والأمراض وهي من أحكام القضاء والقدر ، وينبغي عليه أن يسترجع إلى ربه .

قال جل وعلا : { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ }

{ ولنبلونكم } المراد من البلاء هنا الاختبار والامتحان أي ولنختبركم يا معشر المؤمنين لأن الخطاب في أول الآية :

{ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة }.

{ بشيء من الخوف } أي من أعدائكم

{والجوع } : وهو القحط

{ ونقص من الأموال } : أي هلاك المواشي

{ والأنفس }:بموت بعض الأهل والأقارب

{ والثمرات }: الأعاصير والجوائح التي تهلك الزروع والثمار

فما هو موقفكم تجاه هذه الأحكام القضائية القدرية ؟

نعم : يجب عليكم أن تصبروا

---

[1] سنن أبي داود كتاب الأدب وسنن الدارمي كتاب الاستئذان

[2] سنن الترمذي كتاب الصلاة

{وبشر الصابرين } أي الذين يصبرون على أحكام هذه الأمور
وماذا ينبغي لهم أن يقولوا حتى لا يضيعوا أجرهم وثوابهم الذي أعده الله لهم ؟

{ الذين إذا أصابتهم مصيبة } من هذه المصائب التي ذكرها الله تعالى أو أي مصيبة أخرى تكرهها النفس سواء كانت صغيرة أم كبيرة ولو كانت بوخزة شوكة

{ قالوا } أي عن إيمان بالله

{ إنا لله } أي نحن لله ملكاً وعباداً وله سبحانه التصرف فينا

{وإنا إليه راجعون }وهذه تسلية لأنفسهم من أنهم راجعون إلى الله إلى دار الخلود والبقاء ، وليسوا مستقرين في الدنيا والمشقة والعناء .

ومن علم أن هذه الدنيا دار عبور لا دار سرور هانت عليه المصائب .

{ أولئك عليهم صلوات من ربهم } أي صلوات خاصة تشتمل على كل خير إلهي

{ ورحمة } أي الرحمة الخاصة

{ وأولئك هم المهتدون } أي المهتدون بالهدي الخاص لأنهم عرفوا وأيقنوا أن ما حل بهم هو بإرادة الله ومشيئته وقضائه وقدره فأسلموا لله واستسلموا له .

وفي هذا يقول سبحانه وتعالى :

{ ما أصاب من مصيبة فبإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه}.

والمعنى : ما أصاب من مصيبة حلت بكم يا عباد الله فهي بإذن الله وإرادته ومشيئته .

{ ومن يؤمن بالله }: أي ومن يؤمن أن ما حل به من مصيبة أو مكروه فهو بإذن الله وقضائه وحكمته .

{يهد قلبه } أي يجعل في قلبه نوراً خاصاً بحيث يطمئن قلبه وينشرح صدره ويذهب همه وينجلي كربه وهذا معنى { فأولئك هم المهتدون }.

وعن أبي ظبيان قال : كنا نعرض المصاحف عند علقمة بن قيس فمرَّ بهذه الآية : { ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه } قال : فسألناه عنها فقال : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم .

وروي هذا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [١]

وقال الإمام الشافعي :إن المراد من الآية {ولنبلونكم } الاختبار التشريعي وهو الأمر والنهي .

[١] انظر السنن الكبرى للبيهقي كتاب الجنائز

{بشيء من الخوف }: أي الخوف من الله بتسليط الصواعق وإرسال الرياح المدمرة وهكذا حتى يخوفكم منه سبحانه

{ والجوع } : أي بفريضة الصيام

{ ونقص من الأموال } : أي بفرض الزكاة وغيرها من واجبات النفقة على الأرحام .

{ والأنفس }: وهي الأمراض التي تضعف الإنسان .

{ والثمرات } : أي موت الأولاد فقد يبتلي الله المؤمن بموت ولد من أولاده لأن الولد ثمرة أبيه .

وجاء في الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته : قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع)

- أي قال : الحمد لله وإنا لله وإنا إليه راجعون -

(فيقول الله : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة ، وسمُّوه بيت الحمد) [1]

واعلم أنه ينبغي لكل من تذكر مصيبته أن يسترجع - أي أن يقول : [إنا لله وإنا إليه راجعون] - لأنه كلما فعل ذلك يكتب الله له الأجر جديداً .

ولا يشترط في الاسترجاع حلول المصائب الكبرى فإن المصيبة هي كل أمر تكرهه النفس سواء كان صغيراً أو كبيراً .

فمن شاكته شوكة فليقل : [إنا لله وإنا إليه راجعون] ومن انطفأ مصباحه فليقل : [إنا لله وإنا إليه راجعون] ، ومن لدغته بعوضة فليقل :
[إنا لله وإنا إليه راجعون] ..... وهكذا

كما ينبغي على العبد أن لا يستصغر هذه المصائب الصغيرة في نظره ويتجلد ويتحمل أمام ربه ، بل عليه أن يظهر فقره وعجزه وحاجته إلى ربه ، ولولا لطف الله ورحمته بعبده لربما سبب لدغ البعوضة له من الأمراض والأسقام ما لا يطيقه فافهم .

[1] سنن الترمذي كتاب الجنائز

أخرج الديلمي عن السيدة عائشة قالت : (أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد لدغته شوكة في ابهامه ، فجعل يسترجع منها ويمسحها ، فلما سمعت استرجاعه دنوت منه فنظرت ، فإذا أثر حقير)– أي : صغير – (فضحكت ، فقلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي أكل هذا الاسترجاع من أجل هذه الشوكة؟! فتبسم ثم ضرب على منكبي فقال : يا عائشة إن الله عز وجل إذا أراد أن يجعل الصغير كبيراً جعله ، وإذا أراد أن يجعل الكبير صغيراً جعله) [١].

وقد بين صلى الله عليه وسلم أن كلمة [إنا لله وإنا إليه راجعون] خاصة بهذه الأمة المحمدية إكراماً لنبيها كما في الحديث عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أعطيت أمتي شيئاً لم يعطه أحد من الأمم عند المصيبة :

إنا لله وإنا إليه راجعون) [٢]

ولو أعطيت للأمم السابقة لقالها يعقوب عليه السلام عندما فقد يوسف عليه السلام بل قال كما أخبر سبحانه عنه :{ يا أسفى على يوسف }.

وروى الإمام مسلم عن صهيب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له) [٣]

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : (إن الله تبارك وتعالى يقول لعيسى عليه السلام : يا عيسى إني باعث من بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا الله وشكروا ، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ، ولا حلم ولا علم ،قال:يا رب كيف هذا لهم ولا حلم ولا علم ؟ قال : أعطيهم من حلمي وعلمي) [٤]

أي ليس عندهم من ذاتهم لا حلم ولا علم بل هم أمة أُميّة ، ولكني أبعث فيهم رسولاً حليماً عليماً فينشر فيهم الفضائل ويبث فيهم العلوم فيصيرون حلماء علماء ببركات رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

[١] كما جاء في الدر المنور للسيوطي وعزاه للديلمي
[٢] المعجم الكبير للطبراني
[٣] صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق
[٤] المسند ٢٦٢٦٥

كما أن المصائب التي تصيب المؤمن مقابلة بالأجر عند الله تعالى وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه) [١]

الوصب : المرض ، النصب : التعب

وجاء في الحديث عن الحسن رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم (ساعات الأذى يذهبن ساعات الخطايا) [٢] وساعات الأذى هي ساعات الأمراض والأوجاع والأحزان

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (لما نزلت { من يعمل سوءاً يجز به } بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قاربوا وسددوا ، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة ، حتى النكبة ينكبها ، أو الشوكة يشاكها) [٣]

وإن لم يكن هناك ذنوب فإن المصائب ترفع الدرجات

وروى الإمام الترمذي عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال :

(كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه هذه الآية : { من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً }

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر ألا أقرئك آية أنزلت علي ؟

قلت : بلى يا رسول الله ، قال : فأقرأنيها فلا أعلم إلا أني قد كنت وجدت انقصاماً في ظهري ، فتمطأت لها) - أي خفت – (حتى تراخت مفاصلي .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما شأنك يا أبا بكر ؟ قلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، وأيُّنا لم يعمل سوءاً ، وإنا لمجزيون بما عملنا [٤]؟

فقال صلى الله عليه وسلم : أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون) - أي الكمل –

(فتُجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب ، وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يُجزوا به يوم القيامة) [٥]

---

[١] صحيح البخاري كتاب المرضى
[٢] انظر الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا وشعب الإيمان للبيهقي
[٣] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب
[٤] وهذا على حسب مقام كل مؤمن واعلم أن حسنات الأبرار سيئات المقربين وأن مباحات العوام سيئات الأبرار فافهم .
[٥] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

وأما المصائب بالنسبة للكفرة والفجرة فهي عقوبات :
قال تعالى : { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }
والعذاب الأكبر هو عذاب جهنم في الآخرة وأما العذاب الأدنى فقد قسمه الله تعالى على عالمين قبل الآخرة على عالم الدنيا وعالم البرزخ في القبر .

والمعنى : ولنذيقنهم بعض العذاب الأدنى في الدنيا أما بقية العذاب الأدنى فهو عذاب القبر وفي هذا دليل على ثبوت عذاب القبر بنص القرآن .

أما النوع الثاني من أنواع الصبر وهو الصبر على أحكام الله التشريعية ، وهي الأوامر والمناهي فينبغي الصبر على أداء الأوامر في أوقاتها وبشروطها وآدابها ، كما يجب صبر النفس وإمساكها عن محارم الله التي نهى عنها .

واعلم أن هذا النوع من الصبر أقوى من الصبر الأول لأن هذا باختيار الإنسان وإرادته وعزيمته ، أما الصبر على قضاء الله فهو صبر اضطراري كالصبر على المرض ونحوه .

وهذا الصبر أيضاً واجب إيماني على كل مؤمن وفي هذا يقول سبحانه وتعالى :
{ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً فاصبر لحكم ربك }

أي لحكم ربك الثابت في القرآن من أوامر و مناهٍ .

ولما كانت النفس منطوية على بواعث الشر والفساد وجب على صاحبها أن يمسك بزمامها ويصبرها ويمنعها من الإقدام على المحرمات وذلك بمجاهدتها .

قال تعالى : { والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ }

{ وتواصوا بالحق }: أي تواصوا بفعل الحق وهو الأوامر الإلهية وتواصوا بالصبر عن المحرمات .

{ تواصوا } : أي أوصى بعضهم بعضاً ، فلا يكفي من المؤمن ولا يغنيه إيمانه وعمله للصالحات لا يغنيه من التواصي بالحق والنصح فيه بأن يوصي نفسه ويوصي أهله ومن حوله بفعل الحق ويوصيهم أيضاً بالصبر عن المحرمات والابتعاد عنها .

ومن كان هذ شأنه وفعله فهو الرابح وإلا فهو الخاسر لأن الله تعالى افتتح هذه السورة بـ {والعصر} أي الدهر والزمان من أوله إلى آخره ، والمراد زمن الدنيا فأقسم سبحانه به على أمر مهم وهو خسران الإنسان .

أما المناسبة بين خسران الإنسان والعصر فهي أن العصر هو الفراغ والظرف الفارغ وإن أعمال الإنسان هي التي تملأ هذا الفراغ فمن عمل خيراً وملأ زمانه وعصره بالخير فهو الرابح ومن ضيع عمره وزمانه في الشر وملأه بالقبائح فهو الخاسر .

فما هذا العصر إلا رأسمالك ، وما عليك إلا أن تحسن التصرف به وذلك بطاعة الله

وإن قوله تعالى : { إلا الذين آمنوا } ـ دل على أن غالب بني الإنسان في خسران إلا القلة القليلة وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

قال تعالى : { وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين }

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة السادسة

الخشوع : مراتبه - فضائله

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

لقد ذكر سبحانه وتعالى الخشوع واعتبره من جملة منازل أهل الإيمان الخاص فقال تعالى :

{ والخاشعين وَالْخَاشِعَاتِ }

فما هو المراد من قوله تعالى في الآية : { وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ }.

المراد بذلك : الخاشعون لربهم في جميع حالاتهم والخاشعات لربهم في جميع حالاتهن ، فهو الخشوع الجامع الشامل لجميع الأوقات وجميع الأحوال ، فوصف الخشوع لا ينفك عنهم أبداً ، فهم يخشعون لله تعالى في كل الحالات والعبادات والحركات والسكنات .

**منزلة الخشوع عند الله تعالى :

لقد ذكر الله تعالى منزلة الخشوع ، وبين أن مقام الْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ هو من أعالي المقامات والرتب .

وبين سبحانه فضل الخشوع لرب العالمين في جميع الحالات وأن هذا الخشوع هو وصف الأولياء ، بل هو وصف الأنبياء صلوات الله عليهم

فلما ذكر سبحانه في حق أوليائه : { وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ}.

قال تعالى في رسله صلوات الله عليهم أجمعين :

{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}

أي حيثما كانوا في جميع حالاتهم .

قال جل وعلا : { وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً } - أي لا تتركني بلا ولد يكون خليفة لي من بعدي ويرثني في مقام النبوة -

{ وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ }

أي وأنت يا رب خير حي بالحياة الأبدية ترث كل الأحياء بعد موتهم

لأنه سبحانه هو الحي الباقي الذي لا يموت فهو خير الوارثين ، أي خير حي بالحياة الأزلية الأبدية ، ويرث جميع المخلوقات التي يعتريها الموت .

وليس الإرث في جانب الله انتقال مال عبده إليه لأن المال كله لله تعالى وإنما هو في يد العبد أمانة ومستخلف عليه ، فالمراد من قوله { خَيْرُ الْوَارِثِينَ }: أي الحي الباقي بعد موت الخلائق وهو حي لا يموت .

{ فاستجبنا له } : أي أجبنا دعوته ورزقناه من لدنا ولداً على كبر سنه وعقر زوجته ، وجعلنا له وارثاً يرثه في النبوة ويحيي ذِكر أبيه من بعده وهو يحيى عليه الصلاة والسلام .

فلقد أحيا الله تعالى بيحيى عليه السلام مقام أبيه وذكره ، وأعطاه النبوة عليه السلام .

قال سبحانه :

{ ووهبنا له يحيى } عليه السلام أي لنحيي ذكر زكريا عليه السلام ومقامه

ثم نبه سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يسلكوا في استجابة دعائهم هذه الأسباب التي أجاب بها سبحانه دعاء زكريا فقال جل و علا :

{ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات } أي إنهم كانوا في حالاتهم كلها يسارعون في القربات إلى الله تعالى ، لأن الخيرات تشمل الخيرات التعبدية وهي النوافل والخيرات والإحسان إلى عباد الله تعالى .

فهم يسارعون في الخيرات كلها ومن أعظم الخيرات القربات إلى الله تعالى بالنوافل .

كما قال سبحانه وتعالى : { ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله }

و قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ : (ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ النار الماء ، وصلاة الرجل من جوف الليل) [١]

فقد أخبر سبحانه أنهم كانوا يسارعون في الخيرات ، وزكريا عليه السلام منهم ، فلما دعا ربه أجابه الله ، وفي هذا يقول عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم :

(احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة) [٢]

فمن كان يتقرب إلى الله حالة السراء والصحة ويلوذ بجناب الله فإن الله تعالى يعرفه في حال الشدة ويجيب دعائه ويكشف الضر عنه .

{ويدعوننا} : أي يعبدوننا عبادة ويدعوننا سؤالاً ورجاء { رغباً } فيما عندنا من الرحمة والإحسان والمقامات العالية { ورهباً } أي خوفاً من عذابه وعقابه وعتابه

{ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}: أي خاشعين لله في جميع أحوالهم وحركاتهم وسيرهم وقعودهم - أي متواضعين متذللين ومنكسرين لله تعالى ، ولم يكونوا جبارين مترفعين بأنفسهم .

وإن أعظم الأنبياء خشوعاً وأعلاهم تواضعاً وأكملهم تذللاً لله تعالى هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن جملة هذا ما جاء في موقفه صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ، وإن فتح مكة باب لفتح العالم كله ، فلما دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد فتحها الله تعالى له وجيوش المسلمين من حوله ، والناس كلهم ينظرون إليه فإذا به صلى الله عليه وسلم حنى رأسه الشريف تواضعاً لله سبحانه وتعالى حتى كاد أن يمس رأس الناقة .

فعن أنس رضي الله عنه قال : (لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة استشرفه الناس) - أي صار موضع نظرهم ، وإذا به صلى الله عليه وسلم طأطأ رأسه الشريف حتى كاد رأسه الشريف أن يمس رأس الراحلة –

---

[١] سنن الترمذي كتاب الإيمان وسنن ابن ماجه كتاب الفتن
[٢] المسند ٢٦٦٦

(فوضع رأسه على رحله تخشعا) [1] - أي خشوعاً لرب العالمين .

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم حنى رأسه الشريف حتى كادت لحيته أن تمس رحله [2]

فهو صلى الله عليه وسلم يراقب عظمة الله ويشاهد فضل الله عليه في كل أموره فتراه في أعظم مواقفه متواضعاً لله تعالى خاشعاً له .

ولهذا أثنى سبحانه على الأنبياء عليهم السلام قال جل وعلا :

{ وكانوا } - أي حيث كانوا - { لنا خاشعين }.

---

[1] مسند أبي يعلى الموصلي

[2] عزاه في شرح المواهب لابن إسحاق

**الأمر بالخشوع - الخشوع لذكر الله

إن الخشوع مطالب به العبد في كل حالاته وشؤوناته بأن يذل لله ويخضع له ، مراقباً لعظمة الله ملاحظاً نعم الله عليه مشاهداً قوَّته ، وأن الحول والقوة لله جميعاً .

ومن جملة مواضع الخشوع أن يخشع العبد المؤمن حينما يذكر الله تعالى أو يسمع ذكر الله تعالى .

وأما موضع الخشوع ومصدره فهو القلب وله أثر يظهر على الجوارح ، وفي هذا يقول سبحانه:

{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ } - وهو القرآن الكريم .

{ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} - من الوحي النازل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الحديث النبوي - .

وقد نزلت هذه الآية وفيها عتاب للمؤمنين الذين لا يخشعون .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : (ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية : { ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله } إلا أربع سنين) [١]

والمعنى :ألم يحن ويأت أوان خشوع الذين آمنوا لذكر الله أي للقرآن الكريم وجميع أنواع الذكر لله ، فيجب على من يقرأ القرآن أن يقرأه بخشوع وأن يسمعه بخشوع .

ومن لم يجد هذا في قلبه فهو قاسي القلب ، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى :

{لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ } - أي جبل صخري أصم

{ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} - ما المراد بهذا ؟ قال جل وعلا :

{ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }.

أي من أجل أن يتفكروا في هذا الجبل الأصم لو نزل عليه القرآن لخشع وتصدع فما بال قلوبهم لا تتأثر بآيات الله وكلامه ؟!

فلقد أصبحت قلوبهم أشد قسوة وقد ذم الله القاسية قلوبهم فقال :

{ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} . الآية

---

[١] صحيح مسلم كتاب التفسير

* *علاج قسوة القلب :

إن علاج القلب متنوع على حسب أمراضه ، وإن أعظم مرض يصيب القلب ويجعله قاسياً هو طول الأمد في الدنيا والغفلة عن الآخرة .

ولهذا قال جل وعلا في تمام الآية : { وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ } .

فبين سبحانه وتعالى سبب قسوة القلب ، وأنه طول الأمد ، وأن طول الأمد يؤدي إلى طول الأمل ، وطول الأمل يؤدي إلى التقاعس عن صالح العمل ويحمل على الخمول والكسل .

ومعنى طول الأمد أن يجعل المرء بينه وبين موته أمداً بعيداً أي ـ فترة طويلة غافلاً عن الآخرة ـ ويظن أنه سيعيش كذا وكذا من السنين ويسعى في الدنيا بكلّيته مهملاً لأمور دينه وآخرته .

فمن كانت قسوة قلبه بسبب طول أمله في الدنيا فليقصر هذا الأمل ، وليقرب الأجل ، وليعد العدة للآخرة ، وليوقن أنه عندما يصير في قبره لا ينفعه إلا عمله ، وليعلم أنه حين يصير في الآخرة يقول كما أخبر جل وعلا : { يا ليتني قدمت لحياتي } .

ويقول : { يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ }

فيتحسر على نفسه ويتأسف إذ إنه كان في الدنيا من الساخرين ، يقول :
كنت أسمع المواعظ والتذكير ولا أتعظ بها ولا أتذكر بل كنت أسخر وأهزأ.

وهناك من يقول :إنه يجب تنشيط الناس على أمور الدنيا وألا تزهدهم فيها ، فقل له

إن خير الحكماء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لقد وعظ وذكر ورقق القلوب وزهد في الدنيا ورغب في الآخرة ، فلا تعترض على من يعظ الناس ويحملهم على الزهد في الدنيا فإن اعتراضك عليه اعتراض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما أدى ذلك إلى الكفر .

ثم اعلم أن النفس بحكم نشأتها تميل إلى الدنيا ولا تحتاج إلى من يرغبها إليها بل هي بحاجة إلى من يزهدها في الدنيا ويرقى بها إلى أعمال الآخرة .

ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}

أي ماذا قدمت نفسك لغد وهو الآخرة ، ولا يمنع الشرع الإنسان أن يتوسع في أمور الدنيا ضمن حدود الشريعة ، ولكن الشرع يأمر بأن يعمل المؤمن في الدنيا على وجه لا يضر بآخرته ودينه .

ومن شغلته دنياه عن دينه وآخرته فيقال له :

لقد طال عليك الأمد وأذهبتْ دنياك شطر دينك ، واعلم أن الغاية هي المحافظة على الدين لأنه فوق كل أمر ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عمر رضي الله عنهما : (يا ابن عمر دينك دينك ، إنما هو لحمك ودمك) [1]

أي الزم واحفظ دينك ، ولا تضيع دينك بعرض من الدنيا ، وكم من المؤمنين من يحبط دينه بعرض يسير من الدنيا بأن يحلف يميناً كاذباً من أجل الحصول على دراهم معدودة أو لترويج سلعة كاسدة !!

ومن جملة مطالب الخشوع: الخشوع في العبادات لله تعالى

قال سبحانه : { وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ } .- أي لربهم في عباداتهم ، وأعظم العبادات وأهمها الصلاة

---

[1] عزاه في كنز العمال للكامل لابن عدي

** الخشوع في الصلاة

لما وصف الله تعالى المؤمنين بصفات الكمال وامتدحهم وأثنى عليهم وصفهم أولاً بالخشوع في الصلاة

قال الله تعالى :

{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون }

والفلاح هو إدراك الغاية والبغية من سعادة الدنيا والآخرة ، ولا ينال هذا إلا بالتحقق بالإيمان الكامل ولذلك قال سبحانه :

{ قد أفلح المؤمنون } - أي ظفروا بالغاية والنهاية من خير الدنيا والآخرة .

ولما خلق الله جنة عدن وخلق فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر قالت : { قد أفلح المؤمنون } كما جاء في الحديث عن ابن عباس ، يرفعه قال : (خلق الله جنة عدن بيده ، وخلق فيها ثمارها ، وشق فيها أنهارها ، ثم نظر إليها فقال : تكلمي) وفي رواية : انطقي [١] (فقالت : قد أفلح المؤمنون) - يعني وأي فلاح أعظم من فلاح المؤمنين الذين نالوا البغية والنهاية في جنة عدن والتي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر –

(فقال جل جلاله : وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل) [٢]

- لأن الله الموصوف بالكرم المطلق قد صنع لعباده المؤمنين دار ضيافة ، والبخيل لا يجاور الكريم .

واعلم أن البخل على أنواع كما في الحديث عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال : خرجت ذات يوم فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

ألا أخبركم بأبخل الناس ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : من ذكرت عنده فلم يصل علي فذلك أبخل الناس) [٣]

صلى الله عليه وآله وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون .

والبخيل من لم يؤد زكاة ماله ،والبخيل من غفل عن واجباته نحو عياله وأرحامه

---

[١] ابن أبي الدنيا كتاب صفة الجنة

[٢] المعجم الأوسط للطبراني

[٣] قال الحافظ المنذري : رواه ابن أبي عاصم في كتاب الصلاة ورواه ابن أبي نعيم كما في جلاء الأفهام

فمن أراد أن يكون من المؤمنين المفلحين فليتحقق بأوصافهم ، وأوّلها الخشوع في الصلاة ، وكيف لا يخشع المؤمن في صلاته وصلاته صلة بينه وبين ربه ؟!

فمن لم يخشع في صلاته فما اتصل بربه .

**فضل الخشوع في الصلاة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من صلى الصلاة لوقتها ، وأسبغ لها وضوءها ، وأتم لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها خرجت وهي بيضاء مسفرة) - أي منيرة مضيئة

(تقول) - أي للمصلي - : (حفظك الله كما حفظتني ، ومن صلى الصلاة لغير وقتها فلم يسبغ لها وضوءها ، ولم يتم لها خشوعها ولا ركوعها ولا سجودها خرجت وهي سوداء مظلمة ، تقول : ضيعك الله كما ضيعتني ، حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق) - أي البالي- (ثم ضرب) - أي ضربت الملائكة - (بها وجهه) [١]

**علامات ودلائل الخشوع في الصلاة

أولاً : المحافظة على الصلوات في أوقاتها وإسباغ الوضوء لها .

ثانياً : السكينة والوقار في أداء الصلاة والاطمئنان في أركانها ، وذلك لأن الخشوع هو انكسار القلب بسبب تجلي أنوار الرب عليه ، ويظهر أثر ذلك على الجوارح فينحني الرأس وتخضع الجوارح وأما من كثرت حركاته في الصلاة أو التفاته إلى غير موضع سجوده فهذا دليل على عدم خشوعه

جاء في الحديث عن علي رضي الله عنه قال: (أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة) - أي بين حين وآخر - فقال : أمّا هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه) [٢]

وإن ما نصه الفقهاء على أن ثلاث حركات غير متوالية لا تفسد الصلاة فإن هذه الحركات إنما هي للضرورة ، ولم ينصوا على الإكثار من الحركات غير المتوالية

---

١ المعجم الأوسط للطبراني

٢ عزاه في كنز العمال إلى العسكري في المواعظ

**الأسباب التي تحمل المصلي على الخشوع في صلاته :

أولاً : أن لا يبعد قلبه عن ربه خارج الصلاة ، وذلك بملاحظة قرب الله منه ومعيته له على الدوام قال تعالى :

{ وهو معكم أينما كنتم } وقال جل وعلا : { ونحن أقرب إليه من حبل الوريد }

وإن هذه المراقبة والملاحظة تحمل العبد على الإكثار من ذكر الله تعالى حتى إذا حضرت الصلاة دخل فيها مراقباً لربه أي حاضراً بقلبه مما يسهل عليه الخشوع في صلاته .

أما إذا انشغل القلب في الدنيا وحطامها وغفل عن الله تعالى فهيهات له أن يحضر في الصلاة ، وهيهات له أن يخشع فيها ، وستكون صلاته صلاة الغافلين أو صلاة المنافقين .

وقد أرشد صلى الله عليه وسلم إلى علاجات القلوب ، وما من داء وعلة إلا وقد بين علاجها صلى الله عليه وسلم .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي) [١] أي صاحب القلب القاسي

فسبب قسوة القلب إكثار الكلام بغير ذكر الله وهو اللغو الذي أشار إليه سبحانه بقوله : { والذين هم عن اللغو معرضون }

واللغو هو الكلام الذي لا فائدة فيه تعود على صاحبه ، ومن كثر لغوه قسا قلبه وبعد عن ربه وقلما خشع قلبه في صلاته إلا بعد جهد جهيد

أولاً : إذا كان السبب المانع لخشوع العبد في صلاته أنه إذا دخل في صلاته تواردت عليه مشاغل الدنيا وتزاحمت على قلبه الوساوس والخواطر الدنيوية من تجارات وصناعات ونحو ذلك .

فلقد بين صلى الله عليه وسلم علاج مَن هذا داؤه وأرشد إلى شفاء مَن هذا مرضه ففي الحديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال :

(أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يا رسول الله أوصني وأوجز) - أي وصية موجزة جامعة ولقد كان صلى الله عليه وسلم ينظر في شأن هذا السائل ويعطيه ما يحتاجه -

[١] سنن الترمذي كتاب الزهد

(فقال النبي صلى الله عليه وسلم : عليك بالإياس مما في أيدي الناس)
- أي لا تطمع فيما عندهم -

(وإياك والطمع فإنه فقر حاضر ، وإذا صليت فصل صلاة مودع ، وإياك وما يعتذر منه) [١]

أي إذا دخلت في الصلاة فادخلها وأنت مودع لكل ما سوى الله ، وأنت مودع للدنيا بما فيها ، فربما كانت هذه الصلاة هي آخر صلواتك في الدنيا ، وهذا يحملك على الحضور والخشوع فيها .

ثانياً : وإن كان السبب المانع للعبد من الخشوع في صلاته عدم مراقبة الله تعالى في الصلاة والغفلة عنه فمَن كان هذا داؤه فليلاحظ أنه إذا دخل في الصلاة فإنه بين يدي من يقف ؟ وأمام من يقف ؟

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن العبد إذا قام إلى الصلاة - أحسبه قال - : إنما هو بين يدي الرحمن

تبارك وتعالى ، فإذا التفت يقول الله تبارك وتعالى :

إلى من تلتفت ؟ إلى خير مني ؟)

- ولا أحد خير من الله لأن الله خير وأبقى -

(أقبل يا ابن آدم إلي فأنا خير ممن تلتفت إليه) [٢] - أي بقلبك أو جسمك

ثم ينبغي على العبد أن يلاحظ أنه إذا دخل في صلاته فإنه يناجي ربه ويخاطبه فكيف يصح منه أن يقول : { إياك نعبد وإياك نستعين }
وقلبه مشغول بغير الله تعالى ؟!

ثم يقول : { اهدنا الصراط المستقيم } فكيف يطلب الهداية ويسأل الله تعالى وقلبه متعلق بغير الله جل وعلا ؟!

فليستح العبد من ربه وليعلم عظمة من يخاطب ويناجي وهو الله رب العالمين وليعلم أن الله تعالى يناجيه في صلاته أيضاً كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(قال الله تعالى : قسمت الصلاة بين وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : { الحمد لله رب العالمين } قال الله تعالى : حمدني عبدي

---

[١] الزهد الكبير للبيهقي ومسند الروياني
عزاه في مجمع الزوائد للبزار [2]

وإذا قال : { الرحمن الرحيم } قال الله تعالى : أثنى علي عبدي ، وإذا قال: { مالك يوم الدين } قال : مجدني عبدي - وقال مرة : فوض إلى عبدي –

فإذا قال : { إياك نعبد وإياك نستعين } قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : { اهدنا الصراط المستقيم }صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين } قال جل وعلا : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل) [١]

وقال صلى الله عليه وسلم :

(إن أحدكم إذا قام يصلي إنما يقوم يناجي ربه ، فلينظر كيف يناجيه) [٢]

وأعلى المقامات في العبادة هو مقام الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، أي أن تعبد الله تعالى مشاهداً له بقلبك كأنك تراه بعينك - أي مشاهداً أو مراقباً .

ولقد أمر صلى الله عليه وسلم كثيراً من الصحابة بالتحقق بهذا المقام لأن الصحابة رضي الله عنهم ليسوا على مرتبة واحدة في الفضل والمقام ، فكان صلى الله عليه وسلم يأمر كلاً منهم على حسب حاله وحاجته واستعداده ، ومن ذلك ما أوصى به أبا الدرداء رضي الله عنه فقال له : (اعبد الله كأنك تراه) [٣] ،وفرق كبير بين هذا وبين قوله صلى الله عليه وسلم للأعرابي : (صل صلاتك وأنت مودع)

وقال صلى الله عليه وسلم لأبي الدرداء : (واعدد نفسك في الموتى) [٤]

وأوصى صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه فقال له :

(اعبد الله كأنك تراه ، واعدد نفسك في الموتى ، وأذكر الله عز وجل عند كل حجر وعند كل شجر ، وإذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة ، السر بالسر والعلانية بالعلانية) [٥]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال :

(أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) [٦] وفي رواية : (وعدّ نفسك في أهل القبور) [٧]

---

[١] صحيح مسلم كتاب الصلاة
[٢] صحيح ابن خزيمة كتاب الصلاة ومستدرك الحاكم
[٣] شعب الإيمان للبيهقي
[٤] شعب الإيمان للبيهقي
[٥] المعجم الكبير للطبراني ومصنف ابن أبي شيبة
[٦] صحيح البخاري كتاب الرقاق
[٧] سنن الترمذي كتاب الزهد

ولو أنك اطلعت على حال أهل القبور لرأيت كل واحد منهم متوجهاً إلى ربه ولا شيء يشغله عن الله تعالى .

ولقد تحقق هؤلاء الصحابة بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت عباداتهم لله في مقام كأنهم يرون الله تعالى .

كان ابن عمر رضي الله عنهما يطوف يوماً حول الكعبة فسلم عليه رجل فلم يرد عليه السلام ثم لقيه فقال : كنا نطوف حول الكعبة نتراءى الله تعالى [١]
- أي فلم نلتفت لغير الله تعالى .

ومن جملة هؤلاء سيدنا عوف بن مالك رضي الله تعالى عنه حيث لقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (كيف أصبحت يا عوف بن مالك ؟

قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة ذلك ؟

فقال : يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا ، سهرت ليلي وأظمأت هواجري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها) - أي يصيحون كالعواء - (فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عرفت وآمنت فالزم) [٢]

ومن هذا ما ورد أيضا عن الحارث بن مالك رضي الله تعالى عنه لما مر برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم له : (كيف أصبحت يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال : انظر ما تقول ، فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : قد عزفت نفسي عن الدنيا ، وأسهرت لذلك ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها) - يصيحون كالعواء- (فقال : " يا حارث عرفت فالزم ثلاثاً) [٣]

وفي رواية فقال له صلى الله عليه وسلم : (أصبت فالزم ، مؤمن نور الله قلبه) [٤]

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

---

[١] انظر جامع العلوم والحكم ٣٧/١
[٢] مصنف ابن أبي شيبة
[٣] المعجم الكبير للطبراني
[٤] عزاه في مجمع الزوائد للبزار

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة السابعة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

قال الله تعالى : { وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ}

أي : حفظوا فروجهم أن يصرفوا شهوتهم في غير ما أحل الله تعالى ، وحفظوا فروجهم أن يستثيروا شهوتهم في غير ما أحل الله .

{والحافظات }: وهن النساء اللاتي يحفظن فروجهن ويحفظن شهواتهن عن غير ما أحل الله من أزواجهن ولم ينظرن إلى الأجانب عنهن حتى يستثرن شهوتهن .

ولما حرم الله تعالى الزنا وأمر بحفظ الفروج أمر سبحانه بالأسباب التي تحمل على حفظ الفروج مِن نظر وشم رائحة وسماع نغمة صوت الأجنبية .

وفي هذا يقول سبحانه: {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ }

أي إن الله خبير ومطلع على ما يصنعون فقد يكون أحدهم يأتي أهله ولكنه استثار شهوته بالنظر إلى ما حرم الله وهذا هو الزنا الأصغر وهو النظر إلى الأجنبية وليس هذا ممن قال تعالى فيهم : { وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ}

عن عبد الرحمن بن عوف قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها : ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت) [١]

فيجب على المرأة أن تحفظ نفسها بالستر والحجاب حتى لا ينظر إليها أحد ويستثير بها شهوته ومن حق الله عليها أن تطيع زوجها ولا تتحقق بطاعة ربها إلا إذا أطاعت زوجها في أمر شرعي مباح .

ومعنى أن تطيع زوجها أن تطيعه في حلال ، فإذا أمرها بأمر شرعي تضاعف وجوبه عليها وإذا أمرها بأمر مباح له وجب عليها ، وإذا نهاها عن أمر محرم شرعاً تضاعف حرمته وإذا نهاها عن أمر مكروه شرعاً صار مكروهين

---

[١] المسند ١٥٧٣

أما إذا أمرها بمعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، كما لو أمرها أن تجلس مع الأجانب كأبناء عمه أو أصدقائه أو أمرها بالسفور والفجور فلا طاعة له عليها .

كما أن للزوجة حقاً على زوجها أن يحسن عشرتها وكسوتها والنفقة اللائقة بها وأن يحفظ ودها وسرها ......إلى آخره .

ويقول عليه الصلاة والسلام : (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي) [١]

ومعنى (خيركم) أي أكثركم براً وخيراً هو أكثركم براً وخيراً ونفقة وحسن عشرة لأهله .

وليس من الخيرية والبر أن ينفق الرجل على أصحابه وإخوانه ويقتر على أهله وعياله .

ومن جملة حق الزوجة على زوجها أن يأمرها بما أمر الله تعالى ويعينها عليه ، قال تعالى : {يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً }

ومن جملة ما جاء في حق الزوج على زوجته ما رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

(كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه وإن الجمل استصعب عليهم فمنعهم ظهره ، وإن الأنصار جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم)
- لأنهم خافوا على النخل أن يعتريه الجفاف واليبس-

(فقالوا : إنه كان لنا جمل نسني عليه) - أي: يستقون - (وانه استصعب علينا ومنعنا ظهره وقد عطش الزرع والنخل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : قوموا ، فقاموا فدخل الحائط والجمل في ناحية فمشى النبي صلى الله عليه وسلم نحوه فقالت الأنصار : يا نبي الله إنه قد صار مثل الكلب الكلِب وأنا نخاف عليك صولته ، فقال : ليس علي منه بأس ، فلما نظر الجمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل نحوه حتى خر ساجداً بين يديه فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بناصيته أذل ما كانت قط حتى أدخله في العمل فقال له أصحابه : يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك ، ونحن نعقل فنحن أحق ان نسجد[٢] لك)
- أي : لأننا نعقل-

---

[١] سنن الترمذي كتاب المناقب وسنن ابن ماجه كتاب النكاح

[٢] أي سجود تعظيم وتكريم وليس سجود عبادة إلا أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك كله ، ولم يجوز السجود بأنواعه إلا لله تعالى

فقال صلى الله عليه وسلم : (لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر ولو صلح لبشر ان يسجد لبشر لأمرت المرأة ان تسجد لزوجها من عظم حقه عليها)[1]

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال :

(لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي صلى الله عليه و سلم ، فقال : ما هذا يا معاذ ؟ قال : أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم ، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلا تفعلوا ، فإني لو كنت آمرا أحد أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)[2] -
أي لما له عليها من الحق ، وفي هذا بيان أن للرجل حقاً كبيراً على زوجته ، ولو سمح لأحد أن يسجد لأحد في شرع رسول الله لوجب على المرأة أن تسجد لزوجها تكريماً وتعظيماً ، لكنه صلى الله عليه وسلم لم يشرع ولم يسمح بالسجود بأنواعه إلا لله تعالى وحده .

قوله تعالى :{ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات }

وهم الذين تحققوا بمقام الذكر الكثير لله تعالى - أي أن ذكر الله تعالى استغرق جميع أوقاتهم وعم جميع مداركهم ، فهم يذكرون الله تعالى قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم وفي خلواتهم وجلواتهم وحركاتهم وسكناتهم وذلك بالقلب واللسان ، وإذا تعب اللسان فهو سبحانه مذكور عندهم بالجنان .

ولا يفتأ اللسان عن ذكر الله إلا عند الضرورات كانكشاف العورات فيمسك اللسان عن الذكر لكن القلب لا يغفل عن الله تعالى لأن القلب من عالم الغيب وأما الأعمال الظاهرة فهي من من عالم الشهادة فليس للقلب حكم اللسان .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين على مختلف طبقاتهم ومقاماتهم ومراتبهم بالذكر الكثير فقال عز وجل :{ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً }.

وذكر الله يشمل قراءة القرآن ، قال تعالى مخاطباً نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم أن يقول :
{ وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن }.

ويشمل التهليل والتسبيح والتحميد والتكبير ، قال جل وعلا :

{ وسبحوه بكرة وأصيلاً } الآية .

ويشمل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى :

{ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً } الآية .

---

[1] المسند ١٢١٥٣

[2] سنن ابن ماجه كتاب النكاح

ويشمل الاستغفار والدعاء والتضرع والابتهال إلى الله تعالى ، وأن لا يغفل العبد عن حاجته لربه سبحانه وتعالى .

وأما الذكر الكثير فهو ما عم جميع الأوقات والحركات والمدارك ولابد من استراحة اللسان بين حين وآخر ، ولكن القلب لا يغفل عن الله أبداً .

وإلى هذا نبه النبي صلى الله عليه وسلم ففي الحديث أن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال :(إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قلت : أي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله) [١]

وجاء في الحديث عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن أعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن شرائع الإسلام قد كثرت علي ، فأنبئني منها بشيء أتشبث به) - أي أتعلق به -

قال : لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل)[٢]

واعلم أن لله تعالى في كل حالة على عباده حقا أن يذكروه

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما جلس قوم مجلساً فلم يذكروا الله فيه إلا كان عليهم ترة ، وما من رجل مشى طريقاً فلم يذكر الله عز وجل إلا كان عليه ترة ، وما من رجل أوى إلى فراشه فلم يذكر الله إلا كان عليه ترة) [٣] - أي حق لله يطالبه به يوم القيامة .

ولابد لإسقاط هذا الحق والتبعة أن يذكر العبد ربه في مجلسه أو ممشاه أو مضجعه مرة ، وأما إذا كان لا يغفل عن ذكر ربه في مجلسه أو مضجعه أو ممشاه فإن ذلك من شأن المقربين .

وليس للعبد منة أو فضل إذا ذكر ربه في المجلس أو الممشى أو المضجع ولكن هذا حق إيماني ويطالب الله به يوم القيامة .

وإن المؤمن إذا مر عليه وقت لم يذكر الله تعالى فيه تحسر على ذلك يوم القيامة .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم :
(ما من ساعة تمر بابن آدم) - والمراد بالساعة الزمن مطلقاً-

(لم يذكر الله فيها إلا تحسر عليها يوم القيامة) [٤]

---

[١] المعجم الكبير للطبراني

[٢] سنن الترمذي كتاب الدعوات وسنن ابن ماجه كتاب الأدب

[٣] المسند ٩٢١٣

[٤] شعب الإيمان للبيهقي

ولو دخل المؤمن الجنة ورأى الأجر الكبير المرتب على ذكر الله تعالى لتحسر على كل زمن مر عليه في الدنيا ولم يشغله بذكر الله تعالى .

جاء في الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها) [١]

وقد هدد وأوعد صلى الله عليه وسلم من جلس في مجلس لم يذكر الله تعالى فيه

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(ما جلس قوم مجلساً فتفرقوا عن غير ذكر إلا تفرقوا عن مثل جيفة حمار ، وكان ذلك المجلس عليهم حسرة يوم القيامة) [٢]

- أي قاموا من المجلس خاسرين ذليلين كأن حماراً جيف وتقاسموه بينهم ، وهذا حظهم من مجلسهم الخالي من ذكر الله تعالى .

و في الحديث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا فيه على نبيهم صلى الله عليه وسلم إلا كان عليهم ترة فإن شاء عذبهم وان شاء غفر لهم)[٣]

فلقد أمر الله تعالى المؤمنين على مختلف مراتبهم ودرجاتهم أمرهم بالذكر الكثير

قال جل وعلا : { يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً } .

وهذه الآيات مدنية النزول ، وقد جاء الأمر مؤكداً بالنداء والتأييد اهتماماً واعتناء بهذا الأمر ، ولم يأمر سبحانه وتعالى بالاستكثار من شيء إلا من ذِكره جل وعلا ، ولم يأمر بالاستزادة من شيء إلا من العلم به ، قال سبحانه :

{ وقل رب زدني علماً }

ولفهم هذه الكثرة في الذكر وبيانها لابد من الرجوع إلى سيد الأنام صلى الله عليه وسلم الذي كان خلُقه القرآن ، وهو أعظم من تحقق بذكر الله المتعالي جل جلاله بكثرة .

ولقد جاء ذلك في أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم ، قالت السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها : (كان النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه) [٤]

---

[١] المعجم الكبير للطبراني و شعب الإيمان للبيهقي
[٢] المسند ١٠٢٦٤
[٣] سنن الترمذي كتاب الدعوات والمسند ٩٨٨٨
[٤] صحيح البخاري كتاب الأذان وصحيح مسلم كتاب الحيض

أي استغرق جميع الأوقات والإدراكات بمختلف أنواع ذكر الله تعالى ، لأن كل وقت يتطلب ذكراً معيناً لله تعالى كالاستغفار والتسبيح والتحميد ، ولا يعرف هذا إلا بمتابعة الإمام الأعظم للذاكرين الله جل وعلا كثيراً ، فكان صلى الله عليه وسلم يذكر الله في خلواته وجلواته وعند جلوسه وقيامه واضطجاعه وكان يأمر بذلك صلى الله عليه وسلم .

ومن هذا ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في ذكره لربه جل وعلا في مجالسه مع الصحابة ، وفيه تعليم للأمة ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

(إن كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة :

رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم) [١]

وفي رواية : (رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور)[٢]

ومن جملة ما ورد في ذكره صلى الله عليه وسلم لربه تبارك وتعالى في خلواته ما رواه الإمام مسلم وأحمد والطبراني وغيرهم عن ربيعة بن كعب رضي الله عنه قال :

(كنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاري) - أي أحضر له الماء الذي يحتاجه صلى الله عليه وسلم-

(فإذا كان الليل أويت إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبِتُّ عنده ، فلا أزال أسمعه يقول : سبحان الله سبحان ربي ، حتى أمل أو تغلبني عيني فأنام ، فقال ذات يوم : يا ربيعة سلني فأعطيك) - وفي رواية : سلني يا ربيعة أعطك[٣] - (قلت : أنظرني حتى أنظر)- أي أمهلني أفكر ماذا أسأل - ، (وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة فقلت : يا رسول الله أسألك أن تدعو الله أن يجنبني النار ويدخلني الجنة) - وفي رواية مسلم : قال : قلت : يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة [٤]- وهذا لا ينافي الرواية الأولى فقد طلب أن ينجو من النار ويدخل الجنة برفقة رسول الله صلى الله عليه وسلم .-

(فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : من أمرك بهذا ؟

---

[١] سنن أبي داود كتاب الأدب

[٢] سنن الترمذي كتاب الدعوات

[٣] المسند ١٥٩٨٤

[٤] صحيح مسلم كتاب الصلاة

قلت : ما أمرني به أحد ، ولكني علمت أن الدنيا منقطعة فانية ، وأنت من الله بالمكان الذي أنت به أحببت أن تدعو الله ، قال :

إني فاعل ، فأعني بكثرة السجود) [1]

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

---

[1] المعجم الكبير للطبراني

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الثامنة

حول أنواع الذكر : الذكر النفسي - الذكر القولي

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

قال الله تعالى : { وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ }

فلقد أشار سبحانه وتعالى إلى الذكر النفسي بقوله : { وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ }.

أي مراقباً له ضارعاً إليه مقبلاً عليه متوجهاً إليه راجياً منه حسن الظن به سبحانه ، خائفاً من عقابه وعذابه ، وخائفاً من مقام ربوبيته وسلطانه ، ملاحظاً حاجتك إليه وافتقارك لمغفرته ورحمته ، متضرعاً إليه في نفسك راجياً ، تخاف من مقام كبريائه وعظمته جل وعلا .

أما الذكر القولي فقد أشار إليه سبحانه بقوله :{ ودون الجهر من القول }.

أي اذكره بالقول جهراً ودون الجهر ، فالقولي نوعان : سراً وجهراً
{ بالغدو والآصال } والغدو ما كان قبل الظهر ، والآصال ما كان من الظهر إلى الليل ، والمراد استغراق الأوقات بالتوجه إلى الله ، وبذكر الله جهراً ودون الجهر من القول .

والنتيجة والمقصود أن لا تكون من الغافلين عنه ، قال تعالى :
{ ولا تكن من الغافلين }.

ومن كان هذا شأنه فهو من الذاكرين الله كثيراً ، ولا يلزم من هذا أن يقول : كيف أستغرق أوقاتي بذكر الله تعالى نفسياً وقولياً أو قلبياً فقط وأنا مكلف بالعمل وتعاطي أسباب الرزق والمعاش ؟

فيقال له :وهل يمنعك العمل في الدنيا وتعاطي أسبابها أن تغفل عن رب الأسباب وهو الله تعالى رب العالمين ؟

وهل يشترط فيك إذا دخلت في عمل دنيوي أن تنسى الله ؟

فإذا فعلت ذلك فما هي منزلة الله عندك ، حتى إن أدنى عمل أنساك ربك .

وإن كان عندك شيء محبوب من المال رزقك الله إياه ، أو ولد وحيد ، وهبك الله إياه فإنك لما تذهب إلى العمل فمهما انشغلت في أسباب الدنيا فإن قلبك لا ينسى ولا يغفل عن هذا الشيء المحبوب عندك من مال أو ولد ،

وربما جرى ذكره على لسانك كل حين وآخر لأن قلبك محب له ومتعلق به ، فكيف ترضى لنفسك وأنت مؤمن أن يكون منزلة الولد أو المال عندك أعلى من منزلة الله عندك؟!

واعلم أن الذي رزقك المال هو الله تعالى فهو أحق وأولى أن تحبه وتتعلق به وتذكره جل وعلا .

قال تعالى : {والذين آمنوا أشد حباً لله }واستح من ربك أن إذا نظر في قلبك أن يجد غيره .

ولقد كان الصديق الأكبر رضي الله عنه يبيع ويشتري ويتجر وحينما يعامل الناس يقول : (لا إله إلا الله) في ثنايا كلامه ويكثر من (لا إله إلا الله) في كلامه ،

وهذا لنفسه وليذكر غيره بذكر الله أيضاً .

ولذلك قال الله تعالى : { والذاكرين الله كثيراً والذاكرات }.

**فوائد ذكر الله تعالى :

قال الله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا *هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}

فمن ذكر الله تعالى كثيراً وسبَّحه بكرة وأصيلاً فإن الله تعالى وملائكته يصلون عليه ليخرجوه من الظلمات بأنواعها إلى النور ، فهناك ظلمات القلوب التي سببها الذنوب كما قال جل وعلا : { كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون }.

فمَن ذكر الله كثيراً صلى الله عليه وملائكته وأذهب عنه تلك الظلمات وصفا قلبه وانجلت فيه أنوار رب العالمين .

وهناك الظلمات وهي مضائق الدنيا وكرباتها وأكدارها وهمومها وغمومها ، ولا يخرج العبدَ منها إلا ذكره الكثير لله تعالى .

** ذكر الله تعالى حياة القلوب والأرواح

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت) [1]

ولا تفهم من الميت ميت الجسم فقط فإن الميت الحقيقي هو ميت القلب والروح ، لأن موت الجسم مؤقت على أن حياة روحه باقية في عالم آخر .

فما دام ذكر الله حياة القلوب ، والإنسان يحتاج إلى الحياة كل الحاجة فليطلبها بالإكثار من ذكر الله تعالى ، وكلما أكثر أحيا الله قلبه وشرح صدره ، ولذلك قال الله تعالى : { ألا بذكر الله تطمئن القلوب }.

وأما إذا توجه القلب إلى الدنيا وحطامها فإنه سيضطرب ويظلم ويضيق على صاحبه ، وفي رواية للحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مثل البيت الذي يذكر الله فيه ، والبيت الذي لا يذكر الله فيه ، مثل الحي والميت)[2]

** ذكر الله تعالى صقالة للقلوب

إن القلوب كالمرايا قد يعتريها الغبار والأوساخ والأدران ، وكذلك القلب قد تعتريه ظلمات الذنوب والغفلة والشهوات ولا يصقله إلا ذكر الله تعالى .

وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام :

---

[1] صحيح البخاري كتاب الدعوات

[2] صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

(إن لكل شيء صقالة ، وصقالة القلب ذكر الله تعالى) [1]

وإذا تكدرت المرآة فإن مَن أمامها لا يظهر فيها إلا بعد صقالتها ، وكذلك القلب فلا تظهر فيه أنوار رب العالمين ، إلا إذا كان صقيلاً نظيفاً خالياً من الأكدار والذنوب ولا يصقل القلب إلا ذكر الله تبارك وتعالى .

فمن أراد أن يتجلى نور الله تعالى في قلبه فليعلم أن الله متجلٍ دائماً لا يغيب ، فما عليه إلا أن يصقل قلبه ويزيل الحجاب عنه - لأن الحجاب منه وفيه ، فعند ذلك تظهر في هذا القلب أنوار الرب سبحانه وتعالى .

** الإكثار من ذكر الله تعالى حصانة للقلب من وساوس الشيطان

جاء في الحديث أن سيدنا يحيى عليه السلام قال لبني إسرائيل :

(إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن)
- وعدَّ منها - :

(وآمركم أن تذكروا الله) - وفي رواية : وآمركم بذكر الله كثيراً [2]-

(فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله)[3]

ومن غفل عن ذكر الله تسلط عليه الشيطان ، قال تعالى :

{ ومن يعش } - أي يضعف - { عن ذكر الله نقيض } - أي نسلط - { له شيطاناً فهو له قرين } - أي مقارن ملازم له -.

أما من عمي عن ذكر الله تعالى وهجر ذكره سبحانه فإن الشيطان يسكن قلبه والعياذ بالله .

و جاء في الحديث (إن الشيطان واضع خطمه) - أي خرطومه- (على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس) - أي انقبض- (وإن نسي التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس) [4]

وإن ذكر الله تعالى حصانة وحرز للقلوب من الشياطين لأن ذاكر الله تعالى في معية الله الخاصة

كما في الحديث القدسي :[وأنا معه حين يذكرني[1]] أي بالمعية الخاصة

---

[1] عزاه في كنز العمال لشعب الإيمان للبيهقي
[2] صحيح ابن خزيمة
[3] سنن الترمذي كتاب الأمثال
[4] شعب الإيمان للبيهقي و مسند أبي يعلى

ومن كان الله معه فلا سبيل للشيطان إليه .

وإن دواء من يشكو من ضيق النفس ووحشة القلب وكثرة الوساوس أن يكثر من ذكر الله تعالى ليدخل في قوله تعالى في الحديث القدسي :[وأنا معه إذا ذكرني [2]]

ومعية الله الخاصة تكون بالعناية والرعاية والحفظ والأمان .

** الإكثار من ذكر الله تعالى دليل المحبة الصادقة لله تعالى :

إن من يكثر من ذكر الله تعالى يبرهن على أن الله تعالى أعظم محبوب عنده ، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره ، فما بالك بمن كان محبوبه الأعظم هو الله تعالى ؟!!

ومن أراد أن يعلم منزلته عند ربه فلينظر إلى منزلة ربه من نفسه .

وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الطبراني وأبو يعلى والحاكم والبيهقي - وقال عنه المحدثون :حديث حسن لكثرة طرقه - عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال :

(خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس إن لله عز وجل سرايا من الملائكة تقف وتحل على مجالس الذكر ، فارتعوا في رياض الجنة . قلنا : أين رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال : مجالس الذكر ، اغدوا وروحوا في ذكر الله ، واذكروه بأنفسكم ، من كان يحب أن يعلم كيف منزلته من الله عز وجل فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله تبارك وتعالى ينزل العبد) - أي عنده في المقامات العالية- (حيث أنزله من نفسه) [3]

وإن مجالس الوعظ والتذكير هي من مجالس ذكر الله تعالى

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعبد الله بن رواحة الأنصاري وهو يذكر أصحابه) - أي يذكرهم بالله وبنعم الله تعالى أن هداهم للإيمان والإسلام وأحسن إليهم – (فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أما إنكم الملأ الذين أمرني الله أن أصبر نفسي معكم ، ثم تلا هذه الآية {واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً} أما إنه ما جلس عدتكم إلا جلس معهم عدتهم من الملائكة) - أي يجلس معهم على عددهم عدد مثلهم من الملائكة -

---

[1] صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

[2] صحيح البخاري كتاب التوحيد

[3] المعجم الصغير للطبراني ومسند أبي يعلى ومستدرك الحاكم وشعب الإيمان للبيهقي

(إن سبحوا الله سبحوه ، وإن حمدوا الله حمدوه ، وإن كبروا الله كبروه ، ثم يصعدون إلى الرب وهو أعلم منهم ، فيقولون : يا ربنا ، عبادك سبحوك فسبحنا ، وكبروك فكبرنا ، وحمدوك فحمدنا ، فيقول ربنا : يا ملائكتي أشهدكم أني قد غفرت لهم ، فيقولون : فيهم فلان وفلان الخطّاء) - أي كثير الخطايا - (فيقول : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم) [١]

وإن الملائكة تحف بهم طبقات فوق طبقات إلى السماوات بل إلى حظيرة القدس الرباني وهي ما فوق السماء السابعة .

** الجمادات والأشجار تشهد يوم القيامة لذاكر الله تعالى عندها .

اعلم أن الجمادات والأشجار تسبِّح الله تعالى وتتأثر بذكر الله تعالى

قال الله تعالى :{ يا جبال أوبي معه والطير }

وقال جل وعلا :{ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن وألنا له الحديد }

فكان داود عليه السلام إذا قرأ الزبور أو سبَّح الله تعالى رددت الجبال معه - أي متبعة له في تلاوته وتسبيحه - وسيأتي حديث جبل جمدان .

وكان من وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : (واذكر الله عز وجل عند كل حجر وعند كل شجر) [٢] - أي لأنه يذكر معك ويشهد لك عند الله تعالى

قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور :

أخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان من طريق عون ، عن ابن مسعود قال : إن الجبل لينادي الجبل باسمه يا فلان ، هل مر بك اليوم أحد ذكر الله؟ فإذا قال نعم ، استبشر . قال عون : أفيسمعن الزور إذا قيل ، ولا يسمعن الخير؟! هي للخير اسمع . وقرأ { وقالوا اتخذ الرحمن ولداً } الآيات .
وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، عن محمد بن المنكدر قال : بلغني أن الجبلين إذا أصبحا نادى أحدهما صاحبه يناديه باسمه فيقول : أي فلان ، هل مر بك ذاكر لله؟ فيقول : نعم ، فيقول : لقد أقر الله عينك ، ولكن ما مر بي ذاكر لله عز وجل اليوم[٣]

---

[١] المعجم الصغير للطبراني وحلية الأولياء لأبي نعيم
[٢] تقدم تخريجه
[٣] ٦ / ٤٩٠

وفي صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال :

(لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا حجر ولا شجر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة)[1]

** الإكثار من ذكر الله تعالى يطوي بصاحبه المقامات ويلحقه بالسابقين :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له جمدان) - وهو يبعد عن المدينة المنورة يوماً وليلة - (فقال : سيروا ، هذا جمدان ، سبق المُفَرِّدون ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات)[2]

وفي رواية الترمذي : (قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : المستهتَرون في ذكر الله) - أي المولعون - (يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافاً)[3]

وكلمتا (فرد - انفرد) معناهما واحد ، فالمفرِّدون فردوا بأنفسهم عن أهل الغفلات ثم إنهم فردوا ذكر الله في قلوبهم ، ولم يشغلهم أحد غيره سبحانه .

وقوله عليه الصلاة والسلام : { سبق المفردون } يدل على أن الإكثار من ذكر الله تعالى يلحق صاحبه بالسابقين المقربين .

وجاء بالسند الجيد عن أم أنس رضي الله عنها أنها قالت (يا رسول الله أوصني قال : اهجري المعاصي فإنها أفضل الهجرة ، وحافظي على الفرائض فإنها أفضل الجهاد ، وأكثري من ذكر الله فإنك لا تأتين الله عز وجل بشيء أحب إليه من كثرة ذِكره)[4]

** ذكر الله تعالى انغماس في بحر النور

جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : (مررت ليلة أسري بي برجل مغيب في نور العرش ، فقلت : من هذا ، ملك ؟ قيل : لا ، قلت : نبي ؟ قيل : لا ، قلت : من هو ؟ قال : هذا رجل كان في الدنيا لسانه رطباً من ذكر الله ، وقلبه معلقاً بالمساجد ، ولم يستسِبَّ لوالديه قط)[5]

- أي لم يتعاط سبة لوالديه بل حفظ شرفه وشرف والديه

---

[1] صحيح البخاري كتاب الأذان

[2] صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

[3] سنن الترمذي كتاب الدعوات

[4] المعجم الكبير للطبراني

[5] ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء

** من أكثر من ذكر الله تعالى ذَكَره الله تعالى ، قال الله تعالى :
{ فاذكروني أذكركم }
ويقول جل وعلا في الحديث القدسي :
(أنا عند ظن عبدي بي) - فإن ظن العبد بالله خيراً فالله عند حسن ظنه ، وإن ظن غير ذلك فظنه يرجع إليه – (وأنا معه حيث يذكرني) [1]

وفي رواية : (وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم) [2]

وإن الشرف الأكبر والمقام الأعظم أن يذكر الله عبده بالثناء والمدح ، وإن من ذكره الله تعالى سجَّله سبحانه في ديوان الذاكرين لله تعالى وثبت عليه الإيمان ، وأنه سيموت على الإيمان لأن الله تعالى لا يذكر المنافقين ذكر ثناء ومدح وعناية ، ولا يثني على المرتابين أو المرتدين .

وأما شرف ذكر الله لعبده فقد جاء في الحديث عن أبي حبة البدري رضي الله عنه قال : (لما نزلت {لم يكن} قال جبريل عليه السلام : يا محمد إن ربك يأمرك أن تقرئ هذه السورة أبي بن كعب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا أُبيّ إن ربي عز وجل أمرني أن أقرئك هذه السورة ، فبكى وقال : ذكرت ثمة)
- أي عند رب العالمين – (قال : نعم) [3]

وفي رواية أنه قال : (وذكرت هناك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نعم باسمك ونسبك في الملأ الأعلى) [4]
- أي ذكرك الله تعالى باسمك أُبيّ ونسبك ابن كعب في الملأ الأعلى -

وفي رواية : (فقال أبي رضي الله عنه : آلله سماني لك ؟ قال صلى الله تعالى عليه وسلم : نعم ، قال : وقد ذُكرت عند رب العالمين ؟ قال : نعم ، فذرفت عيناه) [5]

وقيل لأُبي رضي الله عنه : أفرحت بذلك يا أبا المنذر ؟ قال : و ما يمنعني و الله تبارك وتعالى يقول : { قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا } [6]

---
[1] صحيح مسلم كتاب التوبة
[2] صحيح البخاري كتاب التوحيد
[3] المسند ١٥٤٢٧
[4] المعجم الأوسط للطبراني
[5] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن
[6] مستدرك الحاكم

وإن الإنسان ليفرح إذا ذكر في المجالس العالية المكرمة عند مَن له الشأن والمقدار فكيف إذا ذكره الله تعالى رب العالمين الذي بيده الأمر كله ؟!

فإن فرحه يجب أن يكون أشد وأعظم وعلى العبد أن يسعى ويبذل مستطاعه أن يُذكر عند رب العالمين في ملئه الأعلى ، وما ذلك إلا بالإكثار من ذكره سبحانه .

قال تعالى : { فاذكروني أذكركم }

وجاء في الحديث القدسي : (عبدي إذا ذكرتني خالياً ذكرتك خالياً ، وإن ذكرتني في ملأ) - أي جمع - (ذكرتك في ملأ خير منهم وأكثر) [1]

وفي رواية : (لا يذكرني عبد في نفسه إلا ذكرته في ملإ من ملائكتي ،
ولا يذكرني في ملإ إلا ذكرته في الملا الأعلى) [2]
إن ذكرني في ملأ ذكرته في الملأ الأعلى *

- أي عند جبريل وميكائيل وإسرافيل وعند أرواح الأنبياء والمرسلين في الملأ الأعلى المشار إليه بقوله تعالى : { الذين يحملون العرش ومن حوله } أي : الرفيق الأعلى

و في الحديث القدسي : (أنا جليس مَن ذكرني) [3]

- أي أنا جليسه بالرحمة والعناية والرعاية الخاصة ، فمن أراد أن يكون من جلساء الله تعالى فليكثر من ذكره سبحانه .

وفي الأثر : (أهل ذكري أهل مجالستي ، وأهل شكري أهل زيادتي ، وأهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا إلي فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب) [4]

وإن من ذكره الله تعالى فقد سجل في ديوان الذاكرين الله تعالى كثيراً والذاكرات .

و عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(رحم الله رجلاً قام من الليل فصلّى و أيقظ امرأته فصلّت ، فإن أبت نضح في وجهها الماء) - أي بالحكمة والرحمة وليس بالعنف والشدة -

(رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت و أيقظت زوجها فصلى فإن أبى نضحت في وجهه الماء) [1]

---

[1] شعب الإيمان للبيهقي
[2] قال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب : رواه الطبراني بإسناد حسن
[3] مصنف ابن أبي شيبة و شعب الإيمان للبيهقي
[4] ذكره ابن القيم رحمه الله في (مدارج السالكين) وعزاه للإمام أحمد في مسنده

وفي الحديث : (من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين جميعاً كُتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات)[٢]

وهذا كتاب خاص تُدون فيه أذكار وأعمال أهل المقامات والمراتب العالية ، ويلحق الله تعالى بفضله من أيقظ أهله وصليا في الليل ويسجلهما في هذا الديوان ومن ذكره سبحانه وتعالى وسجله في هذا الديوان لا يمحوه أبداً ، وجرى ذكره بالخير والثناء على ألسنة المؤمنين في الدنيا

ومن هذا ما ورد في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

(مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وجبت ، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً) - أي كان صاحبها من المنافقين – (فقال صلى الله عليه وسلم : وجبت ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما وجبت ؟ قال صلى الله عليه وسلم : هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض) [٣]

ومن هنا قال السلف رضي الله تعالى عنهم : [ألسنة الخلق أقلام الحق] فمن ذكره المؤمنون بالخير والثناء فهو دليل على تسطير الله له في ديوان السعداء .فإذا ذكر المؤمنون أحداً بالخير والصلاح فقد وجبت له الجنة ، فما بالك إذا ذكره رب العالمين بالخير والثناء ؟!

وهذا قوله تعالى : { فاذكروني أذكركم } أي ليشرف ذكركم ويعلو مقامكم وترتفع درجاتكم ويثنى عليكم في الملأ الأعلى حتى ينزل هذا المدح والثناء إلى الملأ الأدنى .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إني أحب فلاناً فأحبَّه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء قال : ثم يوضع له القبول في الأرض .

وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، قال : فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض) [٤]

---

[١] سنن أبي داود كتاب الصلاة وسنن النسائي كتاب قيام الليل وتطوع النهار
[٢] سنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها وسنن أبي داود كتاب الصلاة
[٣] صحيح البخاري كتاب الجنائز –صحيح مسلم كتاب الجنائز
[٤] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

وفي رواية قال صلى الله عليه وسلم : (إذا أحب الله عبداً نادى جبريل أني قد أحببت فلاناً فأحبه ، قال فينادي في السماء ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض فذلك قول الله { إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا }) [1]

أي يجعل لهم حباً ثابتاً ودياً لا يتغير عند أهل السماوات وأهل الأرض .

والود : هو ما تثبت به الخيمة أو بيت الشعر من وتد ونحوه ، فالود يدل على الثبات والتمكن والرسوخ فافهم .

وفي الحديث : (لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل) - أي بنوع من الذكر - (إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده) [2]

قوله صلى الله عليه وسلم (حفتهم الملائكة) : أي أحاطت بهم وجلست معهم تذكر الله لأنها رأت ما يتناسب معهم لأن الملائكة دوماً على ذكر الله تعالى كما قال تعالى في وصفهم :{ يسبحون الليل والنهار لا يفترون }

والجنس يألفه الجنس ، والطيور على أشكالها تقع ، فمن أراد أن تحفه الملائكة وتحيط به وتألفه فليكثر من ذكر الله تعالى .

(وذكرهم الله فيمن عنده) وإن مقام (فيمن عنده) وشرفه لا يعلمه إلا الله ، وهو يشمل الملأ الأعلى قال تعالى :{ ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته }

وفيه مقام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وإخوانه النبيين والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين .

قال سيدنا علي رضي الله تعالى عنه في وصف الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم : [والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فما أرى اليوم شيئاً يشبههم - وذكر من صفتهم - : فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم ريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم] [3]

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

---

[1] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

[2] صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

[3] عزاه في كنز العمال لأبي نعيم في الحلية وابن عساكر والعسكري في المواعظ وذكره ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة التاسعة

حول صيغ من ذكر الله تعالى (التهليل - التسبيح - التحميد)

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

فصل في (التهليل) :

يجب على الذاكر لله تعالى أن يستوعب جميع صيغ الذكر ولا يترك واحدة منها ، فلكل وقت حقه من الذكر ولكل حال حقه من الذكر

أما الذكر بـ (لا إله إلا الله) فهو من أقوى مقويات الإيمان

وفي هذا يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم :

(جددوا إيمانكم ، قيل : يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله) [١]

ومعنى (جددوا إيمانكم) :

أي أعيدوه إلى جِدته وقوته وليس المراد أن تأتي بإيمان جديد .

وقال صلى الله عليه وسلم : (أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه) وفي رواية : (من نفسه) [٢]

واعلم أن قوة السماوات والأرض ومن فيهن وقوامها ما هو إلا بلا إله إلا الله ولا شيء أقوى من لا إله إلا الله .

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (قال موسى : يا رب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به ، قال : قل يا موسى : لا إله إلا الله ، قال : يا رب كل عبادك يقول هذا ، قال : قل : لا إله إلا الله ، قال : إنما أريد شيئاً تخصني به ، قال : يا موسى لو أن أهل السماوات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهم لا إله إلا الله) [٣]

ولا شيء في الموازين يعادل (لا إله إلا الله) لأن موضوع (لا إله إلا الله) هو الله تعالى الذي لا تتناهى قوته وقدرته ، وبه قوام كل شيء وبه قوام وقوة السماوات والأرض .

---

[١] المسند ٨٣٥٣

[٢] صحيح البخاري كتاب العلم

[٣] صحيح ابن حبان والمستدرك ومسند أبي يعلى

وقد يقول جاهل : إن السماوات والأرض لها حيز وجرم فكيف تكون قوتها بـ (لا إله إلا الله) و(لا إله إلا الله) لا حيز لها ولا جرم ؟!

فاعلم أن القضية ليست موقوفة على الماديات والمحسوسات والمدركات والمنظورات وإنما هناك قوات لطيفة جلت على أن تدرك حقيقتها وإن قوات اللطائف أقوى من قوات الكثائف ، وما قوات اللطائف إلا بقوة لا إله إلا الله فإذا كنت تقول : هذا الجسم قوي ، فما قوته إلا بالروح القائمة به ، وما هذه الروح إلا من عالم الأمر اللطيف ، وما قوة عالم الأمر اللطيف إلا بمن له الخلق والأمر .

قال تعالى : { ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين }

فما قامت الكثائف إلا باللطائف ، وما قامت اللطائف إلا بقوة اللطيف الخبير وهو الله تعالى الذي لا إله إلا هو الحي القيوم بديع السماوات والأرض .

** فصل في التسبيح والتحميد

وهما من صيغ ذكر الله تعالى ، وإن لذكر الله تعالى صيغاً متعددة كتلاوة القرآن والتهليل والاسم المفرد (الله الله الله)

وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام :

(لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض : الله الله) [1]

وهناك الدعاء بأسماء الله ، وهو من ذكر الله ، قال تعالى :
{ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها }.

ومن ذلك التسبيح والتحميد .

قال الله تبارك وتعالى :{ وسبحوه بكرة وأصيلاً }.

وقال جل وعلا :{ فسبح بحمد ربك واستغفره }.

والتسبيح : هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق ، وذلك بأن تقول :
[سبحان الله] أو [سبحان ربي]

والتحميد : هو إثبات الكمالات والمحامد اللائقة به سبحانه بأن تقول : [الحمد لله]
أي أحمده بمحامد وأثبت له الكمالات اللائقة به سبحانه.

وإن التسبيح والتحميد هما عقد الاعتقاد وأصل الاعتقاد والإيمان بالله سبحانه .

وقد يكون ذلك بقولك : [سبحان الله والحمد لله] أو [سبحان الله وبحمده]

وقد بين سبحانه أنه ما من شيء يقال له شيء إلا يسبح بحمد الله تعالى لأن هذا أصل الإيمان بالله تعالى وعليه فطر الله تعالى جميع الأشياء .

قال تعالى :{ وإن من شيء إلا يسبح بحمده }، وعلى هذا فالتسبيح هو تنزيه الله عما نزه الله تعالى به نفسه ، والحمد هو إثبات المحامد والكمالات التي أثبتها سبحانه لنفسه .

ولقد بين صلى الله عليه وسلم فضل التسبيح والتحميد ومواضع التسبيح والحمد ووجوبهما على الإنسان وفوائد التسبيح والحمد وأن جميع الموجودات تسبح الله وتحمده

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان

** فضل التسبيح والحمد

فيهما تقربٌ إلى الله لأن الملائكة يتقربون إلى الله تعالى بالتسبيح والحمد ، كما قال جل وعلا مخبراً عنهم قولهم :{ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك }. وقال جل وعلا : { يسبحون الليل والنهار لا يفترون }

ففي التسبيح والحمد ارتقاء من البهيمية إلى مقام الملكية العالي

وإن في التسبيح والحمد اعتصاماً بالله تعالى ، قال الله تعالى :{ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى بذنوب عباده خبيراً}

وإن في التسبيح والحمد قوة إيمانية وقوة عرفانية وقوة جسمانية

وقد نبه إلى ذلك صلى الله عليه وسلم أن من ضعف جانب من جوانبه سواء كان إيمانياً أو جسمياً فليكثر من التسبيح والحمد لله تعالى .

عن ابن أعبد قال : قال لي علي رضي الله عنه : (ألا أحدثك عني ، وعن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت من أحب أهله إليه ؟
قلت : بلى ، قال : إنها جرت بالرحى حتى أثّر في يدها ، واستقت بالقربة حتى أثر في نحرها ، وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم خدم) - أي أرقاء مماليك من الأسر – (فقلت : لو أتيت أباك فسألتِه خادماً ، فأتته فوجدت عنده حداثاً) - أي أناساً - (فرجعت ، فأتاها من الغد ، فقال : ما كان حاجتك ؟ فسكتت ، فقلت : أنا أحدثك يا رسول الله ، جرت بالرحى حتى أثرت في يدها ، وحملت بالقربة حتى أثرت في نحرها ، فلما أن جاءك الخدم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادماً يقيها حر ما هي فيه ، قال : اتقي الله يا فاطمة ، وأدي فريضة ربك ، واعملي عمل أهلك ، فإذا أخذت مضجعك فسبحي ثلاثاً وثلاثين ، واحمدي ثلاثاً وثلاثين ، وكبري أربعاً وثلاثين ، فتلك مائة ، فهي خير لك من خادم ، قالت : رضيت عن الله عز وجل ، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم) [١]

وفي رواية قال سيدنا علي :

(فما تركتهن ليلة منذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم) [٢]

وأعطى الله سيدنا علياً والسيدة فاطمة قوة جسمية أغنتهما عن خادم وغير ذلك .

وما عليك أيها المؤمن إلا أن تأخذ بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعمل بها بيقين وإيمان وتجعلها من جملة أورادك قبل المنام فإن من خصائصها تقوية الأجسام .

---

[١] سنن أبي داود كتاب الخراج والإمارة والفيء
[٢] سنن أبي داود كتاب الأدب

** مواضع التسبيح والحمد والتكبير

إن من جملة مواضعها : وراء الصلوات ، فإنها تجبر ما نقص من الصلاة من حضور أو آداب

ومن كانت صلاته صلاة الكاملين فهي رافعة للدرجات في مقامات القربات

وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم: (معقبات لا يخيب قائلهن أو فاعلهن) - على اختلاف في الرواية - (دبر كل صلاة مكتوبة ثلاث وثلاثون تسبيحة وثلاث وثلاثون تحميدة وأربع وثلاثون تكبيرة) [1]

فمن واظب عليها دبر كل صلاة فإن الله تعالى لا يخيبه بل يقبل منه صلاته على ما فيها

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(من سبح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وكبر ثلاثاً وثلاثين ، وحمد ثلاثاً وثلاثين ، وختم المائة بـ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، غفرت ذنوبه) - وفي رواية : خطاياه [2]-

(ولو كانت مثل زبد البحر) [3]

وهذا على حسب حضور العبد فيها وخشوعه وعلى حسب صدق الإنابة والتوبة إلى الله ، ولا تنافي في الأحاديث إذا ورد مرة ثلاثاً وثلاثين تكبيرة ، ومرة ورد أربعاً وثلاثين تكبيرة ، فاعلم أن كلا الحديثين في الصحيح فاعمل مرة بهذا ومرة بهذا ، وإن شئت أن تجمع بينهما فلا بأس أن تكبر أربعاً وثلاثين ثم تقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ...

ومما ورد في فضل التسبيح والتحميد والتكبير ماورد في السنن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم لجلسائه : (خذوا جنتكم ، قالوا : بأبينا أنت وأمِّنا يا رسول الله ، أحضر عدو ؟ قال : خذوا جنتكم من النار ، قولوا : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنهن مقدمات ، وهن مجنبات ، وهن معقبات ، وهن الباقيات الصالحات) [4]

---

[1] صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة
[2] صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة
[3] موطأ مالك كتاب النداء للصلاة
[4] المعجم الأوسط للطبراني

وفي رواية :

(فإنهن يأتين يوم القيامة مستقدمات ومنجيات ومجنبات وهن الباقيات الصالحات)[1]

أي تأتي يوم القيامة ، وتحفظ قائلها من أمامه وتحفظ من خلفه وسائر جوانبه وهذا معنى (معقبات) ، ويرجع هذا إلى عالم المثال إذ تتمثل الأقوال الطيبة بصور جميلة ، ومنه تمثل التسبيح والتحميد والتكبير بصور تحافظ على قائلها من الأهوال والكربات ، وتسوق صاحبها إلى الجنة .

ومعنى (معقبات) :أي وراءه ، (مجنبات) : أي أمامه .

و عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (استكثروا من الباقيات الصالحات ، قيل : وما هن يا رسول الله ؟ ، قال : التكبير ، والتهليل ، والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[2]

ولقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يكثرون من ذلك حتى كان بعض أوراد أحدهم من التسبيح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة لله تعالى .[3]

ولا تنكر هذا لصعوبته على نفسك وعجزك عنه بل اعزم واستعن بالله ، والله ييسر لك ويبارك لك في الوقت ، فليست نفسك مقياساً لكل طبقات الناس وإنما أنت من الناس ولست أنت كل الناس .

ومن فضائل التسبيح والتحميد أن الله تعالى يعطي عليها أجر الصدقات .

جاء في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم :

(يا رسول الله ذهب أهل الدثور) - أي أهل المال - (بالأجور ، يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال صلى الله عليه وسلم : أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ؟) - أي ليس هناك أحد فقير في دين الله أبداً- (إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تحميدة صدقة وكل تهليلة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن منكر صدقة وفي بضع أحدكم صدقة ، قالوا : يا رسول الله أياتي أحدنا شهوته) - أي في زوجته -

---

[1] عزاه في مجمع الزوائد للطبراني في الصغير والأوسط

[2] صحيح ابن حبان كتاب الرقائق ومسند أبي يعلى

[3] قال الحافظ ابن حجر في الإصابة :
أخرج ابن سعد بسند صحيح عن عكرمة أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة يقول: أسبّح بقدر ذنبي.

(ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجراً) [1]

ومعنى (في كل تحميدة صدقة) : أي صدقة منك على نفسك أيها المؤمن ويعطيك الله عليها أجر الصدقة بفضله سبحانه .

** وجوب التسبيح والتحميد وأنهما حق على العبد

إن من جملة حقوق الله على العبد أن الله أعطاه نعماً ظاهرة وباطنة

منها أن جسم الإنسان فيه ثلاثمائة وستون عضواً - ما بين صغير وكبير - ويجب عليه التصدق عن هذه الأعضاء .

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل سلامى من الناس عليه صدقة) [2]

وجاء في الحديث الآخر بيان هذا العدد حيث قال صلى الله عليه وسلم :
(في الإنسان ثلثمائة وستون مفصلا) [3]- أي عضواً

ثم بين صلى الله عليه وسلم أنواع الصدقات فقال :

(كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة)[4]

وليعلم المؤمن أنه مهما سبح وحمد وكبر فإنه مقصر في حق الله لأن لله تعالى عليه نعماً لا يحصيها العبد .

ومن كان يرى في نفسه كثرة تسبيح فليعلم أن الجمادات والأشجار وجميع الأشياء تسبح بحمد الله تعالى فلا يعجب أو يغتر بنفسه من كان شأنه كثرة التسبيح

يقول الله تعالى : { تسبح له السماوات والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم } - أي لا تفهمون عنهم تسبيحهم – { إنه كان حليماً غفوراً } - أي فما أعظم حلمه ومغفرته سبحانه للإنسان إذ إن الإنسان كثيراً ما يغفل عن التسبيح والتحميد في حين أن جميع الأشياء تسبح الله تعالى ولا تغفل عنه أبداً

وفي هذا يقول سبحانه : { سبح لله ما في السماوات وما في الأرض }.

---

[1] صحيح مسلم كتاب الزكاة
[2] صحيح البخاري كتاب الصلح و صحيح مسلم كتاب الزكاة
[3] سنن أبي داود كتاب الأدب
[4] صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير و صحيح مسلم كتاب الزكاة

وقال جل وعلا : { إنا سخرنا الجبال معه } - أي مع داود عليه السلام - { يسبحن بالعشي والإشراق}

وقد أمر الله تعالى الجبال أن تسبح اتباعاً لداود عليه السلام مقتدية به ، وتسبيحها تسبيح حقيقي بالحال والمقال لأن الله تعالى يقول :
{ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن } - وتسبيح داود عليه السلام حالي ومقالي واعتقادي ، والجبال تسبح معه أي متبعة لتسبيحه ، فهي تسبح الله تعالى بلسان الجبال لا بلسان الرجال ، لو أن الله تعالى كشف لك لأسمعك ، وقد وقع هذا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعوا تسبيح الجمادات وكشف لهم عن ذلك بأنوار رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن هذا مارواه البيهقي وغيره عن أبي ذر رضي الله عنه قال :

(لا أذكر عثمان إلا بخير بعد شيء رأيته ، كنت رجلاً أتتبع خلوات رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته يوماً جالساً وحده ، فاغتنمت خلوته فجئت حتى جلست إليه ، فجاء أبو بكر فسلم ثم جلس عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء عمر فسلم فجلس عن يمين أبي بكر ، ثم جاء عثمان فسلم ثم جلس عن يمين عمر ، وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع حصيات ، أو قال : تسع حصيات ، فأخذهن فوضعهن في كفه فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، ثم أخذهن فوضعهن في يد أبي بكر فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه خلافة النبوة)[1]

وروى الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : (لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل)[2]

وفي رواية أنه قال :
(كنا نسمع صوت الماء وتسبيحه حين يشرب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم)

صلى الله عليه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون

أما تسبيح الحيوانات والدواب فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل ،

---

[1] دلائل النبوة للبيهقي ومسند البزار والمعجم الأوسط للطبراني
[2] صحيح البخاري كتاب المناقب

فقال لهم : (اركبوها سالمة ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق ، فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لله تبارك وتعالى منه) [1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله عز وجل إليه (أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح ؟) [2]

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : (نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفدع ، وقال : إن نقيقها تسبيح) [3]

وروي أن سيدنا داود عليه السلام بات ليلة من أولها إلى آخرها وهو يسبح الله ويحمده ويصلي له فلما أصبح الصباح وجد في نفسه سروراً وكان إلى جانبه نهر فنادته ضفدع : يا نبي الله أنا أدأب منك على التسبيح لأنك أغفيت إغفاءة)
- أي : وهي طيلة الليل تسبح [4]

ولا شك أن تسبيح داود عليه السلام أعلى وأكبر ولكن هذا من باب بيان أنها تسبح الله تعالى على الدوام .

فاعتبر أيها المؤمن ولا تغفل عن ذكر الله أبداً ولا تدع البهائم والضفادع تسبقك في التسبيح لله تعالى فأنت أشرف وأكرم على الله منها فحافظ على ذلك بإكثار ذكر الله تعالى .

---

[1] المسند ١٥٠٧٦
[2] صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير وصحيح مسلم كتاب السلام
[3] المعجم الأوسط للطبراني ومصنف ابن أبي شيبة
[4] رواه أبو الشيخ في العظمة والسيوطي في الدر المنثور

** تنبيه إلى فضائل الأيام العشر من ذي الحجة

جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر ، فقالوا : يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ فقال : ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا رجل خرج بنفسه وماله) - أي مجاهداً في سبيل الله تعالى - (فلم يرجع من ذلك بشيء) [١]

وقال أنس رضي الله عنه : (كان يقال) - أي يقول الصحابة رضي الله عنهم - (في أيام العشر لكل يوم ألف ، و يوم عرفة عشرة آلاف يوم) يعني في الفضل[٢]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من أيام الدنيا أيام أحب إلى الله سبحانه أن يتعبد له فيها من أيام العشر ، وإن صيام يوم فيها ليعدل صيام سنة ، وليلة فيها بليلة القدر) [٣]

وفي رواية المسند : (فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد) [٤]

وإن هذه الأيام هي المقصودة في قوله تعالى :{ وأتممناها بعشر }
وعلى تمام العشر كان تجلي الله تعالى لموسى عليه بالتكليم فهذه الأيام تعد المؤمن وتؤهله إلى تجليات الرب ومشاهد أنواره وأسراره فافهم .

---

[١] سنن الترمذي كتاب الصوم وسنن أبي داود كتاب الصوم
[٢] شعب الإيمان للبيهقي
[٣] سنن ابن ماجه كتاب الصيام و سنن الترمذي كتاب الصوم
[٤] المسند ٥١٨٣

** من وظائف شهر رجب

شهر رجب من الأشهر الحرم التي قال الله تعالى فيها :
{ فلا تظلموا فيهن أنفسكم }.

أي لا تظلموها بنقص الطاعات فأكثروا من الطاعات فيها ، ولا تظلموها بفعل المخالفات وليكن اجتنابكم للمخالفات أشد في هذه الأشهر من غيرها .

ومما ينبغي أن يكثر فيه المؤمن في هذا الشهر التسبيح والتحميد والتكبير

لأن من أسرار هذا الشهر إسراء النبي صلى الله عليه وسلم ومعراجه إلى السماوات ، وقد افتتح سبحانه سورة الإسراء بالتسبيح فقال جل وعلا :
{ سبحان الذي أسرى بعبده }

واختتمها بالحمد والتكبير :{ وقل الحمد لله } إلى قوله جل وعلا { وكبره تكبيراً }

و جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال : يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء ، وأنها قيعان) - أي أراضٍ واسعة صالحة للزراعة - (وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) [١]
وفي رواية بزيادة : (ولا حول ولا قوة إلا بالله) [٢]

فينبغي الإكثار من هذه الصيغة أيضاً في شهر رجب لأن لها أسراراً خاصة في هذا الشهر ، ثم الإكثار من ذكر الله بصيغ الذكر المتنوعة .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

---

[١] سنن الترمذي كتاب الدعوات
[٢] المعجم الكبير للطبراني

بسم الله الرحمن الرحيم

قبسات من محاضرات في بيان مطالب الأمانة الإلهية الكبرى التي حملها الإنسان

المحاضرة الأولى

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، أما بعد :

فبالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري قال : حدثنا عبيد الله بن موسى قال : أخبرنا حنظلة بن أبي سفيان عن عكرمة بن خالد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان) [١]

تقدم الكلام على شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن هذه الشهادة هي أصل أصول الإيمان وعنها تتفرع جميع شعب الإيمان ، وتقدم الكلام على بعض شعب الإيمان وأن شعب الإيمان منها اعتقادية ومنها عملية ومنها قولية ومنها أدبية خلقية ، أما شعب الإيمان الاعتقادية - وهي التي تسمى أركان الإسلام - فهي التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عليه السلام حين قال :

(فأخبرني عن الإيمان ؟ قال صلى الله عليه وسلم : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره) [٢]

وهذه هي أصول العقائد الإيمانية ، وكل أصل يتفرع عنه أصول ، ومن شَكَّ في واحدة من هذه الأصول فقد خرج عن الملة .

---

[١] صحيح البخاري كتاب الإيمان

[٢] صحيح مسلم كتاب الإيمان

وقد تقدم أن من جملة هذه الأصول الإيمان بكتب الله السماوية ، وأن أعظمها هو القرآن الكريم ، وأن الإيمان بالقرآن الكريم يتطلب من المؤمن أموراً متعددة :

أولاً : أن يعتقد المؤمن أن هذا القرآن من أوله إلى آخره - أي من أول سورة فيه من قوله سبحانه : { بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين } إلى قوله سبحانه في سورة الناس : { من الجنة والناس }..

هذا كله كلام الله تعالى على الحقيقة وليس هو من مصطنعات جبريل عليه السلام أو من مصطنعات وكلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل هو كلام صدر عن رب العالمين وأسمعه لجبريل عليه السلام ، ونزل به جبريل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فبلغه صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال سبحانه :
{ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم }

ثانياً : أن يعتقد المؤمن أن هذا القرآن الكريم الذي أنزله سبحانه على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد تكفل الله تعالى بحفظه من التبديل والتحريف والزيادة والنقصان فقال تعالى : { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون }

فلا يمكن أن يجري على القرآن الكريم تبديل أو تحريف لأنه سبحانه هو بنفسه تكفل أن يحفظ القرآن الكريم ، ولم يتكفل بحفظ الكتب السابقة بل وكل حفظها إلى علمائها فما استطاعوا ، كما قال تعالى :
{ بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء }

ثالثاً: أن يعتقد المؤمن أن هذا القرآن نزل تبياناً لكل شيء كما قال سبحانه :
{ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء } الآية

ففي القرآن الكريم تبيان لكل شيء مما فيه مصالح العباد في الدنيا وفي الآخرة ،

وفيه تبيان لكل شيء من أحكام الحلال والحرام ، وفيه تبيان لكل شيء من بيان الحقوق والواجبات فيما بين العباد ، و تبيان لكل شيء من الآداب والأخلاق العالية ، و تبيان لكل شيء من الإخبارات الغيبية عن الأمم السابقة وما سيجري في غد ، وفيه ذكر العوالم كلها والعلوم كلها ، وجاء البيان مفصلاً في الأحاديث الشريفة .

ولما قال سبحانه : { تبياناً لكل شيء } وإن الإنسان شيء بل هو من أعظم الأشياء فيجب عليه أن يبحث عن نفسه في القرآن الكريم وينظر حاله في القرآن الكريم ، فماذا بيَّن القرآن عن الإنسان ؟

لقد بين القرآن الكريم مبدأ الإنسان ومنتهى الإنسان وبيَّن ما فيه سعادة الإنسان ثم بين حاله فيما إذا صلح أو فسد .

فما هو حاله في الدنيا ؟ وما هو حاله في الآخرة ؟

أما مبدأ الإنسان الخلقي الجسمي فإن الله تعالى خلق الإنسان من جسم وروح .

أما الجسم فهو من عالم المادة المحسوس المشهود ، وأما الروح فهي من عالم الأمر اللطيف الرباني ، ولا يسع أحداً أن ينكر وجود الروح إذ إن الإنسان لما يموت لا يفقد شيئاً من أجزاء جسمه فما الذي فقده حتى مات ؟؟

نعم كانت فيه الروح الإنسانية اللطيفة تدير أمور جسمه وتبقيه في الحياة الدنيوية فلما فارقته إلى عالم آخر مات الإنسان .

وأما أصل جسم الإنسان وفصله الذي انفصل عنه فإن أصله من تراب الأرض كما قال سبحانه : { وبدأ خلق الإنسان من طين }

أي من تراب مزج بالماء فصار طيناً ثم مرت عليه مرحلة فصار صلصالاً كالفخار ، ثم إنه سبحانه سوى الإنسان بيديه المنزهتين المقدستين تسوية إنسانية كاملة ، ولما سواه وعدله نفخ فيه الروح كما قال سبحانه :

{ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ }

ثم لما امتنع إبليس عن السجود لآدم عليه السلام قال سبحانه له :
{ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي }.

فلم يكن أصل الإنسان حيواناً أو قرداً ثم تطور إلى إنسان !!

بل إنه سبحانه ابتدأ خلق الإنسان من طين ، وله شرفه وكرامته لأن الله تعالى خلقه بيديه فقال سبحانه : { مما عملت أيدينا أنعاماً } أي : قدرتنا

فجسم الإنسان له شرفه واعتباره ، وروحه كذلك .

قال تعالى : { فإذا سويته ونفخت فيه من روحي } أي سويت جسمه وعدلته وصورته وكملته ونفخت فيه روحاً أنا الذي ابتدأت خلقها

فقوله تعالى : { من روحي } { من } هنا ابتدائية وليست للتبعيض ، فللإنسان شرفه وكرامته وفضله على سائر المخلوقات والحيوانات ولم ينحدر أو يتطور من حيوان في أصل خلقته .

أما الحكمة من خلقه سبحانه للإنسان :

فإن مَن ظن أن الله تعالى قد خلقه في الدنيا للأكل والشرب وصرف الشهوة وجمع المال فقط فقد أخطأ وقاس نفسه بالبهائم ولم يعرف حكمة الله من خلقه ،
فقد قال سبحانه { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون }

فإذا كان اعتبار الإنسان وكرامته بكثرة الأكل والشرب وإتيان النساء فإن من البهائم مالا يعرف إلا الأكل والشرب والشهوة .

وإذا كان اعتبار الإنسان وكرامته بجمع المال وتخزينه والتباهي به فإن جبال الذهب والمعادن والأحجار النفيسة أشرف وأفضل منه وربما وطئتها الحمير والبغال في الأسفار .

نعم إنه لابد للإنسان من الطعام والشراب الذي تتوقف عليه حياته وقوة جسمه ومداركه ، كما لابد له من صرف شهوته وغرائزه في المصارف المشروعة إذ لم يؤمر بكبحها والقضاء عليها ولا يمكنه ذلك أصلاً .

أما المال فبه تقوم حياة الإنسان وليس جمعه والتكاثر منه أمراً مقصوداً لذاته ، بل ليقضي به الإنسان حاجاته المشروعة ويقوم بحق الله تعالى فيه من زكاة وإغاثة ملهوف وقرض حسن وفعل خير وهكذا .

وأما حب التملك والاستئثار بالمال والعرض فهو صفة ذميمة في الإنسان يتحتم عليه أن يتطهر منها ويتخلى عنها ويتحلى بالمكارم والبذل والعطاء لأنه لو تفكر في حديث رسول الله لعرف أنه ليس له من ماله إلا ما استفاد منه في جسمه ودينه .

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يقول العبد : مالي مالي ، إنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو أعطى فاقتنى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس) [١]

لقد خلق الله الإنسان ليشرفه بمعرفته سبحانه ويكرمه بخطابه ويقربه إليه بعبادته ، وهذا قوله سبحانه : { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون }
أي ليعرفوا الله تعالى فإذا تشرفوا بمعرفته عبدوه لأنه ربهم وهم عبيده ..

وكان الإنسان موضع خطاب رب العالمين بالأمر والنهي والبيان

وهذا ما تجده في آيات القرآن الكريم كما في قوله تعالى :

{ يا بني آدم } { يا أيها الناس } { يا أيها الذين آمنوا }

ولقد حمل الإنسان ـ بقوة المعاني التي خلقها الله تعالى فيه ـ حمل ما عجزت عن حمله السماوات والأرض والجبال وتراجعت وأشفقت من ذلك .

فلقد حمل الإنسان أمانة الله الكبرى حتى يتحقق بالإنسانية الكاملة ويرتقي في درجات الكمال .

---

[١] صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق

وفي هذا يقول سبحانه: { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا }

أما الأمانة فهي التكاليف الإلهية الشرعية بما فيها من عقائد قلبية وأعمال وأقوال وأخلاق وآداب ، وليس حمل الإنسان لها كحمل الأثقال على الظهر أو الأكتاف [1]

وإنما هو حمل معنوي تطبيقي عملي ، فحملها عقيدة بالقلب وعملاً بالجوارح والأركان وقولاً باللسان وتحققاً بالأحوال الإيمانية والأخلاق والآداب الشرعية

فتقدم الإنسان لحمل الأمانة لما عرضت عليه - وقيل : تقدم لحملها من دون أن تعرض عليه - لما رأى في نفسه الحاجة إلى حملها ليزيل عنه صفة الظلم والجهل

وهذا قوله سبحانه : { وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً }

أي لأنه كان ظلوماً جهولاً فنظر في نفسه فرأى أنه لا يعرف ما له وما عليه من الحقوق والواجبات - وهي صفة الظلم - ورأى أيضاً صفة الجهل ، ولا يمكنه الترقي في مدارج العلم النافع والكمالات إلا بحمل الأمانة فتقدم وحملها ليزيل عنه الظلم والجهل ويصير إنساناً كاملاً علوياً ربانياً .

ونظير ذلك من باب المثال أن تقول : إني عرضت الماء على القوم فشرب زيد إنه كان عطشاناً - أي : لأنه كان محتاجاً للماء ليزيل ألم العطش عنه وهكذا .

أما الأمانة الإلهية الشرعية فلها أحكامها ولها مطالبها ويتحتم على كل من زعم أنه حمل تلك الأمانة أن يتحقق بها .

وقد ذكر سبحانه ثلاثين خصلة في القرآن الكريم لابد لكل مؤمن أن يتحقق بها ليكون صادقاً في حمله لأمانة الله تعالى ، منها عشرة في أول سورة المؤمنون وهي قوله تعالى :

{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

وعشرة في سورة براءة : { التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ }

---

[1] والحمل على أنواع : فقد تقول حمّلت فلاناً أن يقرأ السلام على فلان ، وحمّلت فلاناً أمانة ليؤديها لفلان وهكذا ..

وعشرة في سورة الأحزاب { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا }

أما العشر التي في سورة براءة والتي هي قوله تعالى :
{ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ }

أي : أن هؤلاء هم المؤمنون المؤتمنون على أمانة الله تعالى فلهم البشرى من الله تعالى بالفوز والأجر العظيم

وقد تقدم بعض الكلام على قوله تعالى { التائبون }

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الثانية حول قوله تعالى { التائبون }

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ...

{ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } .

تقدم الكلام على قول الله تعالى :

{ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } .

لقد امتن الله تعالى على العباد ببعثة النبي الأكرم وبيَّن الحكمة في إرساله صلى الله عليه وسلم وذلك أن الله تعالى أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى العالم ، وله معهم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا والآخرة ، ومن هذه المواقف المواقف الأربعة التي ذكرها الله تعالى بقوله :

{ يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة }

فلقد جاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العالم ليزكيهم أي يزكي قلوب العالمين ونفوسهم ويزكي أجسادهم ويزكي أقوالهم وأفعالهم وأسماعهم وأبصارهم وعقولهم ، والتزكية تشتمل على أمرين هما : تطهير النفس من الدنس والخبث والفساد ثم تكميلها بالفضائل والكمالات ، ولذلك تقدم معنا أن التزكية هي تخلية عن الرذائل والنقائص وتحلية بالفضائل والكمالات ، وقد تقدم الكلام فيما مضى على وجوب تزكية الإنسان نفسه بالتزكية المحمدية التي جاء بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد جاء صلى الله عليه وسلم يغرس في القلب شجرة الإيمان حتى تطهر النفس وتطيب ، وشجرة الإيمان هي الشجرة الطيبة التي تعطي الثمار الطيبة وهذه الشجرة هي : { لا إله إلا الله محمد رسول الله }

والتي تثمر الأقوال الطيبة والأعمال الصالحة والأخلاق الكريمة والآداب الحميدة ...

وفي ذلك يقول جل وعلا :

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }

والكلمة الطيبة هي : { لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم } ومثلها كشجرة النخل الطيبة التي يُؤكل ثمرها على مدار السنة ، وفي الآية تنبيه للإنسان إلى أنه صلى الله عليه وسلم قد جاء يغرس في القلوب نواة الشجرة الإيمانية ثم يثبتها ويمكنها في القلوب ثم يرعاها بالسقيا ، إذ لابد لكل شجرة من ماء تسقى به ، ولابد لها من رعاية وعناية حتى تتمكن ويطيب ثمرها ، فما هو الماء الذي يسقي شجرة الإيمان في القلب لتؤتي أكلها ؟

نعم إنه الوحي القرآني والوحي النبوي النازل على سيدنا رسول الله ، ففي الحديث عن حذيفة رضي الله عنه قال :

(حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة) - أي الإيمان- (نزلت في جذر قلوب الرجال) - أي غرست في القلوب - (ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة) .... الحديث [1]

- أي نزل القرآن ونزلت السنة وهي الوحي النبوي ، نزل ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وأخذت القلوب تستمد من القرآن والسنة حتى نمت شجرة الإيمان في قلوب المؤمنين وجعلت تستقي بـ : (قال الله تعالى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم) وإلى هذا أشار قوله جل وعلا : { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ } .

فهذا مثل ضربه الله للناس ليتفكروا فيه ويعبروا من هذا المثل إلى ما أراد الله تعالى أن يعلموا ، فإن شأن الماء أن تحيا به الأشياء ، فأنزل الله تعالى ماء حسياً شهودياً على أرض الأجسام الشهودية فأخذت الأودية من هذا الماء حسب سعتها ونظافتها ، وكذلك القلوب فهي كالأودية فمنها الكبير والأكبر ومنها النظيف ومنها المريض بالشبهات والضلالات ، ولقد أنزل الله تعالى على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن والسنة لتستمد منه القلوب على حسب سعتها وصفائها ، فتنمو شجرة الإيمان في القلوب وتتمكن وتثمر .

---

[1] صحيح البخاري كتاب الرقاق وصحيح مسلم كتاب الإيمان

وقد قال سبحانه : { وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة } - يعني السنة بما اشتملت عليه من أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم فإذا كان ماء الأشجار الأرضية نازلاً من السماء كما قال جل وعلا : { أنزل من السماء ماء} فإن ماء القلوب ومددها نازل من عند رب السماء قال تعالى : { وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة }
فلقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يزرع شجرة الإيمان في القلب حتى يطهر ويطيب ، فمن فتح قلبه لذلك وآمن بالله تعالى وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وصار مؤمناً فيجب عليه عندئذ أن يعرف كيف يعبد الله تعالى ..

فلقد قال سبحانه : { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ }

فمن آمن فليعلم أن الله قد اشترى منه نفسه وماله فعليه أن يسلم المبيع وذلك بأن يستسلم لأمر الله تعالى بنفسه وفيما أعطاه ، وحاشا الكريم أن يشتري من المؤمن نفسه التي هي أعز وأغلى ما عنده وكذلك ماله ، حاشاه سبحانه أن يشتري ذلك بشيء خسيس بل وعدهم بالجنة التي هي دار ضيافته وكرامته جل وعلا .

وإن أمر الجنة عظيم كبير وقد تقدم شيء من الكلام عنها ، وكيف يسلم المؤمن المبيع الذي اشتراه الله تعالى منه ؟

نعم يسلِّمه بأن ينزع سلطة الهوى المتحكم في نفسه ويتحرر من أسر الأهواء والآراء ويجعل نفسه وماله تحت أمر الله تعالى بأن يفعل ما طالبه الله به في نفسه وماله ، وهذا هو تسليم المبيع ، فهو سبحانه يطالب المؤمن وقت كل صلاة أن يقوم فيصلي ، ويطالبه في شهر رمضان أن يصوم ، ويطالبه على رأس كل سنة أن يؤدي زكاة ماله وهكذا يطالبه سبحانه بأوامر وواجبات عليه أن يأتي بها ، فإذا فعل ذلك فقد سلم نفسه وماله لرب العالمين يعني استسلم لأمره فسلم المبيع ، ومن لم يستسلم بل وقف مع هواه فهو عبد للهوى ، وإذا وقف مع شيطانه فهو عبد رق للشيطان ، أو استسلم لزوجته إن هي أمرته بالفسوق والفجور فهو عبد بين يديها وقد قال صلى الله عليه وسلم :

(تعس عبد الدينار ، والدرهم ، والقطيفة ، والخميصة) [١]

فهو سبحانه يطالب الإنسان أن يتحرر من رق العبودية لغيره سبحانه ، وأن يكون عبداً خالصاً لله وحده ..بأن يضع نفسه وماله مستسلماً لأمر الله تعالى ، ويؤدي ما أوجبه الله عليه ..

وقد بين سبحانه صفات المؤمنين بعهودهم مع الله تعالى ، وكأن سائلاً سأل : من هم الذين سلموا المبيع وأوفوا بوعودهم وأدوا واجبات تسليم المبيع ؟

[١] صحيح البخاري كتاب الرقاق

فبين ذلك جل وعلا بقوله:

{ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ }

وهي صفات من سلم نفسه وماله لرب العالمين جل وعلا .

فلقد بين سبحانه أن أول مقام يجب أن يتحقق فيه المؤمن هو التوبة فقال جل وعلا : { التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ } أما التوبة فهي رجوع العبد إلى ربه طالباً منه سبحانه عفوه ومغفرته ورحمته ، والتوبة مقام لابد لكل مؤمن أن يقيم فيه طيلة عمره ولا يبارحه إذ لا يخلو العبد من ذنوب يقع فيها فلابد له إذاً من التوبة منها .

وطالما أن الذنوب مختلفة فتوبة كل عبد على حسب ذنوبه ، فمنهم من يتوب من الكبائر ، ومنهم من يتوب من الصغائر ، ومنهم من يتوب من الهفوات والغفلات وهكذا فإنه مهما ارتقى المؤمن في مقامات الإيمان لابد له من الحلول في مقام التوبة ، قال تعالى يخاطب المؤمنين على مختلف درجاتهم :

{ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }

أي لعلكم تظفرون وتنالون مرادكم ونيتكم وهي الجنة ورضا الله تعالى ، وقد علق سبحانه الفلاح على التوبة ، وعلى قدر التوبة وصدقها ونصحها يكون الفلاح ، والتوبة على مراتب لأن الذنوب على أنواع ، وقد نزلت هذه الآية في السنة الثالثة من الهجرة ، وأمر فيها سبحانه المهاجرين والأنصار بالتوبة وكذا سائر المؤمنين من بعدهم ، والتوبة هي أول المنازل والمقامات التي لابد للمؤمنين السالكين طريق التقرب إلى الله تعالى أن يتحققوا بها وتصحبهم حتى الموت .

ولكي يتضح لك أن توبة كل مؤمن على حسبه ، فإن من أهل الإيمان الكامل من يتوب من المباحات كأن مرت عليه ساعة لم يذكر الله فيها ، ولم يشغلها بذكر الله تعالى ، وإن كان قد شغلها بأمر مباح ، ومنهم من يتوب من الاعتماد على الأسباب والغفلة عن المسبب فيها وهو الله تعالى إذ ليس للأسباب تأثير من ذاتها ، بل الفعّال فيها هو الله تعالى، فإن شاء أعملها لما خلقها له ، وإن شاء أهملها ، فمثلاً أنت تأكل ، وليس الطعام هو الذي يشبعك ويغذيك من ذاته بل المطعم والمغذي هو الله تعالى ، فالطعام سبب للغذاء ، والمغذي به هو الله تعالى .

وكذا الماء لا يرويك من ذاته وكذا الدواء لا يشفيك من ذاته بل كلها أسباب بين يدي رب الأرباب ، فمن غفل عن المسبب ووقف مع السبب فقد غفل عن الله تعالى ويجب عليه أن يتوب من غفلته وهكذا .

ومهما علم المؤمن من ذنوبه وتاب منها فإن هناك ذنوباً لا يعلمها يجب عليه أن يتوب منها لأن الله تعالى يعلمها ويأمره أن يتوب منها .

ولذلك علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته أدعية في التوبة تشمل الذنوب التي يعلمها العبد والتي لا يعلمها ومنها :

(اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخَّرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت[1])

واعلم أن حقيقة الإيمان في القلب نور أودعه الله في قلب المؤمن قال سبحانه : { أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ }

بعد أن تعرض العبد لهذا النور وفتح قلبه له فأصابه النور واهتدى إلى الله تعالى فآمن .

وكلما زاد إيمان المؤمن زاد النور في قلبه ، وإن من شأن النور أن يظهر الأمور ويكشف دقائقها كما يُظهر شعاع الشمس المتوجه من نافذة صغيرة يظهر الهباء والغبار الدقيق الموجود في جو الغرفة مثلاً ، فإذا ارتقى المؤمن في مقامات الإيمان والقرب من الله تعالى ازداد نور الإيمان في قلبه وراح يرى من نفسه عيوباً ودقائق من الصغائر لم يكن يراها من قبل فيستغفر ويتوب منها .

وهكذا كلما ارتقى في مقامات الكمال فلا يزال يتوب ويتوب ولا يبارح مقام التوبة أبداً .

ألا ترى إلى من كان لباسه نظيفاً ناصع البياض فإن صاحبه لا يرى عليه أثر الغبار إلا إذا تقرب من نور باهر ساطع فيرى على ثيابه غباراً ما كان يراها من قبل فيأخذ ينظفها وهكذا ، ولا يزال على ذلك كلما زاد النور وقوي وأظهر على ثيابه دقائق كانت قد خفيت عليه من قبل ، وهذا شأن المؤمن أن يتوب من الذنوب التي يعلمها والتي لا يعلمها .

وفي الحديث القدسي يقول جل وعلا: (يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم) [2]

ومن ذلك تعلم أن جميع المؤمنين على اختلاف مراتبهم ومقاماتهم كلهم مكلفون بالتوبة إلى الله تعالى ، لكن توبة كل مؤمن على حسب ذنوبه ومقامه ، وقد يفعل عوام المؤمنين أموراً مباحة لكنها في نظر المقربين هي من الصغائر التي يتجنبون فعلها وهذا من قبيل (حسنات الأبرار سيئات المقربين) .

كما هو مفصل في كتاب (إتحاف المحبين بذكر مناقب الإمام الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني رضي الله عنه) فلترجع إليه .

---

[1] صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها
[2] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

ولقد فتح الله تعالى باب التوبة لعباده ورغبهم إليها لأنه يحب منهم أن يرجعوا إليه ففي الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها) [١]

واعلم أنه مهما كثرت ذنوب العبد وتراكمت عليه فإن مغفرة الله تعالى أوسع له إن هو تاب ، ففي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : (كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض) - أي من بني إسرائيل - (فدل على راهب) - أي عابد غير عالم - (فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله ، فكمل به مائة) - وقد جنى هذا العابد على نفسه لأنه أفتى بغير علم فسد باب التوبة على هذا الرجل المسرف على نفسه مع أن باب التوبة قد فتحه الله تعالى لكل عبد مهما كثرت ذنوبه ولا يغلق باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها وهو من علامات الساعة الكبرى - (ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا) - يعني أمره أن يهجر رفقاء السوء الفسقة الذين كان يصحبهم ويأوي إليهم - (فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك ، فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله) - بدليل أنه هجر أرض السوء وصحبة الأشرار وانطلق إلى صحبة الأخيار تائباً ليعبد الله معهم - (وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي ، فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له) - أي إلى أرض الفسقة أو إلى أرض الصلحاء - (فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد) - أي أرض الأخيار - (فقبضته ملائكة الرحمة) [٢]

وفي رواية لمسلم : (فلما كان في بعض الطريق أدركه الموت فنأى بصدره ، ثم مات ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب ، فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر ، فجعل من أهلها) [٣]

وفي رواية : (فأوحى الله إلى هذه أن تقربي ، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي ، وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجد إلى هذه أقرب بشبر ، فغفر له) [١]

---

[١] صحيح مسلم كتاب التوبة
[٢] صحيح مسلم كتاب التوبة
[٣] صحيح مسلم كتاب التوبة

وهذا لأن الله تعالى يحب من عبده أن يتوب إليه ويفرح سبحانه بتوبة عبده كما تقدم في الحديث .

وقد فتح سبحانه لعباده باب التوبة لأنهم عبيده وهو ربهم ، والرب أرحم بعبيده من رحمة الوالدة بولدها ، وإذا كانت هذه رحمة الله بعباده فكيف يعرضون عنه ولا يتوبون إليه ؟!

نعم لقد أمرهم بالتوبة فقال جل وعلا :
{ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون }

ومن لم يستجب له سبحانه ولم يبادر إلى التوبة فقد هدده سبحانه فقال :
{ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون }

[1] صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء

*** الأسباب التي تحمل العباد على التوبة :

أولاً : أن يتوب كل مؤمن مما هو فيه امتثالاً لأمر الله تعالى :
{ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون }
وليتجنب وعيد الله له بقوله : { ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون }

ثانياً : أن يعلم كل مؤمن خطر إصراره على الذنوب وأن ذلك قد يؤدي به إلى زوال الإيمان من قلبه والعياذ بالله تعالى .

ولذلك وصف جل وعلا المؤمنين بعدم الإصرار على الذنوب بل إن شأنهم الاستغفار والتوبة دائماً ..

قال جل وعلا : { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ }

وقال صلى الله عليه وسلم : (ويل للمصرين [1]) يعني أنهم ماضون بإصرارهم إلى وادي ويل وهو واد في جهنم ، نسأل الله العافية .

وذلك لأن من أصر على الذنوب أو على ذنب ما فقد يأتي عليه وقت يستحسن فيه هذا الذنب ويستحله فيقع في الكفر ويزول نور الإيمان من قلبه فيهون عليه فعل المحرمات .

ثالثاً : إن من ارتكب ذنباً فقد ظلم نفسه لأنه عرضها لعذاب الله وغضبه فكيف يرضى العاقل أن يمد يده إلى النار ليحرقها في حين أنه لو اجتمع أهل الأرض ليقنعوه أن يحرق يده لما فعل ؟! .

وإن الإنسان بحكم فطرته ونشأته ينفر من النار ويتألم من العذاب وهذا شأن المصر على الذنوب فقد ظلم نفسه بأن رضي لها العذاب .

ومن زعم أن العذاب لا يقع إلا على الكافرين فقل له :
لقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عذاب عصاة المؤمنين الذين ماتوا ولم يتوبوا واطلع وسمع من عذابهم في القبر وغيره من برازخ الآخرة .

والأحاديث في ذلك كثيرة ، منها أنه صلى الله عليه وسلم لما دخل مكاناً وسمع عذاب المقبورين قال : (إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ، فلولا أن لا تدافنوا ، لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه) [2]

---

[1] المسند ٦٧٤٤

[2] صحيح مسلم كتاب صفة الجنة و صفة نعيمها و أهلها

يعني لو أن الله كشف لكم عن عذاب أهل القبور من المذنبين لترك الأحياء منكم دفن أمواتهم خوفاً وفراراً لئلا يسمعوا أصوات المقبورين من العصاة الذين ماتوا ولم يتوبوا .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا وضعت الجنازة ، فاحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قدموني ، قدموني) أي قال صاحب الجنازة ذلك ، يعني أنه يقول لهم : عجلوا في دفني لما رأى من قبره أنه روضة من رياض الجنة - (وإن كانت غير صالحة قالت : يا ويلها ، أين يذهبون بها ؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمعها الإنسان لصعق) [١]

فإذا كنت أيها العاقل تخاف من عذاب القبر وما بعده فبادر إلى التوبة إلى الله تعالى لتكون في أمن الله وسلامه .

رابعاً : ينبغي على كل مؤمن أن يتوب من ذنوبه لأن الذنوب ظلمات تخيم على القلوب فتحجب صاحبها عن مشاهدة أنوار الله وأسراره .

وإذا تراكمت الذنوب على صاحبها جعلته ضيق الصدر مريض القلب لا يجد السكينة والطمأنينة في حياته لأنه لا نعيم ولا راحة للقلب إلا إذا تجلى فيه نور الرب سبحانه ، ومن أظلمت قلبه الذنوب حجبته عن ذلك فتراه لا يخشع إذا ذكر بآيات الله وعظمته سبحانه وكبريائه ولا يجد للعبادات حلاوة .

وقد بين سبحانه أن قلوب الكافرين قد حُجبت عن رب العالمين بسبب ظلمتها بالذنوب ، وفي هذا تحذير للمؤمنين أيضاً أن لا يصروا على الذنوب لئلا تحجب قلوبهم عن الله تعالى .

قال جل وعلا: { كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون } أي خيمت ظلمة الذنوب على قلوبهم فحجبت قلوبهم عن ربهم فكان جزاؤهم أن احتجب الله عنهم يوم القيامة وحرمهم لذة نعيم رؤيته يوم القيامة ، وألقى عليهم عذاب الحرمان والخذلان ..

قال جل وعلا : { كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون } .

---

[١] صحيح البخاري كتاب الجنائز

وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم : (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت ، حتى يعلو قلبه ذاك الران الذي ذكر الله عز وجل في القرآن { كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون }) [١]

أي حتى تحيط النُّكتُ السوداء بالقلب كله فيظلم - نسأل الله العافية .

فمن خاف على قلبه من الظلمة والحجاب فليسارع إلى التوبة ليصقل قلبه وتتجلى فيه أنوار رب العالمين .

خامساً : إن مما يحمل المؤمن على التوبة أن يعلم أن الذنوب التي ارتكبها إنما هي محفوظة عليه فهي مسطورة في كتاب أعماله الخاص به ، ولها أثر ظلماني في لوح نفسه ، وهي مسطورة في كتاب الإحصاء العام المشار إليه بقوله جل وعلا:

{ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا }

وقوله جل وعلا: { وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ }

وكما أن للذنوب آثاراً ظلمانية تظهر في نفس المذنب فإن لها أيضاً آثاراً مسطورة في كل من حوله ، فمن شاهد الذنب من أرض وجدران وشجر ومدر وجميع ذلك سيكون شاهداً على العبد بما فعل ، قال جل وعلا:

{ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

وقال جل وعلا: { يومئذ تحدث أخبارها * بأن ربك أوحى لها }

وقد بين ذلك صلى الله عليه وسلم كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم { يومئذ تحدث أخبارها } قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمَة بما عمل على ظهرها أن تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا ، قال : فهذه أخبارها) [٢]

ومن تاب إلى الله من ذنوبه أنسى الله الملائكة الحفظة عليه أنساهم ذنوبه ومحا ذلك من صحيفة أعماله ومِن كتاب الإحصاء العام ، وأنسى الأرض وكل من شاهده أنساهم ذنبه بل يشهدون له أنه تاب وأناب لأن التوبة حسنة كبيرة يغفر الله بها الذنوب وتكتب له في صحيفة الحسنات .

---

[١] المسند ٧٦١١

[٢] سنن الترمذي كتاب صفة القيامة الرقائق والورع

وفي الحديث : (إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله وليس عليه شاهد من الله بذنب) [1]

ولو أنك أيها العاقل تفكرت في قوله تعالى :

{ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا }

وهذا هو كتاب أعمالك وأقوالك وخفاياك التي ستظهر علانية يوم

القيامة وستقرأ ذلك على رؤوس الخلائق كلها ، وكلهم سيسمعون منك أنك فعلت يوم كذا كذا وكذا وأنك أضمرت في نفسك كذا وكذا من الضغائن والفساد وأنك وأنك ..

ولو نظرت في الندم والخذلان الذي سيعتريك يومئذ وعلى مدى الفضيحة والحسرة التي ستقع فيها لأسرعت وبادرت إلى التوبة ليمحو الله ذنوبك من كتابك ومن لوح نفسك فلا يرى عليك أثر الذنوب الظلمانية ، بل تتحلى و تستنير بأنوار التوبة والطاعة قال تعالى : { إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا }

فيعطي الله العبد على كل ذنب تاب منه حسنة ، فما أعظم كرم الله وما أوسع مغفرته جل وعلا ، واعلم أنه لا أحد إلا الله يقدر على غفر الذنب بالمعنى الذي تقدم ولذلك قال سبحانه : { ومن يغفر الذنوب إلا الله }.

---

[1] عزاه في كنز العمال لابن عساكر عن أنس

*** معنى التوبة النصوح

قال الله تعالى : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

يقال في لغة العرب عن الخياط : [ناصح] لأنه يجمع الثوب إلى بعضه ليصير ثوباً كاملاً لا شق فيه ولا فتق ، ويقال عن الإبرة : [منصحة] لأنها تخيط الفتوق كما أن النصح هو الصفاء وعدم الغش .

فيقال : [نصح العسل] إذا صفا من الشوائب ، ومن ذلك يتبين لك أن التوبة النصوح هي التوبة الخالصة لله تعالى والتي كان الباعث عليها خشية الله وخوف عقابه ، وهي التوبة الكاملة التي تعم جميع الذنوب والتي ترتق ما فتق الإنسان من لباس تقواه ، لأن الذنوب تفتق لباس التقوى فلابد له من رتق وجمع ليكمل على صاحبه ، ومن هذا يتبين للعاقل أيضاً وجوب ملازمته لمقام التوبة طيلة مراحل عمره .

ولقد نبه إلى هذا سبحانه بقوله :

{ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي } - أي : وفقني - { أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ } - والمراد بها نعمة الإيمان والتي هي أعظم النعم الإلهية على الإنسان المؤمن - { وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ } اللهم اجعلنا منهم . آمين

فقوله تعالى : { رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ }

هي نعمة الإيمان التي تفضل بها سبحانه على المؤمنين كما قال تعالى :

{ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }

ومن شكر الله تعالى على نعمة الإيمان فقد سأل الله تعالى الثبات على الإيمان والزيادة في الإيمان لأن الله تعالى يقول : { لئن شكرتم لأزيدنكم } .

فالشكر على شيء يقتضي الزيادة منه ، والحمد لله تعالى على نعمة الإيمان وأن جعلنا من أمة خير الأنام عليه الصلاة والسلام .

جاء في الحديث عن منصور بن صفية رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مر برجل وهو يقول : الحمد لله الذي هداني إلى الإسلام ، وجعلني من أمة أحمد صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : (شكرت عظيماً) [1] فافهم .

قوله تعالى : { وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ }

وفي هذا تعليم للإنسان أن يدعو الله تعالى بهذا الدعاء لأنه إذا بلغ الأربعين من عمره فقد بلغ سن الكمال فيجب عليه أن ينهض بنفسه ويجد في سيره إلى الله تعالى ويترك أفعال اللهو وأقوال اللغو وطيش الشباب .

ويحكى عن بعض السلف أنه كان له رفقاء يذهب معهم لبعض اللهو في أمور مباحة فمروا عليه ذات ليلة فامتنع عن الذهاب معهم وقال :

إني اليوم قد بلغت من العمر أربعين سنة وقد تبت إلى الله تعالى وسأشغل وقتي بطاعة الله تعالى لأن الله تعالى يقول :

{ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال ... } الآية . اهـ

قوله تعالى : { وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي } يعلِّم سبحانه كل مؤمن أن يدعو لذريته بالصلاح ، والمعنى : وأصلح ذريتي لي ، يعني اجعل الصلاح متمكناً في ذريتي لا يفارقهم ، واجعل ثواب ذلك كله في صحيفة أعمالي ، دل على ذلك قوله : {لي} وذرية الإنسان هم أولاده وأولاد أولاده إلى يوم الدين ..

ومن دعا بهذا الدعاء وارتجى هذا الرجاء فإن الله تعالى يكرمه ويجعل كل خير يجري في ذريته من صلاة وصيام وصدقة وفعل خير وعمل صالح إلى يوم الدين يجعل ذلك كله في صحيفته ، فما أعظم هذا الخير وما أوسع فضل الله وكرمه .

نعم إن الآباء ينفعون الأبناء بصلاحهم ، وإن الأبناء ينفعون الآباء بصلاحهم

أما انتفاع الأبناء بصلاح الآباء فيقول سبحانه :

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا } - أي إيماناً كاملاً-

{ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ} - أي ليس كإيمان آبائهم

{ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ } - أي ألحق سبحانه الفروع بالأصول إكراماً للأصول

{ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ } - أي : دون أن ينتقص من أعمال الآباء أجر ولا ثواب ..

---

[1] شعب الإيمان للبيهقي

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك ، فيقول : يا رب قد عملت لي ولهم ، فيؤمر بإلحاقهم ، وقرأ ابن عباس : { والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان[١] } الآية)

وأما انتفاع الآباء بالأبناء فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له) [٢]

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ان الله عز وجل ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول : يا رب أنى لي هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك) [٣]

وعن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال :

(بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال : يارسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم ، الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما) [٤]

فينبغي على كل مؤمن أن يجدد توبته كل حين وآخر من مراحل عمره كلها ..

ونسأل الله تعالى التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

---

[١] عزاه في مجمع الزوائد للطبراني في الصغير والكبير

[٢] سنن الترمذي كتاب الأحكام وسنن النسائي كتاب الوصايا

[٣] المسند ١٠٢٠٢ وسنن ابن ماجه كتاب الأدب

[٤] سنن أبي داود وسنن ابن ماجه كتاب الأدب

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الثالثة

حول قوله تعالى : { العابدون }

معنى العبادة وأثرها في النفس

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فإن العبادة هي التذلل لرب العالمين والخضوع له سبحانه على الوجه الذي شرعه لعباده جل وعلا ، ولهذه العبادة مظاهر تعبدية من صلوات وزكاة وصيام وإحجام عن ما حرم الله تعالى كل ذلك مصحوب بأقصى درجات الخضوع والتذلل لله رب العالمين ، وأما أن يأتي العبد بقول أو بعمل ويدعي أنه يعبد الله به وليس له أصل في شرع الله تعالى كما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعمله هذا مردود عليه ، و لا يعتبر من العبادات طالما لم يندرج تحت أصل تشريعي .

واعلم أنه سبحانه لم يشرع العبادة لعباده على سبيل الإهانة لهم أو الإحراج أو المضايقة ، قال سبحانه : { ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج }

فهو سبحانه ربهم الذي خلقهم فهو أرحم بهم ، وإنما شرع لهم عبادته ليتشرفوا بعبادته ويتعززوا به سبحانه وتتطهر نفوسهم وتطيب حتى يتقربوا إليه سبحانه وينالوا حبه وجواره جل وعلا في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

ولا ينال العبد ذلك إلا إذا هذب نفسه وطهرها وزكاها وارتقى بها من النفس الأمارة بالسوء إلى النفس المطمئنة التي اطمأنت على شرع الله تعالى وحبه سبحانه .

وفي ذلك يقول سبحانه : { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون }

أي يعرفوه سبحانه بكمالاته وأسمائه ويتشرفوا بعبادته وقربه وحبه .

ويتجلى أثر العبادة في النفس الإنسانية بأنها تطهرها من الصفات البهيمية والقوى الغضبية والشهوانية فتصرف هذه الصفات والدواعي في مصارفها الشرعية فتزكو النفس الإنسانية وتطيب ويرتقي الإنسان في مقامات الكمال الإنساني العلوي الرباني .

فالعبادة تعبِّد النفس وتذللها لرب العالمين لتدخل في ظلال عزه وكرامته سبحانه .

إذ إن العزة لله جميعاً فمن أراد العزة فليتعزز إلى العزيز لينال من عزه وما ذلك إلا بعبادته سبحانه وتعالى والتي لا تكون إلا بأن يخلع العابد ما عليه من دعوى الأنانية والكبر ورؤية النفس وسائر الرعونات النفسية

ألا ترى إلى الطريق الذي يمر الناس كيف عبدته أقدام الناس وذللته حتى صار معبداً لا يجد الإنسان مشقة في السير عليه فكذلك النفس الإنسانية لا تعبدها وتذللها إلا التكاليف الإلهية الشرعية فتكيِّف الإنسان وتنقله إلى عبد عابد لرب العالمين ويصير عزيزاً بالله قوياً بالله تعالى ، وقد قال سبحانه : { واسجد واقترب } فلا سبيل إلى القرب من الله تعالى إلا بعبادته والسجود له سبحانه .

ونقل عن الإمام العارف الشيخ أبي يزيد رضي الله عنه أنه ناجى ربه يوماً :
يا رب بما أتقرب إليك ؟ فهُتف : (يا أبا يزيد تقرب إلي بما ليس في)
- أي : بصفة ليست لله تعالى ، وهي صفة الذل والانكسار ، فله سبحانه العزة والاستكبار ، ومن أراد قربه فعليه أن يتحقق بصفة الذل والانكسار وملاحظة الافتقار إليه سبحانه فيصير المتقرب عزيزاً بربه غنياً بربه جل وعلا .

وقال سبحانه : { من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً }

وكأن قائلاً يقول : وما طريق التعزز بالله تعالى ؟

فقال جل وعلا : { إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه } .

أي أن التقرب إلى الله تعالى هو بالعمل الصالح والكلم الطيب وهي عبادته سبحانه وهي طريق العزة بالله تعالى .

ويرحم الله تعالى القائل :

تذلل لمن تهوى لتكسب عزه فكم عزة قد نالها المرء بالذل

إذا كان من تهوى عزيزاً ولم تكن ذليلاً له فاقر السلام على الوصل

ويتحتم على الإنسان الذي حمل أمانة الله الكبرى أن يحسن حملها ويقوم بمطالبها حق القيام وأن لا يضيع ما أكرمه الله به من العقل والقوى والمدارك في أمور لا فائدة منها ، وأن لا يدنس نفسه وجسمه الذي خلقه الله بيديه وشرفه وفضله على غيره من المخلوقات ..

تنبيه : إذا كان ميزان الاعتبار والكرامة عند الله تعالى هو تقوى الله فليكن ذلك أيضاً عند خلقه سبحانه ، فمن المؤسف والمحزن أنك ترى الغني إذا دخل مجلساً قام له الجالسون واحترموه وقدموه إلى صدر المجلس وكأنهم يتباركون بأمواله وأملاكه ..وربما كان لا يؤدي زكاة ماله ، والله أعلم بصحة إيمانه ، أما إذا دخل المجلس رجل فقير لكنه من أهل الإيمان والصلاح فلا يلتفت إليه أحد

وقد يجد له مكاناً يجلس فيه ، وقد لا يجد وكأن هؤلاء الناس قد نسوا قول الله تعالى : { إن أكرمكم عند الله أتقاكم }

وفي في شعب الإيمان للبيهقي : (وَمَنْ دَخَلَ عَلَى غَنِيٍّ فَتَضَعْضَعَ لَهُ)– أي خضع وذل له – (ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ) .

فعلى الإنسان المؤمن أن يحترم غيره من المؤمنين ويكرمه لإيمانه وصلاحه لا لماله ومنصبه .

قوله تعالى :{ العابدون} .

ومن العبادة أيضاً أن يتجنب الإنسان المحارم التي حرمها الله تعالى ففي الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتق المحارم تكن أعبد الناس) [١]

والمحرمات على أنواع فمنها الكبائر ومنها الصغائر ومنها دون ذلك ، وعلى قدر اجتناب العبد للمحارم يكون مقامه في العبادة .

ومما يدل على أن في العبادة تعززاً بالله تعالى وتقرباً منه سبحانه أن الملائكة لا يفترون عن عبادة الله تعالى أبداً ما بين تسبيح وتحميد وركوع وسجود .

ومما أخبر سبحانه عنهم قولهم :{ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك }

أي نقدس أنفسنا بالعبادات تقرباً إليك يا ربنا .

ومع ذلك كله إذا جاء يوم القيامة يقولون : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك [٢]

ومما يدل على أن العبادة هي عزة وكرامة وشرف أن العباد الذين عبدوا ربهم في الدنيا يعبدونه سبحانه في برازخ الآخرة ، ويعبدونه سبحانه في الجنة أيضاً مع أن الجنة دار نعيم وليست دار تكليف .

فهم يعبدون الله تعالى تلذذاً ونعيماً ولا يجدون في ذلك مشقة .

وليس في عبادات أهل الجنة مَناهٍ وأوامر لأنه لا يدخل الجنة إلا من تطهرت نفسه عن دواعي المحرمات وإنما عبادتهم في تسبيح الله وتحميده سبحانه .

ففي الحديث عن جابر رضي الله تعالى عنه في صفة أهل الجنة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يُلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس) [٣]

ومن أحب عبادة الله في الدنيا وعشقها أكرمه الله تعالى بالمواظبة عليها في برازخ الآخرة وصارت له روحاً ونعيماً فلا يتركها .

---

[١] سنن الترمذي كتاب الزهد

[٢] روى الطبراني في الكبير عن جابر رضي الله عنه عن البي صلى الله عليه وسلم قال : (ما فى السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك راكع أو ملك ساجد فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعًا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك)

[٣] صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه رأى موسى عليه السلام يصلي في قبره فقال :

(أتيت) - وفي رواية : (مررت) - (على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره) [١]

ولا يتنافى هذا مع قوله صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) [٢] إذ المراد من عمله الأعمال الدنيوية التكليفية إذا فاتته في الدنيا فلا يقضيها بعد موته .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون) [٣]

وروى الإمام الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :
ضرب بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا فيه إنسان يقرأ سورة { تبارك الذي بيده الملك } حتى ختمها فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فإذا فيه إنسان يقرأ سورة { تبارك الملك } حتى ختمها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر) [٤]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر) - وهم الذين يذكرون الله تعالى بنوع من أنواع الذكر من تسبيح أو تحميد أو تهليل أو قراءة قرآن أو صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أو مجالس العلم وغير ذلك -

(فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم ، وهو أعلم منهم : ما يقول عبادي ؟ قالوا : يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال : فيقول : هل رأوني ؟ قال : فيقولون : لا والله ما رأوك؟ " قال : فيقول : وكيف لو رأوني ؟ " قال : " يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيداً وتحميداً ، وأكثر لك تسبيحاً " - وإن أهل الجنة في الجنة يرون رب العزة جل وعلا فهم إذاً أكثر عبادة منهم في الدنيا وأشد تسبيحاً وتحميداً لله ، فافهم - .

---

[١] صحيح مسلم كتاب الفضائل
[٢] تقدم تخريجه
[٣] عزاه في مجمع الزوائد لمسند أبي يعلى والبزار
[٤] سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

قال : يقول : فما يسألوني ؟ قال : يقولون : يسألونك الجنة قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا رب ما رأوها ، قال : يقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً ، وأشد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة ، قال : فمم يتعوذون ؟ قال : يقولون : من النار قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا رب ما رأوها قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً ، وأشد لها مخافة

قال : فيقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم ، قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم) [1]

- أي هم جلساء الحق لا يشقى بهم جليسهم من الخلق .

وفي رواية : فيقول سبحانه : (وله غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم) [2]

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

---

[1] صحيح البخاري كتاب الدعوات

[2] صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الرابعة

حول قوله تعالى : {العابدون }

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

إن مقام العابدين هو مقام العبادة الكاملة لرب العالمين ، فما هو معنى العبادة أولاً وما هي أحوال العابدين في عباداتهم وماهي أنواع العبادات وماذا يترتب على مقام العابد إذا تحقق بالعبادة وماذا يتفرع عن مقام العابدين من مقامات ؟

كل ذلك سنتناول البحث فيه إن شاء الله تعالى

أما معنى العبادة :

فالعبادة هي : قيام العبد بحق الله تعالى عليه بما أمره به من أقوال وأعمال يقوم بها ويلاحظ أنه عبد يقوم بحق ربه وخالقه عليه ، فحين تقوم للصلاة مثلاً تلاحظ أنك عبد وقفت بين يدي ربك الذي خلقك ورزقك وأمدك جل وعلا ، وهذا ما ينبغي على كل عبد أن يلاحظه أثناء عبادته لله تعالى سواء في صلاته أو في صيامه وقراءته وتسبيحه وذكره لله تعالى وهكذا ..

ومن غفل عن ملاحظة هذا المعنى فهو عابد بالصورة فقط وتكون عبادته عبادة الغافلين .

ومن هذا يتبين للعاقل الفرق بين سجود الملائكة لرب العالمين وبين سجودهم لآدم عليه السلام ، إذ كان سجودهم لآدم سجوداً حقيقياً وليس مجرد انحناء فقط ، فقد قال تعالى :

{ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ }

أي : فخروا ساجدين لآدم عليه السلام .

أما سجودهم لرب العالمين فهو سجود عبادة له سبحانه وفيه معنى الذل والخشية منه سبحانه ، وأما سجودهم لآدم فهو سجود تكريم وتعظيم ممتثلين أمر الله لهم بذلك .

هذا وإن كان السجود في الحالتين على صورة وهيئة واحدة إلا أنه في معناه مختلف تماماً ، فالملائكة يسجدون لله تعالى عبادة له سبحانه وهم عباده وقد أمرهم أن يعبدوه ويسجدوا له ، وقد سجدوا لآدم تكريماً وتعظيماً له فافهم .

ومما يدل على أن سجود الملائكة لآدم هو سجود تكريم أن ابليس امتنع عن السجود له كما أخبر عنه سبحانه :{ هذا الذي كرمت علي } يعني هذا آدم الذي كرمته علي حتى أسجد تكريماً وتعظيماً له .

واعلم أن سجود التكريم والتعظيم لمخلوق على سبيل التحية له كان مشروعاً في شرائع الأمم السابقة ، ومن ذلك سجود أخوة يوسف عليه السلام له تكريماً وتعظيماً له لا عبادة ، قال تعالى في ذلك :{ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً } وأما في الشريعة المحمدية فقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم السجود لأحد على وجه التكريم والتعظيم ، فلا يسجد أحد من هذه الأمة إلا لله تعالى عبادة له سبحانه .

وقد استأذن عدد من الصحابة رضي الله عنهم أن يسجدوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعظيماً له فنهاهم عن ذلك .

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :
(كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه) - أي: يستقون -
(وإن الجمل استصعب عليهم فمنعهم ظهره وإن الأنصار جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنه كان لنا جمل نسني عليه وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره وقد عطش الزرع والنخل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : قوموا فقاموا فدخل الحائط والجمل في ناحية فمشى النبي صلى الله عليه وسلم نحوه فقالت الأنصار : يا نبي الله انه قد صار مثل الكَلْب الكلِب وإنا نخاف عليك صولته ، فقال صلى الله عليه وسلم : ليس عليَّ منه بأس ، فلما نظر الجمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل نحوه حتى خرَّ ساجداً بين يديه ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بناصيته أذل ما كانت قط حتى أدخله في العمل ، فقال له أصحابه : يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك ، فقال : لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها ، والذي نفسي بيده لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تنبجس بالقيح والصديد ثم استقبلته فلحسته ما أدت حقه)[١]

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال :

(لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي صلى الله عليه و سلم) - وهذا قبل أن ينهى رسول الله عن السجود لغير الله تعالى - (قال : ما هذا يا معاذ ؟ قال : أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك ،

---

[١] المسند ١٢١٥٣

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلا تفعلوا ،فإني لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، والذي نفس محمد بيده لاتؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها) [١]

قوله تعالى : { التائبون العابدون }

المراد بالعابدين في قوله تعالى : { العابدون } هم الذين تحققوا بمقام الإحسان في عباداتهم يعني هم المحسنون في عباداتهم ، ومقام الإحسان في العبادة هو الذي أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سأله جبريل عليه السلام : (فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[٢]

والمعنى : أن تعبد الله تعالى مشاهداً له بقلبك كأنك تراه بعينك فإن لم تتمكن من ذلك فراقب أنه سبحانه يراك ، أي : كن أيها العابد في عبادتك ما بين مقامين : إما في المشاهدة القلبية أو المراقبة ، ولا شك أن مقام المشاهدة أعلى وأرقى ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغب دوماً في المقامات العالية ويشحذ الهمم إليها كما في الحديث : (سددوا وقاربوا)[٣]

وأما من لم يكن في عبادته مشاهداً ولا مراقباً فهو من الغافلين ويقال : لقد سقط عنه الفرض وحرم من الثواب ومضاعفة الأجر ولم يتلذذ ويتنعم بعبادة الله تعالى .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث الصحابة على التحقق بمقام الإحسان في عباداتهم بل ويحرضهم على أعلى مقامات الإحسان وهو مقام المشاهدة القلبية لرب العالمين جل وعلا .

وقد أوصى صلى الله عليه وسلم أبا الدرداء رضي الله عنه فقال له :

(اعبد الله كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك ، واعدد نفسك في الموتى ، وإياك ودعوة المظلوم فإنها مستجابة) [٤]

ولما طلب معاذ رضي الله عنه من سيدنا رسول الله أن يوصيه قال له صلى الله عليه وسلم :

(اعبد الله كأنك تراه ، واعدد نفسك في الموتى ، واذكر الله عز وجل عند كل حجر وعند كل شجر ، وإذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة ، السر بالسر ، والعلانية بالعلانية) [١]

---

[١] سنن ابن ماجه كتاب النكاح
[٢] صحيح مسلم كتاب الإيمان
[٣] صحيح البخاري كتاب الرقاق وصحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار
[٤] شعب الإيمان للبيهقي

وقوله صلى الله عليه وسلم : (واذكر الله عز وجل عند كل حجر وعند كل شجر) يعني حتى يشهد لك عند الله تعالى يوم يقوم الأشهاد ، وقد جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه يشهد للمؤذن مدى صوته من مدر وشجر وحجر

روى البخاري في صحيحه عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَهُ : إِنِّي أَرَاكَ تُحِبُّ الْغَنَمَ وَالْبَادِيَةَ فَإِذَا كُنْتَ فِي غَنَمِكَ أَوْ بَادِيَتِكَ فَأَذَّنْتَ لِلصَّلَاةِ فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وكل ذلك ينطوي في أخبار الأرض التي ستخبر عنها يوم القيامة لقوله تعالى :
{ يومئذ تحدث أخبارها }

وبين ذلك صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الإمام الترمذي و أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : { يومئذ تحدث أخبارها } قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أوأمَة بما عمل على ظهرها أن تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا ، قال : فهذه أخبارها) [٢]

ومن ذلك أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما : (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك في أهل القبور)[٣]

ولقد علم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه أن يسأل الله تعالى أن يجعله من أهل مقام الإحسان في عبادته ، وليس هذا مقتصراً على معاذ فقط ، ولكنه تعليم لكل فرد من أمته صلى الله عليه وسلم .

روى النسائي وأبو داود عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال :

(أخذ بيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني لأحبك يا معاذ ، فقلت : وأنا أحبك يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلا تدع أن تقول في كل صلاة : رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) [٤]

وهذه وصية محب لمحبوب أراد أن يكرمه ويتحفه فعلمه دعاء يدعو به وراء الصلاة المكتوبة أوغيرها من النوافل .

---

[١] المعجم الكبير للطبراني ومصنف ابن أبي شيبة
[٢] سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع و المسند ٨٥١٢
[٣] سنن الترمذي كتاب الزهد
[٤] سنن النسائي كتاب السهو وسنن أبي داود كتاب الصلاة

قوله صلى الله عليه وسلم : (وحسن عبادتك) يعني : أن أعبدك عبادة المحسنين الذين تحققوا بمقام الإحسان الذي ذكره صلى الله عليه وسلم بقوله (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .

فالعبادة الحسنة هي عبادة المحسنين المشاهدين لربهم أو المراقبين له ، ومن لم يتحقق بذلك فعبادته ناقصة وهي عبادة الساهين الغافلين .

** أنواع العبادة :

إن العبادة التي أمر الله تعالى عباده أن يعبدوه بها هي على أنواع فمنها العبادات القولية والعبادات العملية وعبادات أحوال يتحقق بها العابد .

أما عبادة الأقوال فمن أفضلها تلاوة القرآن الكريم كما جاء في الحديث ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن) [1]

وقوله صلى الله عليه وسلم (أفضل عبادة أمتي) يريد العبادات القولية ، وذلك لأن كلام الله تعالى أفضل الكلام على الإطلاق كما روى الترمذي وغيره عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه) [2]

وهناك العبادة القولية بالتسبيح والتحميد وذكر الله تعالى بأنواع الذكر كلها .

وإنما كانت تلاوة القرآن المجيد عبادة لله تعالى ، لأن لها في نفس القارئ وقلبه أيضاً نفحات نورانية يشعر بها القارئ ويتكيف بها ، ولقد أخبر رسول الله عن أسرار العبادات ومنها تلاوة القرآن الكريم فمن ذلك ما رواه الترمذي وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخَرِب) [3]

وقد جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أن البيت الخرب هو البيت المهجور ، والبيت المعمور هو الذي عمره سكانه ، فمن أراد أن يعمر بيت قلبه بالخيرات والأسرار والأنوار الإلهية فليواظب على تلاوة القرآن ، ومن هجر تلاوة القرآن الكريم صار قلبه مأوى للوساوس الشيطانية والهواجس الظلمانية كالبيت المهجور الذي تأوي إليه الحشرات والهوام وتتراكم فيه الأوساخ والأوخام .

---

[1] شعب الإيمان للبيهقي

[2] سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن وسنن الدارمي كتاب فضائل القرآن

[3] سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

وإن تلاوة القرآن الكريم تجلو القلب وتصقله ،فقد روى البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن هذه القلوب تصدأ ، كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء ، قيل : يا رسول الله ، وما جلاؤها ؟ قال : " كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن) [1]

فتلاوة القرآن تجلو القلوب من ظلمات الذنوب ، كما أن القلوب تحيا وتزهر بتلاوة القرآن الكريم فتظهر على صاحب هذا القلب الأقوال الطيبة والأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة وهكذا .

فكما تجف الأرض وتموت إذا احتبس عنها الماء فكذلك أرض القلب لا تحيا إلا بالقرآن وأسراره وأنواره ، وقد بين هذا كله صلى الله عليه وسلم في الدعاء المشهور عنه :

(أن تجعل القرآن ربيع قلبي) [2] أي به يحيا قلبي ويربع فيزهر ويثمر .

ومن أراد وأحب أن يكون في سلك أهل الله تعالى فمن جملة ما يجب عليه أن يكثر من تلاوة القرآن الكريم كما قال صلى الله عليه وسلم :

(أهل القرآن هم أهل الله وخاصته) [3]

وكما تعمر بيوت القلب بالقرآن الكريم فتعمر به أيضاً بيوت الأجسام فعلى كل مؤمن أن يجعل حظاً من تلاوة القرآن الكريم في بيته وأن لا يقتصر على تلاوته في المسجد فقط ،وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم : (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً) [4]

أي : قبوراً مهجورة مظلمة .

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم : (البيت الذي يقرأ فيه القرآن يكثر خيره ، ويوسع على أهله ، ويحضره الملائكة ، ويهجره الشياطين ، وإن البيت الذي لا يقرأ فيه يضيق على أهله ، ويقل خيره ، ويهجره الملائكة ، ويحضره الشياطين ،

---

[1] شعب الإيمان للبيهقي

[2] المسند ٣٥٢٨

[3] المسند ١١٨٣١

[4] سنن أبي داود كتاب المناسك

وإن البيت الذي يقرأ فيه القرآن ويثور فيه [1]يضيء لأهل السماء [2] كما يضيء النجم الأرض)[3]

وهذا لأن أحب سماع للملائكة يصغون إليه هو سماعهم لتلاوة القرآن الكريم من بني آدم .

ولما قرأ ثابت بن قيس رضي الله عنه مرة في الليل جاء الصحابة إلى النبي صباح تلك الليلة وقالوا :أَلَمْ تَرَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ " لَمْ تَزَلْ دَارُهُ الْبَارِحَةَ تُزْهِرُ مَصَابِيحَ ؟ قَالَ : فَلَعَلَّهُ قَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ ، قَالَ : فَسُئِلَ ثَابِتٌ ، فَقَالَ : قَرَأْتُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ. " [4]

ومن جملة عبادة الأقوال الدعاء وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

(الدعاء مخ العبادة) [5]

وسنأتي على بيان ذلك إن شاء الله تعالى .

ومن أنواع العبادات عبادات الأحوال ، فمن جملة الأحوال التعبدية البكاء من خشية رب العالمين ويدخل هذا في قوله تعالى { العابدون } فمن جملة أحوال العابدين البكاء من خشية الله تعالى ما بين بكاء كثير أو قليل .

وإن لك أيها المؤمن في سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة في جميع ذلك ، فلقد كان صلى الله عليه وسلم كثير البكاء من خشية الله تعالى إذا سمع القرآن أو ذكر الله تعالى وفي غير ذلك من المناسبات ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا دخل في الصلاة سُمع من صدره الشريف صلى الله عليه وسلم أزير كأزير المرجل [6]

ومما يدل على أن البكاء من خشية الله تعالى عبادة لله تعالى ما جاء في حديث مناجاة الله لموسى عليه السلام ، قال جل وعلا : (يا موسى إنه لم يتصنع المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا) - أي لم يصنع أحد صنيعة تقرب إلي بمثل الزهد في الدنيا –

---

[1] قال في لسان العرب : قال شمر : تَثْوِيرُ القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه

[2] انظر جميع ذلك في كتاب تلاوة القرآن المجيد للشيخ الإمام رضي الله عنه

[3] مصنف عبد الرزاق الصنعاني كتاب صلاة العيدين

[4] انظر كتاب فضائل القرآن الكريم للقاسم بن سلام

[5] سنن الترمذي كتاب الدعوات

[6] سنن النسائي كتاب السهو

(ولم يتقرب إلي المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم ، ولم يتعبد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي ، قال موسى : يا رب البرية كلها ، ويا مالك يوم الدين ، ويا ذا الجلال والإكرام ، ماذا أعددت لهم ؟ وماذا جزيتهم ؟ قال : أما الزهاد في الدنيا فإني أبيحهم جنتي يتبوءون منها حيث شاءوا) - أي لما زهدوا في الدنيا أعطاهم الآخرة – (وأما الورعون عما حرمت عليهم ، فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته الحساب ونقشته إلا الورعين ، فإني أستحييهم وأجلهم وأكرمهم ، وأدخلهم الجنة بغير حساب ، وأما البكاءون من خشيتي فأولئك لهم الرفيق الأعلى لا يُشارَكون فيه) [١]

فلما تجلى رب العزة على قلب العابد فإنه يخضع ويخشع قلبه ويظهر ذلك على جوارحه فتدمع عيناه ويرتعش جسمه ، لأن الله تعالى إذا تجلى على شيء خضع له ذلك الشيء لا محالة .

ومن لم يجد في نفسه ملك الخشية التي تذرف بها عيناه فليسأل الله تعالى أن يجعل قلبه رقيقاً ليناً حتى يخشع ويبكي من خشية الله تعالى إن هو ذكر الله تعالى وتذكر عظمته وكبرياءه سبحانه .

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل البكاء من خشية الله تعالى

ففي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله) [٢] وجاء في حديث آخر : (حرمت النار على عين غضت عن محارم الله) [٣]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :

(قال لي النبي صلى الله عليه وسلم :اقرأ علي ، قلت : يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : نعم) - وفي رواية قال صلى الله عليه وسلم : إني أحب أن أسمعه من غيري - [٤] (فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية { فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً } قال : حسبك الآن ، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان) [٥]

---

[١] المعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي
[٢] سنن الترمذي كتاب فضائل الجهاد
[٣] سنن الدارمي كتاب الجهاد
[٤] صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها
[٥] صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن

ولما نزل قوله تعالى : { أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون } بكى أصحاب الصفة حتى جرت دموعهم على خدودهم[١]

وهذا شأن الصحابة رضي الله تعالى عنهم وسلف هذه الأمة كلهم

فلما وفد على الصديق رضي الله عنه أيام خلافته وفد من أهل اليمن وقرؤوا القرآن الكريم جعل يبكي ويبكون فقال لهم الصديق رضي الله عنه : (هكذا كنا)
- أي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - [٢]

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقوم الليل ويبكي وربما غلبه البكاء ومرض حتى يعوده أصحابه .

ولقد بكى عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه من خشيته من الله تعالى حتى خُط خطان في خديه ظاهران .

ولقد كان أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يبكي في الليل حتى يسمع الجيران بكاءه وتتقاطر دموعه على الحصير .

وهذا شأن محمد بن سيرين رضي الله تعالى عنه فكان يبكي في الليل حتى يشفق عليه جيرانه .

وهكذا حال العابدين لله تعالى لا تتم لهم عبادتهم إلا بالتحقق بمقام الخشية من الله تعالى ، كما بين صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله :

(ثلاث منجيات ، وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات : فتقوى الله في السر والعلانية)

- فكن أيها المؤمن على خشية من الله تعالى في المسجد وفي المتجر وفي صلاتك ووراء الميزان وفي بيتك وفي الجامع وحيثما كنت ، فراقب أن الله يراك فاتقه ، وكن على خشية منه سبحانه -

(والقول بالحق في الرضا والسخط ، والقصد) - أي التوسط – (في الغنى والفقر ، وأما المهلكات : فهوى متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه)
- فلا يقبل النصح ولا يتراجع عن الخطأ- (وهي أشدهن)[٣]

واعلم أن من رسخ في عبادة الله تعالى فقد كمل مقام التقوى لأن الله تعالى يقول : { يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }

---

[١] شعب الإيمان للبيهقي
[٢] مصنف ابن أبي شيبة
[٣] شعب الإيمان للبيهقي

أي تتحققون بتقواكم لربكم ، فإن أنتم دخلتم في مقام العبادة بصدق فإن مقام العبادة يجعلكم في مقام التقوى ، ويترتب على مقام التقوى آثار وفضائل كثيرة ذكرها سبحانه في القرآن وبينها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الشريفة ، والتقوى على مراتب ، فهناك تقوى الشرك ، والتقوى عن الكبائر ، والتقوى عن الصغائر ، والتقوى عن المباحات ، وهناك التقوى عن ما سوى الله تعالى ، وهي التقوى عن الأغيار كلها أي بعدم رؤيتها وبتركها .

وقال جل وعلا : { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته }

وجاء بيان ذلك في قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر) [١]

ومن تحقق بمقام العبادة لله تعالى فقد دخل في زمرة المتقين ونال فضل رب العالمين ، وانتظم في سلك عباد الله الخصوصيين الذين عناهم سبحانه وناداهم بقوله : (يَاعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ)

كما دخل في عباد الله تعالى الذين قال فيهم سبحانه : { إن عبادي ليس لك عليهم سلطان } فلا سبيل ولا سلطان للشيطان على عباد الله الذين أخلصوا لله تعالى ، وإن ياء النسبة والإضافة في قوله تعالى : { يَاعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} وقوله جل وعلا { إن عبادي ليس لك عليهم سلطان } هي للتشريف والتكريم لهؤلاء العباد الخصوصيين ، هذا لأن كل العباد هم عباد الله تعالى ، إلا أنه سبحانه أضاف إليه هؤلاء تشريفاً وتكريماً ، كما أضاف المسرفين على أنفسهم المذنبين أضافهم إليه جل وعلا إطماعاً لهم ليرجعوا ويتوبوا إليه ، فهم وإن أذنبوا لكنهم لم يخرجوا عن كونهم عباده سبحانه ، قال جل وعلا :

{ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }

أي ارجعوا إليه تائبين لأنه ربكم وسيغفر لكم ويرحمكم ، واعلم أن سيد العباد وإمام العباد هو السيد الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي نال مقاماً في عبوديته لله تعالى لم ينله أحد من خلق الله تعالى وهذا ما أشار إليه صلى الله عليه وسلم لما علم أمته دعاء الوسيلة بعد الأذان فقال : (ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة) [٢]

---

[١] مصنف ابن أبي شيبة كتاب الزهد

[٢] صحيح مسلم كتاب الصلاة

ولاشك أنه هو صلى الله عليه وسلم لكننا ندعو به لننال شفاعته الخاصة صلى الله عليه وسلم ، وقد أثنى عليه سبحانه وامتدحه بمقام العبدية في أشرف المراتب والمنازل ، فقال تعالى : { سبحان الذي أسرى بعبده } وقال جل وعلا : {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب } وقال سبحانه : { وأنه لما قام عبد الله يدعوه } وقال تعالى : { فأوحى إلى عبده ما أوحى } وغيرها من المقامات ، ومن هذا تعلم أن مقامه صلى الله عليه وسلم في العبودية والعبادة لله تعالى مقام فرداني .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الخامسة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

قوله تعالى : { الحامدون }

هم الذين جمعوا أنواع الحمد وتحققوا بحمد الله تعالى على السراء والضراء وفي الشدة والرخاء وبحمد الله تعالى على كل حال .

أما أسباب الحمد ودواعيه فكثيرة ، ولقد طالب الله تعالى عباده أن يحمدوه لأن الحمد هو حق واستحقاق له تعالى .

فأولاً يجب على الإنسان أن يحمد الله جل وعلا على نعمة إيجاده وخلقه له بعد أن كان في العدم ، فيحمده على نعمة الإيجاد ثم على نعمة توالي الإمداد فلم يتركه سبحانه عبثاً وهملاً بل رزقه وأمده بالعقل والسمع والبصر والقوة والمدارك والحواس الجسمية وكذلك بالنعم الآفاقية من حوله التي لابد منها لحياة جسمه وبقائه كالماء والهواء والغذاء وما يتعلق بذلك من حرارة الجسم ونور القمر والكواكب وغيرها .

كل ذلك يوجب على الإنسان العاقل أن يحمد الله تعالى على ما أعطاه وسخر له ، ولا يستغني الإنسان عن ربه ولا لحظة واحدة ، ومن زعم أنه استغنى عن الله تعالى في المال فكثر ماله وخزن من الأطعمة والأشربة ما يكفيه العمر الطويل فقل له : وما الذي يضمن لك حفظه عليك ؟ فلربما أصابه التلف والحرق !!

وربما فقدت عافيتك حتى إذا وضعت أمامك ألوان الأطعمة ما استطعت أن تتذوقها ولو أنك أكلت وشبعت فمن الذي يسيغ الطعام في بطنك ولو أبقاه لهلكت !!

ومن الذي يصرف عنك الأذى وفضلات الطعام ومن الذي جعل جسمك يستفيد من الغذاء الموجود في الطعام حتى يتقوى ويحيا به ؟!

كل ذلك يحملك على التفكر في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أعطاه الله جوامع الكلم وأنزل عليه الكتاب والحكمة فقال : (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها)[1]

وكان من محامده صلى الله عليه وسلم بعد الطعام :

(الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين)[1]

---

[1] صحيح مسلم كتاب ا لذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

ومنها : (الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجاً) [2]

ومنها : (الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا) [3]

واختصم مرة مجنون مع عاقل زعم أنه يتحكم في تصرفاته ولا حاجة له بربه فقال له المجنون : وهل تستطيع أن تتغوط دون أن تتبول ؟

فسكت العاقل الملحد .

واعلم أن سبب الحمد يرجع إلى أمرين :

إما إلى صفات كمال تحقق بها المحمود كالعلم والفطانة والذكاء والشجاعة وغيرها وإما إلى سبب النوال والعطاء والسخاء الذي تحقق به المحمود فيُمدح فلان من الناس ويُحمد على كمالات اتصف بها وإن لم يجد الحامد نوالاً أو عطاء من المحمود كما يمدح آخر لنواله وإحسانه .

وإذا كان الإنسان يمدح غيره لعلمه فإن العلم الذي لا يتناهى هو كله لله تعالى ، وإن كان يمدحه لحكمته فإن الحكمة المطلقة لله تعالى وإذا كان يمدحه لقوته فإن القوة كلها لله تعالى ..

وهكذا سائر صفات الكمال فهي لله وحده على وجه مطلق منزه عن الشبيه والنظير.

وإذا كان الإنسان يحمد ويمدح غيره على كرمه وإحسانه وعطائه فإن الكرم والجود من صفات الله تعالى ونواله على خلقه وهو لا يعد ولا يحصى ، ولولا أنه سبحانه يوفق فلاناً للعطاء والإحسان لما فعل من ذاته .

ومن هذا تعلم أن الحمد حقاً وحقيقة هو لله تعالى الذي قال : { الحمد لله رب العالمين }أي : الحمد لله حقاً واستحقاقاً ووجوباً وذاتياً لله رب العالمين .

فهو سبحانه يحمد لذاته المتصفة بالمحاسن والكمالات المطلقة .

وهذا قوله تعالى : { الحمد لله }.

ويحمد لنواله وعطائه وجوده على خلقه وهذا قوله تعالى : { رب العالمين }

فهو الذي أنعم عليهم بأن خلقهم بعد عدم ، وأمدهم وأعطاهم ورزقهم وقامت تربيته لهم على أساس رحمانيته سبحانه فقال : { الرحمن الرحيم }.

---

[1] سنن الترمذي كتاب الدعوات

[2] سنن أبي داود كتاب الأطعمة

[3] صحيح البخاري كتاب الأطعمة

فلا يكمل إيمان مؤمن حتى يتحقق بمقام الحمد لله تعالى الذي ذكره الله تعالى بقوله :{ الحامدون }

وإن أحمد الحامدين لرب العالمين هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي سماه سبحانه في القرآن باسم أحمد وهو اسم صفة فيه صلى الله عليه وسلم

وإن أمته صلى الله عليه وسلم تسمى بين الأمم [الأمة الحمادون لله تعالى] فهو صلى الله عليه وسلم أحمد من حمد الله تعالى من الأولين والآخرين ولذلك وصفه سبحانه بهذا المقام كما قال تعالى مخبراً عن سيدنا عيسى عليه السلام :

{ ومبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد } الآية

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها : (كان رسول الله إذا رأى ما يحب قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإذا رأى ما يكره قال : الحمد لله على كل حال) [١]

فكان صلى الله عليه وسلم يحمد الله تعالى على كل حال .

ومن ذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا أكل قال : (الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا) [٢]

وإذا استيقظ من نومه قال : (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور)[٣]

والموت في هذا الحديث يعني النوم .

وكان صلى الله عليه وسلم يفتتح كلامه وخطبه بالحمد لله تعالى ، ويحمد الله بصيغ من الحمد جامعة

روى الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :

(كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا تهجد من الليل قال : اللهم ربنا لك الحمد أنت قيم السموات والأرض) - أي لك الحمد حمداً يليق بقيوميتك التي لا تتناهى يارب العالمين – (ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن) - أي لك الحمد لائقاً بربوبيتك يا رب العالمين – (ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن) [٤]

---

[١] سنن ابن ماجه كتاب الأدب

[٢] صحيح البخاري كتاب الأطعمة

[٣] صحيح البخاري كتاب الدعوات و صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

[٤] صحيح البخاري كتاب التوحيد

ومن جملة مجامع الحمد التي جاءت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع قال :

(سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد) [١]

وإذا قيل : إن الحمد أمر معنوي فكيف يملأ ما بين السماوات والأرض ؟

فيقال : إن ملء كل شيء على حسبه ، فقد تقول : ملأت الإناء ماء .

لأن الماء شيء محسوس مادي ، وقد تصف فلاناً فتقول : إن فلاناً ملئ علماً .

ومرادك أن علمه واسع كبير .

و قال سيدنا عمر عن عبد الله بن مسعود : [إنه ملىء علماً] [٢]

- أي وإن كان قصير القامة .

وربما تقول : إن فلاناً قد امتلأ فرحاً لما سمع بخبر سرَّه .

وتقول : لقد امتلأ فلان غيظاً وغضباً لما خاصمه فلان ، وهكذا يكون امتلاء كل شيء على حسبه .

وهكذا ملأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمده لله تعالى ، ملأ السماوات وملأ الأرض وملأ ما بينهما بالإملاء المعنوي لهذه المحسوسات الكبيرة .

وملأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمده جميع العوالم التي هي ما رواء السموات والأرض وما سيخلقه الله تعالى إلى أبد الآبدين على وجه لا حد له ولا انتهاء .

وهذا قوله صلى الله عليه وسلم : (وملء ما شئت من شيء بعد) [٣]

فلم يترك صلى الله عليه وسلم فجوة في العوالم السابقة واللاحقة إلا وملأها بالحمد لله تعالى ، فحقاً هو أحمد الحامدين لرب العالمين في جميع العالمين صلى الله عليه وآله وصحبه أجمعين ..

وسيتجلى موقفه في حمد الله تعالى في الآخرة لما يحشر الناس في عالم الموقف وتشتد عليهم الأهوال والكربات فيتقدم صلى الله عليه وسلم ويشفع بهم شفاعته العظمى .

---

[١] سنن الترمذي كتاب الصلاة
[٢] مصنف عبد الرزاق
[٣] صحيح مسلم كتاب الصلاة

فائدة : إن من زعم أنه لا حاجة للواسطة بين العبد وربه وأنها شرك بالله تعالى أو غير ذلك فيقال له في سياق الرد القاطع :

قل كلامك هذا للأنبياء والرسل في الآخرة بل في الدنيا .

فإن الناس لما ذهبوا إلى آدم عليه السلام وقالوا له : (اشفع لنا إلى ربك)

وفي رواية للبخاري : (استغاثوا بآدم) [1]

قال لهم آدم عليه السلام : (اذهبوا إلى غيري) [2]

ولم يقل لهم : لا حاجة لكم إلى الواسطة بل أنتم توجهوا إلى الله تعالى وسلوه كشف الكربة والشدة .

ولم يقل لهم : لقد أشركتم بسؤالكم لي واستغاثتكم بي ..

ولم يزجرهم ، بل قال لهم : اذهبوا إلى غيري لأني قاصر عن التقدم إلى هذا المقام ، وانظر أحاديث الشفاعة تجد فيها ما يطمئن بها قلبك في هذا المجال .

فلقد أجمع الأنبياء والرسل على مشهد الخلائق كلهم أن مقام الشفاعة العظمى لا يتقدم إليه إلا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يقول صلى الله عليه وسلم : (فأنطلق حتى أستأذن على ربي فيؤذن لي فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله ثم يقال : ارفع رأسك وسل تعطه وقل يسمع واشفع تشفع) [3]

فلما انفض الأمر جعل أهل الموقف يحمدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمدحونه لأنه صلى الله عليه وسلم أنقذهم من أهوال وكربات الموقف إلى عالم الحساب .

وفي هذا المقام يتجلى أيضاً مقامه صلى الله عليه وسلم [محمداً] أي كثير المحمودية إذ حمده الأولون والآخرون على شفاعته بهم صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : { الحامدون } .

يعني أن الحمد من أعظم العبادات لله تعالى حتى إنه لو كشف لأحد الحجاب لسمع ذرات العالم كلها تحمد الله تعالى كما قال سبحانه :

{ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا }

---

[1] صحيح البخاري كتاب الزكاة
[2] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن
[3] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

أي : وما من شيء خلقه الله تعالى إلا يسبح بحمد الله تعالى أي : يسبح الله تعالى تسبيحاً مصحوباً بحمد الله تعالى ، فكل شيء يسبح الله تعالى ويحمد الله تعالى ، وإذا كان هذا شأن الخلائق كلها فما بال الإنسان يغفل عن تسبيح الله وحمده !! فهو أولى الخلق بتسبيح الله تعالى وحمده .

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم في فضل التسبيح والتحميد :

(الحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين السماوات والأرض) [1] أي أن قوة وأنوار ومعاني هاتين الكلمتين تملأ ما بين السماء والأرض إذا قالها المؤمن معتقداً حاضر القلب ، ولا يرى تلك الأنوار إلا من أزال الحجب عن بصيرة قلبه لأن الأنوار المحسوسة ترى ببصر العين السليمة التي لا يحجبها حاجب ، وأما أنوار المعاني العالية فيراها المؤمن ببصيرة قلبه إذا كان سليماً ، ولا يحجبه حجاب الذنب والهوى والنفس والدنيا

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن :

سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) [2]

ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

---

[1] صحيح مسلم كتاب الطهارة

[2] صحيح البخاري كتاب الإيمان والنذور

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة السادسة

قوله تعالى : { السائحون }

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

إن السياحة هي التوجه كلياً إلى أمر من الأمور ، ويقال للرجل الذي يترك المألوفات والعادات ويمشي في البراري والفيافي : سائ .

وليس المراد من قوله تعالى : { السائحون } السياحة الأرضية بل قوله تعالى : { السائحون } يشمل الصائمين أولاً ، ويشمل المجاهدين في سبيل الله تعالى ، ويشمل الراحلين الذين يرحلون في طلب العلم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

فيقال عن الصائم : سائح ، كما جاء ذلك عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم وعليه جمهور العلماء ، وذلك لأن الصائم يترك المألوفات والعادات التي كان له بها ارتباط وعلاقة من الطعام والشراب والنساء .

وكما أن للسائح بالسياحة الجسمية الأرضية توجهاً وتفكراً فيما يراه ، فكذلك فإن للصائم تفكراً وتدبراً في الأمور ، وذلك لأن بطن الصائم قد فرغت ، وإن البطنة تذهب الفطنة ، ولا يتحرك العقل للتفكر إلا إذا جاع البدن .

ومن ذلك يجد الصائم في قلبه صفاء وفي نفسه ارتقاء وفي عقله تفكراً وتدبراً ولذلك تجد أن الصائمين الكمل يشاهدون من الأنوار القدسية العالية ما يجعلهم في لذة ونعيم مع الله تعالى .

فالسائحون على الحقيقة هم الصائمون ، وسياحتهم هي إلى رب العالمين والتفكر في مخلوقاته وآلائه عز وجل .

وفي هذا المعنى يقول سبحانه : { عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا }

فقوله تعالى : { سائحات } يعني : صائمات .

وقوله تعالى : { السائحون } يشمل أيضاً المجاهدين في سبيل الله فإنهم تجردوا عن مألوفاتهم وعاداتهم وتركوا أهليهم وعيالهم وأموالهم وتوجهوا لقتال الأعداء قاصدين وجه الله تعالى .

جاء في الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال :

يا رسول الله إئذن لي في السياحة - أي أن يسيح في الأرض ما بين الفيافي والجبال والوديان - فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

(إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله عزوجل) [1]

و قوله تعالى : { السائحون } يشمل أيضاً الذين يخرجون في طلب العلم ويرتحلون في البلاد طلباً للعلم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

وقوله تعالى : { الراكعون الساجدون } وهذا من المقامات التي لابد للمؤمن السالك طريق القرب من حضرة الرب تبارك وتعالى أن يتحقق بها .

والمعنى : المسرعون بالصلوات والنوافل كأن الناظر إليهم يراهم دائماً ما بين ركوع وسجود لله تعالى وهذا يدل على كثرة نوافلهم .

وإن كل ركعة وكل سجدة يركعها أو يسجدها العبد لربه تعالى يرفعه الله بها درجة ويحط عنه خطيئة .

وفي الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (استقيموا ولن تحصوا) - أي : ولن تحصوا مراتب الاستقامة لأن الاستقامة على مراتب كثيرة - (واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة) - يعني أنها أفضل الأعمال التعبدية التي يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى – (ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) [2]- أي يبقى دائماً على طهارة حيث لا عذر عنده .

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن معدان بن أبي طلحة اليعمري قال :

لقيت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة ، أو قال : قلت : أخبرني بأحب الأعمال إلى الله فسكت ثم سألته فسكت ثم سألته الثالثة فقال : سألت عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (عليك بكثرة السجود لله فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة) [3]

ومن ارتفعت درجاته التحق بعباد الله المقربين .

---

[1] سنن لأبي داود كتاب الجهاد

[2] سنن ابن ماجه كتاب الطهارة وسننها

[3] صحيح مسلم كتاب الصلاة

وروى مسلم وغيره والرواية للطبراني عن ربيعة بن كعب الأسلمي - خادم النبي صلى الله عليه وسلم إذ كان يخدم ماء وضوئه صلى الله عليه وسلم أما أنس بن مالك رضي الله عنه فكان يخدم حجرات رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقوم بالخدمة الداخلية ، وأما عبد الله بن مسعود فكان خادماً لنعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسواكه ووساده ، ومن الصحابة من كان يخدم فرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان كل من الصحابة يتسارع إلى نيل شرف خدمته صلى الله عليه وسلم ولو بالأمر اليسير - قال ربيعة رضي الله عنه :

(كنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاري ، فإذا كان الليل أويت إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبت عنده) - أي عند باب حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم – (فلا أزال أسمعه ، يقول : سبحان الله ، سبحان ربي حتى أمل أو تغلبني عيني فأنام ، فقال ذات يوم : يا ربيعة سلني فأعطيك) - أي مكافأة منه صلى الله عليه وسلم - (قلت : أنظرني حتى أنظر) - أي أمهلني أفكر ماذا أسألك وأطلب منك - (وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة فقلت : يا رسول الله ، أسألك أن تدعو الله أن يجنبني من النار ويدخلني الجنة ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : من أمرك بهذا ؟ قلت : ما أمرني به أحد ، ولكني علمت أن الدنيا منقطعة فانية وأنت من الله بالمكان الذي أنت به أحببت أن تدعو الله ، قال : إني فاعل ، فأعني بكثرة السجود) [١]

وفي رواية الإمام مسلم : (قال ربيعة فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة ، قال : أو غير ذلك ؟ قلت : هو ذاك ، قال : فأعني على نفسك بكثرة السجود) [٢]

أي : أكثر من النوافل والسجود لله تعالى وأنا أكون شفيعك وواسطتك عند الله في مرافقتي في الجنة .

وهذا يدل على أن كثرة السجود لله تعالى تجعل في المؤمن الأهلية لنيل المقامات العالية بمرافقة النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة ، وإن مرافقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة هي من أعظم ألوان نعيم أهل الجنة .

وقد ذكر ذلك سبحانه على وجه منفرد دون أن يذكر ألوان النعيم الأخرى في الجنة فقال سبحانه : { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا } .

أي : أنه سبحانه هو العليم بمن هو أهل لنيل ذلك الفضل الإلهي اللهم اجعلنا منهم .

---

[١] المعجم الكبير للطبراني

[٢] صحيح مسلم كتاب الصلاة

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرصون كل الحرص على مرافقته صلى الله عليه وسلم في الدنيا ، ويسألون الله تعالى دائماً أن لا يحرمهم تلك المرافقة والمعية المحمدية لما وجدوا من نعيمها وذاقوا من حلاوتها ونالوا من عزها وشرفها .

فمن ذلك لما مر صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهو في المسجد يدعو ، فقال صلى الله عليه وسلم : (سل تعطه) ، وكان دعاؤه :

(اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ، ونعيما لا ينفد ، ومرافقة النبي صلى الله عليه وسلم ، في أعلى غرف الجنة ، جنة الخلد)[١]

وقد سأله سيدنا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما عن دعوته فقال :

(من دعائي الذي لا أكاد أدع) - أي لا أتركه - وذكر الدعاء المتقدم [٢]

ومن فاتته المرافقة الجسمية والروحية والقلبية لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا فلا تفوتنه المرافقة الروحية القلبية بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فهذا أويس القرني رضي الله عنه الذي هو أفضل التابعين بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال : (إن خير التابعين رجل يقال له أويس) [٣]

فلم يلتق أويس ولم يجتمع بجسمه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا لعذر شرعي وهو خدمة أمه المسنة ، ولكنه كان بقلبه وروحه مرافقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك باتباعه ومحبته له صلى الله عليه وسلم .

وهذا النجاشي ملك الحبشة أسلم ولم يتمكن من الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية فساد رعيته وقال :

[لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه] [٤]

أي : تمنى أن يكون خادماً لنعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نال بذلك مقاماً في المرافقة الروحية القلبية لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شك أن الاعتبار والكرامة هي لمن رافق رسول الله صلى الله عليه وسلم بروحه وقلبه وجسمه ، وأما من رافقه صلى الله عليه وسلم بجسمه فقط كبعض المنافقين فلم ينفعهم هذا القرب شيئاً لأن قلوبهم معرضة وأرواحهم بعيدة ، ولم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

١ المسند ٣٦٠٧

٢ المسند ٣٤٨٠

٣ صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة

٤ سنن أبي داود كتاب الجنائز

ومن أراد المرافقة فلابد له من موافقة وذلك أن يوافق ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عملاً وقولاً وحباً وتعظيماً وتوقيراً له صلى الله عليه وسلم فينال بذلك المرافقة القلبية الروحية لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيجمعه الله في برازخ الآخرة وفي الجنة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبر ، فقال : (من صاحب هذا القبر ؟ فقالوا : فلان . فقال : ركعتان أحب إلى هذا من بقية دنياكم) [١]

والمعنى : لا يعرف الإنسان فضل الركوع والسجود لله تعالى إلا بعد أن ينتقل إلى الآخرة ، وأن ركعتين يصليهما لله تعالى تنفلاً أفضل من الدنيا وما فيها .

وفي هذا إشارة منه صلى الله عليه وسلم إلى أن من أراد أن يهدي ميتاً ثواب ركعتين لله تعالى يصله ذلك الثواب ويفرح بهما .

وعن أبي فاطمة ، قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(يا أبا فاطمة ، إن أردت أن تلقاني فأكثر من السجود) [٢]

أي من صلاة النافلة ..

وهذا قوله تعالى : { الراكعون الساجدون }

أي المكثرون من صلاة النوافل وهي صفة المقربين الكمل كما وصف لنا سبحانه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى :

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ)

فشهد لهم سبحانه بكثرة العمل ..

وشهد لهم بالإخلاص لله تعالى في أعمالهم إذ ليست كثرة العمل ممدوحة مأجور عليها صاحبها إلا إذا صاحبها الإخلاص والصدق مع الله تعالى فيها ..

ولما نزلت الآيات العشر من أول سورة المؤمنون قال صلى الله عليه وسلم :

(أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ {قد أفلح المؤمنون } حتى ختم عشر آيات)[٣]

أي من تحقق بهذه المقامات وقام بحقها أدخله الله الجنة ..

---

[١] المعجم الأوسط للطبراني

[٢] المسند ١٤٩٧٨

[٣] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

قوله تعالى : { والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون }

أي : يرعون الأمانات ويرعون العهود ، وذلك لأن الإنسان ما بين أمانات وما بين عهود ، فهناك أمانات المخلوقات وأمانات الخالق جل وعلا التي ائتمن الإنسان عليها ، وهناك العهود مع الله تعالى والعهود مع خلق الله تعالى ، فيجب على الإنسان أن يرعاها حق رعايتها ليكون من أهل مقام الرعاية الذي هو من أعالي المقامات عند العارفين رضي الله عنهم .

أما أمانة الخلق عند الإنسان فمنها أمانة المال وأمانة الأعراض وأمانة الكلمات والأسرار ...الخ

وأما أمانات الله تعالى التي ائتمن الإنسان عليها فهي الحواس والمدارك من العقل والسمع والبصر واللسان والأعضاء ..

إذ إنها أمانات الله تعالى عند عبده ويجب عليه أن يتصرف بها كما أمره جل وعلا فلا يحل للإنسان أن يسمع بأذنيه إلا ما شرع الله له ، ولا ينظر ببصره إلا ما شرع الله له ، ولا يتكلم إلا ما شرع الله له ، ولا يمشي إلا ما شرع الله له ، وهكذا فلا يتصرف بأمانات الله تعالى عنده إلا بما يرضيه سبحانه الذي ائتمنه عليها ، ولذلك سوف يسأله سبحانه عن هذه الأمانات وكيف تصرف بها كما قال جل وعلا : { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا }

ومن أمانات الله تعالى عند عبده : أمانة المال ، فمن أعطاه الله مالاً فهو أمانة من الله عنده ، وكذا من أعطاه قوة وعافية في بدنه ، وسوف يسأله سبحانه عن ذلك كله ففي الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل فيه) [1]

وفي رواية : (حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علم) [2]

فلحظات العمر للإنسان هي مدارج ارتقائه وعلوه ، أو مهابطه ودنوه وتسفله ،

وقد تمر على الإنسان لحظة يتفكر بها في أمره فيبكي على نفسه ويخشع وينكسر قلبه لربه فيرتقي ويعلو مقامه عند ربه سبحانه .

---

[1] المعجم الكبير للطبراني وأصله في سنن الدارمي كتاب المقدمة

[2] سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

وقد تمر على الإنسان لحظة تتراكم عليه الوساوس الشيطانية وظلمات النفس ويندم على عباداته وطاعاته وتحدثه نفسه بفعل المنكرات وتعاطي المحرمات فينطلق إليها ويكون بذلك قد هوى أسفل سافلين ، نسأل الله العافية .

كما سيسأل الإنسان عن جسمه وقوته أين صرفها وأين أنهك جسمه وأتعبه ؟
هل أتعبه في الأعمال المشروعة المرضية عند الله تعالى أم في تعاطي المنكرات و المحرمات ؟

حتى إذا وهن جسمه ولم يستطع الاستمرار في طريق الفساد لم يجد في نفسه حيلة إلا اتباع مجالس العلم وحلق الذكر ، وما علم أن الله تعالى سيسأله عن شبابه وقوته أين قضاها .

وكذلك سؤال الإنسان عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟هل اكتسبه من طرق مشروعة أم محرمة ؟وهل أنه أنفقه في المباحات أم في المحرمات ؟ وهل أدى حق الله تعالى فيه أم بخل وأمسك ؟

وسيسأل الإنسان أيضاً عن علمه بالحلال والحرام :هل عمل به والتزم أم تجاهل وتخبط في الحرام ؟

فهذه كلها أمانات عند الإنسان ائتمنه الله عليها وسيسأله عنها

وهذا قوله تعالى :{ والذين هم لأماناتهم } أي التي ائتمنهم الله عليها

{ راعون } لأن الله تعالى سيسألهم عنها .

أما رعاية العهود فهناك العهود مع خلق الله تعالى من بيوع وشراء وصحبة ومودة ، وإن حفظ العهد من الإيمان .

وهناك العهود مع الزوجة و الوالدين والأولاد والجيران ، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم : (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، الإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته)[١]

يعني أن كل إنسان قد استرعاه الله تعالى رعية وعهد إليه عهوداً يجب عليه ان يؤدي حق هذا العهد ويقوم بواجباته ، فلقد عهد الله تعالى إلى الرجل أن يقوم بنصح وتربية أهله وأولاده في بيته كما قال سبحانه :

{ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً }.. الآية

---

[١] صحيح البخاري كتاب الجمعة

وقال جل وعلا : { وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها }.

فمن واجبات الرجل في بيته أن يأمر زوجته وأولاده بالصلاة وفعل الطاعات وينهاهم عن المنكرات ، وإذا رأى من زوجته معصية لربها بأن تقاعست عن الصلاة مثلاً فليزجرها وليهددها ، وليكن غضبه في ذلك لله تعالى لا لأمور شخصية أو شهوات نفسية كأن قصرت في إعداد الطعام أو تحضير الثياب ، ومن رعاية المرأة لبيت زوجها أن تحفظه في ماله وفي عرضه ، وأن لا تخرج إلا بإذنه ، وأن لا تدخل بيته من لا يرضى ، وأن ترعى أولادها بالقيام بشؤونهم .

ومن استرعاه والده في ماله فليرع ذلك حق الرعاية ، ولا يحل له أن يستأثر بمال أبيه لنفسه إلا إذا خصه والده بشيء من ماله .

ومن جملة رعية الإنسان أعضاؤه وجسمه ومداركه فيجب عليه أن يرعاها فيما يرضي الله تبارك وتعالى .

قوله تعالى : { أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

وجاء في الحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (في الجنة مائة درجة) - أي منزلة - (ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض)

وفي رواية : (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ لَوْ أَنَّ الْعَالَمِينَ اجْتَمَعُوا فِي إِحْدَاهُنَّ لَوَسِعَتْهُمْ) [1]

(والفردوس أعلاها درجة) أي : أن الفردوس هو أعلى منازل الجنة وأوسطها

(ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ، ومن فوقها يكون العرش) أي : من فوق الفردوس

(فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس) [2]

---

[1] سنن الترمذي كتاب صفة الجنة

[2] سنن الترمذي كتاب صفة الجنة

واعلم أنه ليس فوق منزلة الفردوس منزلة إلا منزلة الوسيلة وهي خاصة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال :

(إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة) [١]

وإن جميع أهل الجنة يستمدون الخيرات والأنوار من مقام صاحب الوسيلة صلى الله عليه وسلم .

ومما جاء عنه صلى الله عليه وسلم في الحث على التوبة والإسراع إليها قوله :

(إن من قبل المغرب لباباً مسيرة عرضه سبعون أو أربعون عاماً فتحه الله عز وجل للتوبة يوم خلق السماوات والأرض ، ولا يغلقه حتى تطلع الشمس منه) [٢] أي : من المغرب ، أي : أنه مهما كانت ذنوب العبد كثيرة فإن باب التوبة يسعها فليبادر العبد إلى التوبة قبل فوات الأوان .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (من قبل المغرب) ليس المراد منه مغرب الشمس المعروف بجهته في الدنيا إذ إن المغارب والمشارق كثيرة سيأتي الكلام عليها في موضعه إن شاء الله تعالى ، ويتحتم على المؤمن أن يبادر إلى التوبة ويسرع إليها ، وأن لا يترك للذنوب مجالاً لأن تفسد عليه إيمانه وتعكر صفاءه ، فإن للذنوب خطراً على القلب كما هو شأن الميكروبات إذا استحكمت في الجسم فإنها تفسده وربما أهلكته إن أهمل الإنسان علاجها .

وفي هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه :

(اعبد الله كأنك تراه واعدد نفسك من الموتى ، واذكر الله عند كل حجر وشجر ، وإذا عملت السيئة فاعمل بجنبها حسنة) [٣]

وفي رواية : (وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة ، السر بالسر ، والعلانية بالعلانية) [٤]

---

[١] صحيح مسلم كتاب الصلاة
[٢] المسند ١٧٤٠١
[٣] مصنف ابن أبي شيبة
[٤] المعجم الكبير للطبراني

وإن كل مؤمن معرض للوقوع في الذنوب أو الغفلات أو التقصير في الطاعات ولكن الإيمان في قلبه يذكره دوماً بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى ، وأن لا يصر على الذنب .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (مثل المؤمن كمثل الفرس على آخيته يجول ثم يرجع إلى آخيته ، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الإيمان) [1]

يعني : كالفرس إذا وضعت له حلقة في الأرض وربط بها فتراه يجول ويسرح ساعة بطول الحبل ثم يرجع إلى موضع الحلقة وهي الآخية وهكذا شأنه ..

وهذا ما يجب أن يكون عليه حال المؤمن إن هو سها وغفل ووقع في الذنب ثم يرجع ويتوب إلى الله تعالى بباعث الإيمان في قلبه .

ولقد فتح الله تعالى باب التوبة لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رحمة بهم وإكراماً لرسولهم صلى الله عليه وسلم .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

(قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً) - أي سلسلة جبال الصفا حتى يؤمنوا به ويتبعوه ، وإن سؤالهم لذلك ما هو إلا حباً في الدنيا وأموالها - (ونؤمن بك قال : وتفعلون ؟ قالوا : نعم قال : فدعا فاتاه جبريل فقال : إن ربك عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبا فمن كفر) - أي بعد هذا - (بعد ذلك منهم عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة) - يعني قد يؤمن أحدهم بعد مدة ويتوب إلى الله تعالى فيقبله الله ويرحمه - (قال : بل باب التوبة والرحمة)[2]

وقد أخبر سبحانه أنه يحب التوابين فقال تعالى :

{ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ }

والتواب هو الذي لازم التوبة وأقام فيها فتراه دوماً تواباً إلى الله تعالى مما هو فيه من هفوات وغفلات وتقصيرات ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

(التائب من الذنب كمن لا ذنب له) [3]

---

[1] المسند ١٠٩٠٧

[2] المسند ٢٠٥٨

[3] سنن ابن ماجه كتاب الزهد

** أثر التكاليف الشرعية في النفس :

إن للأوامر الشرعية آثاراً نورانية حسنة في نفس المؤمن القائم بها ، كما أن للمعاصي آثاراً سيئة ظلمانية في نفس مرتكبها .

ومن أهم الأوامر الشرعية : الصلاة .

ولقد بين سبحانه أثر الصلاة على نفس المصلي وبيَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأثير الصلاة على نفس المصلي وذلك في عالم الدنيا وعالم القبر والحشر وعلى الصراط ، وأثرها حين يرى المؤمن المصلي حين يرى ربه ، وأثرها حين يدخل جنة الله تعالى .

قال تعالى : { اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ }

وكأنه قيل : وما الفائدة من إقامة الصلاة ؟ فجاء بيان ذلك بقوله تعالى :

{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ }

ومعنى التلاوة في اللغة : المتابعة ، وإلى هذا أشار قوله جل وعلا :

{ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا }

أي : تبعها فقوله جل وعلا : { اتل ما أوحي إليك من الكتاب }

- أي : اتبع فهناك اتباع اللسان لحروف القرآن ويسمى : قراءة ، ويكون اللسان قد تابع النصوص الحرفية للقرآن الكريم ..

وهناك تلاوة فعلية عملية وهي أن يعمل الإنسان بما دله عليه القرآن من عقائد قلبية وأعمال جارحية جسمية وأقوال وأخلاق وآداب ، وهذا معنى قوله جل وعلا :

{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ }

أي : يأخذون ما أوصى به عقيدة وعملاً وقولاً وخلقاً وأدباً ، وأما تلاوة القرآن باللسان ومخالفته بالأركان فهي تلاوة المنافقين ، ورب تال للقرآن ، والقرآن يلعنه.

قوله تعالى : { اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ }

وقد أفرد الصلاة بالذكر لأنها أهم أوامر القرآن وأعظمها ..

ثم بين سبحانه أثر الصلاة في نفس المصلي فقال جل وعلا :

{ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ }

أي إن الصلاة تخلي صاحبها عن الرذائل العملية والمنكرات القولية كالغيبة والنميمة والشتم وسيىء الألفاظ ، وهي أيضاً تحلي صاحبها بالفضائل على حسب حضور قلبه في صلاته ..

وإن لم يحضر بقلبه في صلاته ولا للحظة فيقال : إن صلاته منعته من الفحشاء والمنكر أثناء أدائه لها وهذا أضعف الدرجات ..

وأما من صلى حاضراً قلبه خاشعاً فإن صلاته تكسبه نوراً تختلف قوته على حسب خشوع المصلي ، وعلى قدر هذا النور تندفع الظلمات ، وهذا النور يحفظ المصلي عن ارتكاب الفحشاء وقول المنكر فترة من الزمن تختلف على حسب قوة النور ..

وقد تحفظه صلاته من الوقت الذي أداها فيه إلى وقت الصلاة الذي بعدها وهكذا .

وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : (والصلاة نور) [١] لأن المصلي يتوجه في صلاته إلى الله رب العالمين الذي هو نور السموات والأرض ، ومن توجه إلى نور الله تعالى نوَّره الله وأمده بالنور ..

قوله تعالى : { ولذكر الله أكبر }

إن في الصلاة ذكراً لله تعالى كما قال سبحانه : { وأقم الصلاة لذكري }

أي لِذِكرك لي وذِكري لك لأنه سبحانه يذكر من يذكره كما في الحديث القدسي : (أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم) [٢]

وإن ذكر الله تعالى لعبده أكبر من ذكر العبد لربه وهذا معنى قوله تعالى :

{ ولذكر الله أكبر }

أي : أعظم وأشرف وأفضل من ذكر العبد لربه في صلاته ..

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

(فإذا قال العبد { الحمد لله رب العالمين } قال الله تعالى : حمدني عبدي) [٣]

وفي رواية البيهقي:

(فإذا قال العبد { بسم الله الرحمن الرحيم } يقول الله : ذكرني عبدي) الحديث [٤]

فالمصلي يذكر الله سبحانه وهو سبحانه يذكره ، والمصلي يناجي ربه ، وهو سبحانه يناجيه وهكذا

---

[١] صحيح مسلم كتاب الطهارة

[٢] صحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

[٣] صحيح مسلم كتاب الصلاة

[٤] السنن الكبرى للبيهقي

ومن أسرار الصلاة أنها تكسب العبد رضوان الله تعالى وتبعده عن غضبه وسخطه وما أحوج العبد إلى رضوان الله تعالى ..

وفي الحديث : (من ترك الصلاة لقي الله تعالى وهو عليه غضبان) [١]

وهو أول لقاء للعبد مع ربه بعد الموت ..

وأما من كان محافظاً على صلاته لقي الله تعالى وهو عنه راض ، فيسلو عن أحزانه وكرباته ووحشته وغربته بعد مفارقته لأهله وانتقاله من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ ..

ومن أثر الصلاة في القبر أنها تحافظ على صاحبها لما ينتقل إلى قبره لأنه حافظ عليها في الدنيا .

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الميت إذا وضع في قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه ، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه ، وكان الصيام عن يمينه ، وكانت الزكاة عن شماله ، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه ، فيؤتى من قبل رأسه ، فتقول الصلاة : ما قِبلي مدخل) - أي تمنعه عن الأهوال والشدائد- (ثم يؤتى عن يمينه ، فيقول الصيام : ما قبلي مدخل)[٢] ... الحديث

يعني أن أعمال العبد الصالحة تحافظ عليه وتحفه وتدافع عنه في قبره .

ولما يقف العالَم في مواقف الآخرة يأمرهم سبحانه أن يسجدوا له جل وعلا كما أخبر عن ذلك بقوله تعالى :

{ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ }

وهم الكفار الذين لم يسجدوا لله تعالى في الدنيا .

و في الحديث عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (يكشف ربنا عن ساقه) - أي : عن هول وشدة أي يتجلى سبحانه على عباده تجلي الجلال والمهابة فيخضعون ويخافون ،

---

[١] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (لما قام بصري) - أي ذهب بصري - (قيل نداويك وتدع) - أي تترك - (الصلاة أياماً ، قال: لا) - أي لا أترك الصلاة أبداً - (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((من ترك الصلاة لقي الله وهو عليه غضبان)) . رواه البزار والطبراني وإسناده حسن كما في الترغيب.

[٢] صحيح ابن حبان كتاب الجنائز ومستدرك الحاكم

كما تقول العرب : كشفت الحرب عن ساقها أي : عن شدتها و هولها – (فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً)[1] فإذا كان المنافق الذي صلى في الدنيا رياء وسمعة لم يستطع السجود في الآخرة فما بالك بالذي لم يصل ؟!

وإن الصلاة تكيف المؤمن وتهيئه وتعده لأن يكون من رفقاء سيدنا رسول الله في الآخرة .

روى الإمام مسلم والطبراني وغيرهما برواية مطولة عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال :

(كنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاري)- أي بأن يقدم له ماء الوضوء – (فإذا كان الليل أويت إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبت عنده ، فلا أزال أسمعه يقول : سبحان الله سبحان ربي ، حتى أمل أو تغلبني عيني فأنام ، فقال ذات يوم : يا ربيعة سلني فأعطيك) - وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم كان لا يضيع إحسان أي إنسان قدم له عملاً مبروراً ، بل يقابله بما هو أعظم وأحسن – (قلت : أنظرني حتى أنظر)- أي أمهلني أفكر ماذا أسأل - (وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة فقلت : يا رسول الله أسألك أن تدعو الله أن يجنبني النار ويدخلني الجنة ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : من أمرك بهذا ؟ قلت : ما أمرني به أحد ، ولكني علمت أن الدنيا منقطعة فانية وأنت من الله بالمكان الذي أنت به أحببت أن تدعو الله قال : " إني فاعل ، فأعني بكثرة السجود[2]

وفي رواية الإمام مسلم : (قال صلى الله عليه وسلم: أو غير ذلك ؟ قلت : هو ذاك قال : فأعني على نفسك بكثرة السجود)[3]

أي : أنه صلى الله عليه وسلم طلب من ربيعة أن يهيئ نفسه لهذا الأمر العظيم بكثرة صلاة النوافل لله تعالى حتى يشفع به رسول الله ويكون من رفقائه صلى الله عليه وسلم

ومما جاء عنه صلى الله عليه وسلم في أمر الصلاة :

(خمس صلوات كتبهن الله تبارك وتعالى على العباد ، من أتى بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله تبارك وتعالى عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له)[4]

---

[1] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن
[2] المعجم الكبير للطبراني
[3] صحيح مسلم كتاب الصلاة
[4] المسند ٢١٦٣٥ وسنن أبي داود كتاب الصلاة

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة : يا عبد الله هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، فقال أبو بكر رضي الله عنه :

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة ، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها) ؟ - أي : هل هناك حرج على الإنسان أن يدخل من أبواب الجنة كلها إذا كان من أهل الصيام والزكاة و و و.... ؟

(قال : نعم وأرجو أن تكون منهم)[١]

وهذا الدخول يكون في آن واحد وهو غير مستغرب لأن نشأة أهل الجنة نشأة تختلف عن نشأتهم في الدنيا فيكون لأحدهم وجود متعدد مع أنه واحد بذاته ألا ترى أنك إذا وقفت أمام عدة مرايا ظهر لك فيها وجود على عدد المرايا مع أنك واحد ..

وفي حديث الشفاعة : (يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب)[٢]

أي : أولئك الذين لا حساب عليهم يدخلون من الباب الأيمن للجنة ويدخلون أيضاً من أبواب الجنة الأخرى في آن واحد ، فلهم مظاهر وجودية على حسب ما يقتضيه الحال ..

---

[١] صحيح البخاري كتاب الصوم وصحيح مسلم كتاب الزكاة
[٢] صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن وصحيح مسلم كتاب الإيمان

** لباس العرض على رب العالمين جل وعلا :

قال سبحانه وتعالى :

{ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا }

إن التكاليف الشرعية بما فيها من عبادات لله تعالى واجتناب لما نهى عنه ، هذه الأعمال كلها تكون في الآخرة لباس المؤمن لمّا يعرض على رب العالمين جل وعلا .

قوله تعالى :{ وعرضوا على ربك صفاً } - أي صفاً صفاً ..

{ لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة } - أي : لا مال معكم ولا عيال ولا شيء من متاع الدنيا ، فقد خلق الله تعالى الإنسان وأخرجه من بطن أمه إلى الدنيا حافياً عارياً ولا شيء معه حتى كساه أهله وقاموا على تربيته ، وكذلك يبعث أحدهم في الآخرة ولا شيء معه بل يترك كل شيء من متاع الدنيا لورثته إن كان له ورثة ويدخل عالم البرزخ يصحبه عمله فقط .

قال تعالى :

{ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ } أي : وتركتم ما مكنكم الله منه في الدنيا وأنعم عليكم به من مال وعيال وجاه ومتاع ، تركتم كل ذلك ..

قوله تعالى :{ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً }

خطاب للكفار والمنكرين للآخرة ، إذ كانوا في الدنيا ينكرون الحشر والبعث ولقاء الله تعالى وموعدهم مع الله تعالى ، فلما عرضت الخلائق على الله تعالى صفوفاً متناسبة ، كل إنسان مع زمرته فلابد لأحد من لباس و زي للعرض على الله تعالى وما هذا اللباس إلا تقوى الله عز وجل ، فمن كان في الدنيا من أهل التقوى عرض على ربه بلباس التقوى ، ومن لم يكن على تقوى لله تعالى في الدنيا بقي عارياً مفضوحاً يوم القيامة ..

وفي هذا يقول سبحانه: { يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ }

أي : يستر عوراتكم ..

{ وريشاً } - أي : أثاثاً لبيوتكم

{ ولباس التقوى ذلك خير } أي : فلا يكن الهم الأكبر للإنسان لباس الدنيا ومتاعها بل عليه أيضاً أن يتعاطى أسباب اللباس في الآخرة ، وأن يعد عدته لذلك ، وذلك بتقوى الله تعالى

وهذا قوله تعالى :{ ولباس التقوى ذلك خير }

أي : هو خير من لباس الدنيا لان لباس الدنيا سيتركه الإنسان في الدنيا ، وأما لباس التقوى فبه سيعرض الإنسان على ربه جل وعلا .

وإذا كان الإنسان في الدنيا لا يظهر أمام غيره من ذي جاه أو منزلة إلا بالألبسة الفاخرة والزي الحسن ويزِّين لذلك ، فجدير بالإنسان وأولى به أن يعد لباسه الذي سيعرض به على رب العالمين جل وعلا ، وأن يبذل جهده في ذلك بتقوى الله تعالى في الدنيا .

أما التقوى فهي امتثال أوامر الله تعالى واجتناب ما نهى عنه سبحانه ، فالصلاة التي يصليها الإنسان في الدنيا تلبسه نوراً يوم القيامة ، وزكاته تكون له وقاية ، وصيامه يكون له ضياء ، وهكذا سائر أعماله تكون له لباساً يوم القيامة ، فكما لبس التقوى عملاً وتحققاً في الدنيا يلبسها في الآخرة نوراً وجمالاً وكمالاً وبهاء .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

(رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة) [1]

وفي رواية : (كم من كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة) [2]

أي رب نفس كاسية في الدنيا باللباس النظيف لكنها خالية من تقوى الله تعالى فتأتي يوم القيامة هذه النفس وهي عارية من كل شيء وتقع في الفضيحة والخذلان .. نسأل الله العافية ..

وإن عرض الخلائق على رب العالمين جل وعلا يكون في قومة الحساب ففي الحديث عن معاذ رضي الله تعالى عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم:

(إن الله تعالى ينادي يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع : يا عبادي أنا الله لا إله إلا أنا ، أرحم الراحمين ، أحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين ، يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، وأحضروا حجتكم ، ويسروا جواباً ، فإنكم مسؤلون محاسبون ، يا ملائكتي أقيموا صفوفاً على أطراف أقدامهم للحساب) [3]

وهذا معنى قوله تعالى :{ وعرضوا على ربك صفاً } أي : صفاً صفاً .

وقال جل وعلا : { يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ }

---

[1] صحيح البخاري كتاب الأدب

[2] موطأ مالك كتاب الجامع

[3] عزاه في كنز العمال للديلمي

أي : تعرضون على الله جل وعلا وقد ظهرت فيكم جميع أعمالكم ، وحتى تلك التي كانت خافية عن الناس في الدنيا فإنها ستظهر علانية يوم العرض على الله تعالى ..

ولكي يتقي الإنسان هول ذلك الموقف العظيم عليه أن يتحقق بتقوى الظاهر والباطن ، تقوى القلب والقالب ، ومن تقوى القلب أن يخلص الإنسان في أعماله ويتجنب الحقد والحسد والكبر والضغينة وغيرها من داءات القلب .

ومن تقوى القلوب أيضاً تعظيم شعائر الله تعالى

قال سبحانه : { ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ }

وشعائر الشيء في اللغة هي : معالمه ، أي : ما يعلم به الشيء ، وشعائر الله تعالى هي معالم دينه جل وعلا ، ومِن أعظم شعائر الله تعالى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجب تعظيمه وتوقيره والأدب معه والصلاة عليه إذا ذكر صلى الله عليه وسلم ، وكذلك تعظيم العلماء والصالحين واحترامهم ، فمن استهان بهم فقد استهان بشعائر الله تعالى ، ومن استهان بشعائر الله تعالى أهانه الله وعاداه

وقال سيدنا عمر رضي الله عنه في خطبته :

[حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، فإنه أهون لحسابكم ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتزينوا للعرض الأكبر يوم تعرضون لا تخفى منكم خافية] [١]

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال :

(يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله) [٢]

أي : في العرضة الأولى يجري الجدال والخصام بين الظالم والمظلوم والباغي والمبغي عليه وهكذا ، وكل منهم يأتي بحجته

وفي هذا يقول جل وعلا :

{ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ }

- أي تأخذ وفاء حقها كاملاً إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشرّ -

[١] عزاه في كنز العمال لمصنف ابن أبي شيبة والزهد للإمام أحمد والحلية لأبي نعيم وأصله في سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

[٢] سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع وسنن ابن ماجه كتاب الزهد

وفي هذه العرضة التي يشتد فيها الجدال والخصام يحلف الكافر كاذباً لعله ينجو كما أخبر سبحانه فقال

{ وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين * انظر كيف كذبوا على أنفسهم }

أما في العرضة الثانية والثالثة فيلتزمون الصدق لأنهم علموا أن الكذب لا ينفعهم .

قال تعالى : { ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ }

ولما نزلت هذه الآية قال الزبيررضي الله عنه :

(يا رسول الله أتكرر علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟

قال : نعم ، فقال : إن الأمر إذاً لشديد) [1]

وتكرر الخصومة بين المتخاصمين أمام رب العالمين حتى يحكم الله تعالى بينهما

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أول خصمين يوم القيامة جاران) [2] ويحكم أحكم الحاكمين .

ومما تقدم يعلم الإنسان أنه لا تقوى له من تلك الأهوال والشدائد يوم القيامة إلا بتقوى الله تعالى في الدنيا بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى ، فكل عمل يعمله الإنسان في الدنيا يظهر عليه أثره في الآخرة ، قال تعالى :

{ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً * ثم ننجي الذين اتقوا } الآيات

وفي الحديث أن النار تقول للمؤمن الماشي على الصراط الذي فوق ظهرها :

(جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي) [3]

ومن التقوى أن يقوم الإنسان بالحقوق والواجبات التي عليه

جاء في الحديث عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال :

(آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة [4] فقال لها : ما شأنك ؟ ، قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا) - أي أنه زهد في الدنيا ولا يلتفت إلى زوجة أو متاع وهو مشغول بالعبادة -

(فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال : كل ، قال إني صائم) - أي : نفلاً -

---

[1] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن
[2] المسند ١٦٧٣٢
[3] عزاه في كنز العمال للطبراني وأبي نعيم في الحلية
[4] وهذا قبل نزول آية الحجاب

(قال : ما أنا بآكل حتى تأكل ، قال : فأكل ، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال : نم ، فنام ثم ذهب يقوم فقال : نم فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصليا ، فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً فأعط كل ذي حق حقه) - أي لا تشغل نفسك بحق وتغفل عن الحقوق الأخرى- (فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدق سلمان) [١] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم قالوا - أي الصحابة - :

(يا رسول الله ، قد علمنا حق الوالد على الولد ، فما حق الولد على الوالد ؟

قال : أن يحسن اسمه ، ويحسن أدبه) [٢]

أي تربيته على الأخلاق الفاضلة والآداب العالية

ومن حق المرأة على زوجها أن يحسن عشرتها ويؤدي واجبه لها من كسوة وطعام ، وأن لا يؤذيها بكلام أو فعل وهكذا ، يتحتم ذلك خاصة على من كان عنده زوجتان فإن العدل معهما أمر واجب ، ومن أخل بذلك جاء يوم القيامة وكتفه مائل ، ويعرفه أهل الموقف أنه كان في الدنيا لا يعدل بين زوجتيه .

روى أبو داود في سننه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ) ومن حق الرجل على زوجته ما جاء في الحديث عن تميم الداري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(حق الزوج على الزوجة أن لا تهجر فراشه ، وأن تبر قسمه ، وأن تطيع أمره) - أي طالما أن أمره مباح - (وأن لا تخرج إلا بإذنه) - وإن المرأة التي تخرج من بيتها دون إذن زوجها تلعنها ملائكة الله حتى تعود أي تتوب من فعلتها كما دلت على ذلك أحاديث وردت عنه صلى الله عليه وسلم- [٣]

(وأن لا تدخل عليه من يكره) [٤]

قول سلمان لأبي الدرداء رضي الله عنهما : (إن لربك عليك حقاً)

---

[١] صحيح البخاري كتاب الصوم

[٢] شعب الإيمان للبيهقي

[٣] روى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن المرأة إذا خرجت من بيتها وزوجها كاره لعنها كل ملك في السماء وكل شيئ مرت عليه غير الجن والإنس حتى ترجع)).

[٤] المعجم الكبير للطبراني

وحق الله على عبده أن يعبده ولا يشرك بعبادته أحداً

روى الشيخان وأحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ركب يوماً على حمار له يقال له يعفور ، رسنه من ليف ، ثم قال ك (اركب يا معاذ) - أي اركب خلفي - (فقلت : سر يا رسول الله ، فقال : اركب ، فردفته فأخلف يده فضرب ظهري بسوط معه أو عصا) - أي وذلك حتى يلفت انتباهه وفكره إلى رسول الله -

وفي رواية : فقال : (يا معاذ بن جبل ، قلت : لبيك رسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ثم قال : يا معاذ ، قلت : لبيك رسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ثم قال : يا معاذ قلت : لبيك رسول الله وسعديك) - أي وبذلك صار معاذ متوجهاً بروحه وقلبه وعقله إلى سيدنا رسول الله - (قال : هل تدري ما حق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حق الله على عباده أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئا ، ثم سار ساعة ، ثم قال : يا معاذ بن جبل ، قلت : لبيك رسول الله وسعديك ، فقال : هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حق العباد على الله أن لا يعذبهم)[1]

وفي رواية : (فإن حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن يدخلهم الجنة) [2]

فإن لله تعالى على عباده حقاً إذا قاموا به أكرمهم الله وتفضل عليهم بأن حق على نفسه فضلاً منه وكرماً أن لا يعذبهم ويدخلهم الجنة .

وأما حق الله على عباده فهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وهو حق شرعي فطري معقول نبه إليه سبحانه بقوله :

{ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }

يعني أنه سبحانه هو الرب الذي خلقكم وخلق من قبلكم ، ورزقكم وأمدكم وسخر لكم ما ترونه من حولكم بما فيه مصلحة بقائكم وحياتكم ، قال تعالى :

{ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } فأقرب آية للإنسان تدله على الله تعالى هي الإنسان نفسه ، فلينظر في نفسه أولاً ثم إلى ما حوله من العوالم والآفاق الكونية ، ومن زعم أنه قد وُجد وخُلق من نفسه دون خالق وأن الأمر كله طبيعة فقل له : انظر إلى هذا الجامع الذي نحن فيه إنه بني من تلقاء نفسه وقد انتصبت أعمدته من ذاتها وقامت الأحجار من ذاتها وترتبت على الشكل الذي تراه

فتراه ينكر عليك ذلك ويتهمك بنقصان العقل وربما بالجنون ..

---

[1] صحيح البخاري كتاب اللباس وصحيح مسلم كتاب الإيمان

[2] المسند ٢١٠٣٠

فقل له : إذا كنت لا تصدق أن هذا البناء قد قام من تلقاء نفسه وأنه لا باني له وما هنالك ، فكيف تصدق وتزعم أن هذا العالم الكبير بسماواته وأرضه وما فيها قد قامت بذاتها دون موجد وخالق ؟!

وإلى هذا الأمر البديهي الذي تسلم به العقول السليمة أشار سبحانه فقال :

{ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ }

وقال تعالى : { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }

فلابد للمخلوق من خالق ، وللمصنوع من صانع ، وللموجود من موجد ، فمن الذي أوجد الإنسان ونقله من العدم إلى الوجود ؟؟ لأن العدم من ذاته لا يعطي وجوداً ..

نعم هذا هو الله رب العالمين واجب الوجود الذي خلق الإنسان بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً .

فلما قال سبحانه : { اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم }

يعني أن عبادته سبحانه أمر واجب عليكم بمقتضى أنكم عباده جل وعلا ، وقد خلقكم وأمدَّكم ، وله كل الفضل والحق عليكم ، وعبادتكم له سبحانه هي شرف لكم وتكريم لكم ، وبها تتقربون إليه فتنالون عزه وكرامته ..

وروى الترمذي عن الحارث الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها وإنه) - أي سيدنا يحيى عليه السلام –

(كاد أن يبطئ بها فقال عيسى : إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم ، فقال يحيى : أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب ، فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ المسجد وتعدوا على الشُّرف فقال : إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن ، أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال : هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدِّ إلي فكان) - أي العبد- (يعمل ويؤدي إلى غير سيده فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت) الحديث [١]

---

[١] سنن الترمذي كتاب الأمثال وقال عنه الترمذي حديث حسن صحيح غريب

فهو سبحانه السيد بالسيادة المطلقة فهو المالك وهو الملك ، فهو المالك للإنسان رقبة .. وهو الملك أي المتصرف فيه ، والإنسان يعيش تحت سمائه وفوق أرضه ويأكل من رزقه فهل من اللائق من الإنسان أن لا يعبد الله سبحانه أو يعبد غيره ؟؟! فإن ذلك خلاف الحكمة ..

إذاً حقاً على الإنسان أن يعبد الله تعالى وأن يعبده وحده جل وعلا ..

وإذا قام العبد إلى الصلاة لله تعالى فعليه أن لا يلتفت إلى غيره بقلبه أو عنقه فإن الله تعالى يتجلى ويقبل على عبده ما دام العبد مقبلاً على ربه في صلاته ..

وكذلك أثر الزكاة في العبد فلا يفك رقبته من أسر عذاب الله تعالى إلا بها

وقل لغني المال : إن الزكاة حق الفقراء عندك ، وهل لك منة على من أديت له حقه ؟!!

قال تعالى : {وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم }

و قال تعالى : { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ }

فما بالك أيها الغني ترى لنفسك فضلاً ومنة على من تتصدق عليه ؟!!وكأنك الذي رزقت نفسك !!إن الله تعالى هو رزقك واستخلفك على ما أعطاك من مال فقم بحق الله عليك وفك أسرك من عذاب الله وسخطه .

قال تعالى : { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ }

ولذلك فإن ذكر الله تعالى يحفظ الذاكر من عدوه الشيطان فلا تضره وساوسه ومكائده ، قال تعالى : { إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً } أي : لا تتخذوه صديقاً ناصحاً ، فهو عدو ينبغي معاداته وذلك بالإكثار من ذكر الله تعالى حتى يبتعد الشيطان عن الذاكر ويخسأ ، ويكون الذاكر لله تعالى بحفظ الله تعالى وضمانه سبحانه .. وفي هذا يقول سبحانه :

{ ومن يعش عن ذكر الرحمن } - أي : يفتر ويضعف عن ذكر الرحمن

{ نقيض } : أي نسلط

{ له شيطاناً فهو له قرين } - أي ملازم له بالتزيين والإغواء وإذا كان هذا حال من ضعف عن ذكر الله تعالى أو قصر في ذكر الله تعالى فكيف حال من أعرض عن ذكر الله كلياً نعوذ بالله من ذلك ..

اللهم اجعلنا من الذاكرين الله تعالى والذاكرات ، ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرات حول منازل أهل المعاملات مع الله تعالى

المحاضرة الأولى :

حول موقفه صلى الله عليه وسلم في تزكية العالم

قال الله تعالى : { ويزكيكم }

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فلقد أرسل الله رسوله إلى العالم وله معهم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا والآخرة .

ومن جملة هذه المواقف : موقفه صلى الله عليه وسلم في تزكية النفوس أي تطهيرها من دنس الشهوات ورجس الضلالات حتى تترقى في مقامات الكمالات

وإن أول ما تتطلبه تزكية النفس أن تتحقق النفس بمقام المجاهدة ، ثم هناك مقام المحاسبة ، ثم هناك مقام التوبة الذي تقدم بيانه وهو مقام ينزل فيه الإنسان التائب إلى الله تعالى ويحل فيه لا يتركه إلى غيره بل هو مقام يقيم فيه بحيث يصير هذا الإنسان تائباً إلى الله على الدوام منيباً إليه في جميع أموره وأحواله وعلى وجه دائم

أما بواعث التوبة ودواعيها فإن للذنوب آثاراً ظلمانية ترتسم في لوحة النفس وفي صحيفة الإنسان التي تسطرها عليه الكرام الكاتبين وفي الأرض التي عصى الله عليها وشاهدَته ، كما يرتسم أثر هذا الذنب في جميع من شاهد مرتكبه من حجر وشجر ومدر بحيث يأتي يوم القيامة ويشهد على صاحبه بما شاهد وعلم لأن الشهادة لا تكون إلا عن علم .

قال تعالى : { وما شهدنا إلا بما علمنا } الآية

وإن أول ما يتطلبه مقام التزكية اليقظة من الغفلة وهو أن يستيقظ الإنسان من غفلاته وشهواته وهذا قوله سبحانه :

{ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا }

وفرادى :أي أفراد وجماعات ، وأقل الجماعة اثنين ، والمعنى أن ينتبه الفرد ويتفكر بنفسه وأن يذكر غيره وهذه القومة لله تعالى هي نهوض الفكر والقيام من غفلة النفس وشهواتها ثم التفكر في حكمة الخلق

قال تعالى { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } الآية .

ولابد للنائم من موقظ يوقظه وقد أرسل الله تعالى النبي منادياً ينادي للإيمان وموقظاً لهم من غفلاتهم وانغماسهم في شهواتهم

ولهذا قال أهل الإيمان وهم أهل العقل الصحيح والفكر السليم قالوا كما أخبر سبحانه عنهم :

{ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا }

وإذا استيقظ الإنسان من غفلاته وانتبه من رقدته راح يتفكر في الحكمة من خلقه وما يجب عليه تجاه خالقه ، فينصرف إلى محاسبة نفسه ويحل في مقام المحاسبة ثم يسعى إلى النزول في مقام التوبة النصوح إلى الله تعالى .

وإن التوبة النصوح تبدل الإنسان بإنسان آخر وتؤهله للترقي في مقامات الكمال وهي مقامات الإيمان ويصير من أهل المعاملات مع الله تعالى .

وأول هذه المقامات مقام الرعاية ثم مقام المراقبة ثم القرب ثم الإخلاص ثم الاستقامة ثم التوكل ثم التسليم ثم التفويض ، هذه المقامات تنطوي في مقام تزكية النفس الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى :

{ ويزكيكم }فيجب على الإنسان أن يكون موقفه من هذا المقام موقف المتزكي بتزكية رسول الله حتى يقال له : { وذلك جزاء من تزكى } { قد أفلح من زكاها }

وإن جميع هذه المقامات التي ذكرها أهل الله رضي الله تعالى عنهم وفصلوها إنما هي مأخوذة من الكتاب والسنة كما سيتضح ذلك مفصلاً .

ولكي يمحو الإنسان أثر هذه الذنوب الظلمانية لابد له من التوبة إلى الله والرجوع إليه فإن التوبة تبدل الآثار الظلمانية للذنوب بآثار نورانية بتوبة العبد وإنابته على الله تعالى كما قال تعالى :

{ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا }

وإذا نزل العبد في مقام التوبة وتحقق فيه فإنه سيتطلع إلى مقام الرعاية وهو مقام يلي مقام التوبة في منازل أهل المعاملات مع الله تعالى ..

** حول منزلة الرعاية :

الرعاية هي حفظ حقوق وعهود رب العالمين و حفظ حقوق وعهود خلق الله الذين نصب الله لهم حقوقاً ، هذا لأن لله حقوقاً على عباده ، وللعباد حقوق على بعضهم فهناك حق الولد على أبيه وحق الوالد على ولده وهناك حق الجار وغير ذلك وإن أعظم من جاء ببيان الحقوق هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما حق الله على عباده فقد بينه صلى الله عليه وسلم عندما قال لمعاذ رضي الله عنه (هل تدري ما حق الله على عباده ؟ ثم قال له : حق الله على عباده أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً)[1]

وعبادة الله لا تكون إلا كما بينها رسول الله من صلاة وزكاة وصيام ونيات وهمم وغيرها من العبادات التي شرعها رسول الله الذي هو أعبد العابدين لرب العالمين وكل هذه العبادات إنما هي حقوق رب العالمين على عباده فيجب أن يرعوها حق رعايتها ولا يخونوا فيها الله تعالى .

قال تعالى : { لا تخونوا الله وتخونوا أماناتكم } .

ولقد نبه سبحانه عباده المؤمنين من هذه الأمة بأن لا ينقضوا رعاية عهد الله تعالى ، وذكر لهم على وجه الذم من خان رعاية حق الله وعهده عليه فقال جل وعلا : (وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا }

قوله سبحانه : { مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ } : أي ما شرعناها لهم ، والكتابة هنا هي الكتابة الشرعية وليس الكتابة القضائية .

{ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ } جملة معترضة والمعنى : ولكن شرعنا لهم عبادة وطاعة ابتغاء مرضاة الله .

{ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا } : أي أنهم خانوا رعاية تلك الرهبانية التي ابتدعوها فكيف بالعبادات والطاعات التي أمرناهم بها وشرعناها لهم؟!

ويقال عن العابد أنه راهب كما جاء في الحديث عن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعبد أهل الأرض فدل على راهب [2] .... الحديث

---

[1] صحيح البخاري كتاب اللباس وصحيح مسلم كتاب الإيمان

[2] صحيح مسلم كتاب التوبة

فقد ذكر سبحانه لعباد هذه الأمة مِن مساوئ مَن قبلهم أنهم ابتدعوا من تلقاء نفسهم نوعاً من العبادة ترهباً وتخشعاً وأخذوا بالشدة والرهبة حتى يتقربوا إلى الله تعالى - على زعمهم - فالتزموا أمراً دون أن يلزموا به ،ومع هذا ما رعوه حق رعايته فكيف إذا ألزمهم به سبحانه ولم يرعوه ؟؟!

وقال بعضهم : كتبها وألزمها عليهم ولكن لأجل ابتغاء رضوان الله ومع ذلك ما رعوها حق رعايتها ، وهذا تنبيه لهذه الأمة أن ترعى حقوق الله تعالى وعبادة الله تعالى حق العبادة ولا يخونوا في ذلك ربهم جل وعلا ..

** كيف يرعى العبد عبادة الله وحق الله عليه ؟؟

أولاً : أن يرعى ذلك بالنية ثم يرعى ذلك بالعمل - أي أن يتحرك للعبادة مخلصاً مع الله تعالى وأن يكون العمل خالصاً لوجه الله تعالى والتزام الأوامر في أوقاتها كما أمر الله سبحانه وقد قال الله تعالى في أوفياء العهد ورعاة الحقوق معه ومع خلقه الذين حفظوها حق حفظها : { هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ }

أي حفظ حقوق الله وعهوده وحقوق خلقه عليه .

ولقد ذم سبحانه وتعالى من نقض العهد ولم يرع حقوق الله تعالى .فقال سبحانه :

{ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ }

وهذا لما ذكر سبحانه الأمم السابقة - وأكثرهم كفار - نبه هذه الأمة كي تتجنب ما وقعت فيه الأمم السابقة فقال جل وعلا :{ وما وجدنا لأكثرهم } - أي أكثر الأمم الماضية لقد كفروا وفسقوا ولم يحفظوا حقوق الله - { من عهد} - أي من رعاية عهد وحفظ حق مع الله تعالى - { وإن وجدنا } - أي وإنه وجدنا - {أكثرهم لفاسقين } الآية

وقال صلى الله عليه وسلم في مقام الرعاية ومقام حفظ عهود وحقوق الله تعالى قال لابن عباس رضي الله عنهما :

(يا غلام) وفي رواية : (يا غليم)[١] - تصغير للتلطف والمحبة لا للتقصير - وقال له : (يا غلام) بأداة النداء مع أنه قريب منه حتى يلفت انتباهه بالتنبيه - (إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك) - أي أمامك بنوره وتأييده وتسديده –

---

[١] المسند ٢٦٦٦

(إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف) [1]

وفي رواية : (واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً وأن النصر مع الصبر وأن الفرَج مع الكرب وأن مع العسر يسراً) [2]

فقوله : (احفظ الله) هو المراد في قوله تعالى : { لكل أواب حفيظ }

أي حَفِظَ الله تعالى ، وحفظ الله تعالى هو على مراتب :

أولاً : أن لا تترك ذكره بالغفلة عنه ، ثم هناك حفظ حقوق الله عليك ورعايتها والقيام بها .

وقوله (يحفظك) : أي على نسبة ما تحفظه يحفظك ونظير هذا قوله تعالى : { فاذكروني أذكركم }والذكر أمر والحفظ أمر آخر فمن حفظ الله يحفظه في دينه ودنياه ، ويحفظه بما يريد من الحفظ عليه .

وكان من جملة دعائه عليه الصلاة والسلام حين يصبح ويمسي واستحفاظه ربه لنفسه وأهله وماله وعياله ما ورد في المسند :

(اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي) [3]

أي بزلزال أو خسف أو بمكر من عدو .

وفي هذا يستحفظ رسول الله ربه ويطلب منه الحفظ من كل الوجوه والاعتبارات كما أن من يحفظ حق الله عليه يحفظ الله دينه وإيمانه ويصير في ضمان الله وأمانه

وقد علم رسول الله سيدنا عمر رضي الله عنه دعاء فقال له :

(قل : اللهم احفظني بالإسلام قاعداً ، واحفظني بالإسلام قائماً ، واحفظني بالإسلام راقداً ، ولا تطع فيَّ عدواً حاسداً ، وأعوذ بك من شر ما أنت آخذ بناصيته ، وأسألك من الخير الذي هو بيدك كله) [4]

---

[1] سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع
[2] المسند ٢٦٦٦
[3] المسند ٤٥٥٤
[4] صحيح ابن حبان والدعاء للطبراني

أي احفظني بالاسلام في جميع حركاتي وسكناتي وفي جميع حالاتي بأن تكون حالاتي حالات المسلمين .

ولما ذكر الله تعالى حقائق الإيمان وفيها مراتب كمالات الإيمان ذكر منها هذا المقام فقال تعالى في وصف المؤمنين الكمل :

{ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون }..

وقد ذكر الله تعالى هذا الوصف أيضاً في سورة المعارج :

{ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ }

فالرعاية هي القيام الكامل بما يتعلق بالأمانات والعهود ، فما هي الأمانات وما هي العهود ؟ سوف تأتي فيما بعد إن شاء الله تعالى

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

(كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحي سمع عند وجهه كدوي النحل ، فأنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة ، فسري عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارضنا وارض عنا ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ { قد أفلح المؤمنون } حتى ختم عشر آيات)[1]

فدعا رسول الله للصحابة بالزيادة والترقي في مقامات كمال الإيمان فقال :

(اللهم زدنا) أي ترقياً في مقامات الإيمان

(ولا تنقصنا وأكرمنا) بما أكرمت به أحبابك

(ولا تهنا وأعطنا) أي من عطائك الخاص

(ولا تحرمنا ، وآثرنا) بمراتب الكمال

وإن أعظم من نال مقامات الكمال على وجه اختصاصي هو سيدنا محمد إلا أنه علم الصحابة هذا الدعاء ليدعوا به ويعلموه للأمة

---

[1] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن والمسند ٢١٨

قال الله تعالى :{ قد أفلح المؤمنون }

وجاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه قال : (خلق الله جنة عدن بيده ، وخلق فيها ثمارها ، وشق فيها أنهارها ، ثم نظر إليها فقال : تكلمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون ، فقال : وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل)[١]

أي حتى يتطهر من بخله .

ومعنى { أفلح } :فاز ونجح ونال البغية والغاية والنهاية ، فوصف المؤمنين بالفلاح لأنهم نالوا البغية والغاية في سعادة الدنيا والآخرة ، فالمؤمنون هم المفلحون الذين حصلوا على كل شيء ، ومن فاته الإيمان فقد خسر كل شيء في الدنيا والآخرة كما قال تعالى :{ خسر الدنيا والآخرة }

فالأخسرون حقاً هم الكافرون

قوله تعالى { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ }

أي خاشعون بقلوبهم متضرعون بجوارحهم وإن أعظم ما يبعث على الخشوع في الصلاة أن يحضر العبد قلبه في صلاته ، وأعظم ما يحمله على ذلك أن يلاحظ معنى ما يقول ويلاحظ سر ما يفعل من ركوع وسجود لله تعالى .

{ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ }

وهذا مما يعينهم على الحضور والخشوع في الصلاة وهو الإعراض عن فضول الكلام الذي لا فائدة منه وليس المراد من اللغو هنا الكلام الحرام من غيبة ونحوها

لأنه سبحانه إنما يبين في هذا أوصاف ومراتب أهل كمال الإيمان مادحاً لهم ومثنياً عليهم فمن باب أولى أنهم لا يلغون بالكلام الحرام فهم لا يتكلمون إلا بما فيه مصلحة الدنيا والآخرة .

وقد ورد أن سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام كان يقول :

(لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم) - وهو اللغو –

(فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب)- أي معصومون من الذنب - (وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد فإنما الناس مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية)[٢]

[١] المعجم الأوسط للطبراني
[٢] موطأ مالك كتاب الجامع

ومن هذا يُعلم أن البلاء الحقيقي هو الوقوع في الذنب فمن رأى مسلماً عاصياً فليدع له بالتوبة ولا يتكبر عليه أو ينظر بنفسه أنه خير منه وليحمد الله بأن عافاه من ذلك .

{ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ } أي يفعلون ما أمرهم الله به لتزكية نفوسهم حتى يطهروها مما فيها ، ومن جملة ذلك زكاة المال فيدفعونها حتى تطهر نفوسهم من الشح والبخل

{ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ }

- أي طلب صرف الشهوة في غير هذا المصرف المباح -

{ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ }أي المجاوزون حدود الله تعالى ، وهذا يدل على أن صرف شهوة الإنسان في هذه المواضع فقط وهي الزوجة وملك اليمين حين كان ذلك وأما غير ذلك فحرام ، ويدل أيضاً على أن صرف الإنسان شهوته في كفه عبثاً سواء كان استمناء أو لعباً فحرام لا يجوز ويدخل تحت قوله جل وعلا :

{ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ }كما قاله جمهور السلف

و عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(سبعة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا يجمعهم مع العالمين ، يدخلهم النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا ، إلا أن يتوبوا ، إلا أن يتوبوا ، فمن تاب تاب الله عليه - وعد منهم - : الناكح يده ، والفاعل والمفعول به - أي الذي يعمل عمل قوم لوط والذي يُعمل به - والمدمن بالخمر ، والضارب أبويه حتى يستغيثا)[١]

وعن عطاء رحمه الله قال :

[سمعت قوماً يحشرون وأيديهم حبالى وأظن أنهم الذين يستمنون بأيديهم] [٢]

قوله تعالى : { وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ } والأمانات كثيرة متنوعة ولله تعالى عند الإنسان أمانات كثيرة ائتمنه عليها ،وهناك الأمانات التي يستودعها الناس بعضهم عند بعض ، أما الأمانات التي لله عند الإنسان فهناك أمانات التكوين وهناك أمانات التكليف ، أما أمانات التكوين فهي القلب الذي أعطاه الله للإنسان والعقل الذي ائتمنه عليه والسمع والبصر والمدارك والحواس الظاهرة والباطنة

---

[١] شعب الإيمان للبيهقي

[٢] انظر تفسير الألوسي والبغوي لهذه الآية الكريمة

فيجب على الإنسان أن يتصرف بها كما أمره المؤتمن الذي ائتمنه عليها وهو رب العالمين وسوف يسأل الله تعالى الإنسان عن تلك الأمانات ماذا عمل بها وستشهد عليه تلك الأمانات بما عمل بها وفي هذا قال الله تعالى : { ولا تقف ما ليس لك به علم } - أي لا تتبع من الأمور إلا ما ثبت عندك بدليل قاطع من آية أو حديث أو إجماع أهل السنة والجماعة أما من اتبع الظنون والشكوك والأهواء وشغل نفسه بها فليعلم {إن السمع و البصر والفؤاد كل أولئك } - أي كل هذه المدارك - {كان عنه مسؤولاً }

أي سوف تسأل عن صاحبها ماذا عمل بها وكيف تصرف بها وهي ستشهد عليه بذلك وفي هذا يقول سبحانه وتعالى :

{ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا } - أي جاؤوا جهنم -

{ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

فمن خان أمانة الله تعالى فإنها ستشهد عليه يوم القيامة ، قال تعالى :

{ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ }

يعني أن الله تعالى يعلم وسيُشهد عليكم أعضاءكم ومدارككم فاعرفوا كيف تتصرفون فيها ، ثم هناك الأمانات المنفكة عن الإنسان وهي ما خولها الله تعالى له وأعطاه من زوجة وولد ومال وغيره .

أما الزوجة فقد قال صلى الله عليه وسلم في خطبته يوم حجة الوداع :

(فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله)[١]

- أي بشريعة الله -

وفي رواية : (ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم) - أي أسيرات

وفي رواية : (ألا إن لكم على نسائكم حقاً ولنسائكم عليكم حقاً فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون)
- أي لا يدخلن بيوتكم من لا تريدون وإن كان من قرابة الزوجة إلا والدها وأمها وليس المراد أن لا يدخلن بيوتكم من لا تريدون من الأجانب فإن ذلك حرام سواء رضيتم أم لا ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وليس على الزوجة أن تطيع زوجها فيما حرم الله كالاختلاط مع الأجانب عنها والجلوس معهم-

---
[١] صحيح مسلم كتاب الحج

(ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن)[١]

- وما هناك من معاشرتهن -

قال صلى الله عليه وسلم :

(ولا يعصينكم في معروف) - أي في أمر معروف شرعا *

ومن الأمانات أيضاً الأولاد فعلى الإنسان أن يرعاهم حق الرعاية

ومن هنا يقول عليه الصلاة والسلام :

(كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، الإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته

- قال الراوي : وحسبت أن قد قال : - والرجل راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته)[٢]

ومن حق الأولاد على أبيهم أن يعلمهم دينهم ، وليست رعايتهم بالأكل والشرب فقط ، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام :

(أدبوا أولادكم على ثلاث خصال : حب نبيكم وحب أهل بيته وقراءة القرآن فإن حملة القرآن في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه)[٣]

وقال تعالى : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }

أي وأنتم تعلمون أن الأمانة مسؤول عنها صاحبها كالسمع والبصر والعقل وغير ذلك من الأمانات التي ائتمن الله عليها عباده

وأما الأمانات التكليفية فهي التزام شريعة الله وهي الأمانة الكبرى الجامعة لكل الأمانات وهذا قوله تعالى : { إنا عرضنا الأمانة ...}الآية

ومعنى الأمانة في الآية : التكاليف الشرعية بما فيها من عقائد وأعمال وأقوال فالتزم الإنسان حمل هذه الأمانة لما عرضت عليه

---

١ سنن الترمذي كتاب الرضاع

٢ صحيح البخاري كتاب الجمعة

٣ عزاه في كنز العمال لأبو نصر عبد الكريم الشيرازي في فوائده وللديلمي في مسند الفردوس وابن النجار عن سيدنا علي

وقال بعضهم : التزمها دون أن تعرض عليه ، بل هو تقدم لحملها لأنه رأى في نفسه الكفاءة والقابلية والاستعداد لحملها ، ولكن القليل منهم الذين أدوا حقوق هذه الأمانة وقاموا بها

قال تعالى : { وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين } الآية

فالإنسان الذي قام بأداء هذه الأمانة هو الإنسان المؤمن ، والإنسان الذي خان هذه الأمانة وأهملها هو الإنسان الكافر ، قال تعالى : { إنه كان ظلوماً جهولاً } الآية

وفي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (ما خطبنا نبي الله صلى الله عليه وسلم إلا قال : لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له) [١]

فمن وفى أمانة الله الكبرى فهو لغيرها أوفى ، ومن خانها فهو لغيرها أخون .

ولهذا قال الله تعالى في الآية بعدها : { لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ } - أي لأنهم خانوا الأمانة -

{ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } - أي لأنهم قاموا بحق الأمانة -

{وكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا }

وحملها الإنسان إما بعد العرض عليه أو أنه تقدم لحملها و التزمها دون أن تعرض عليه ، وإن الإنسان العاقل هو الذي ينظر في الأمور ويتبصر فيها فلقد نظر هذا الإنسان في نفسه ورأى أنه إذا لم يحمل هذه الأمانة فإنه سيبقى على ظلمه وجهله ، فأراد أن ينهض بهمته ويرتقي في المقام والدرجة حتى يذهب عنه جهله وظلمه ، فحمل الأمانة حتى يكمل نفسه ثم يرتقي في مقامات الكمال بالقيام بحقوق هذه الأمانة حتى يكون مقامه في أعلى عليين بجوار رب العالمين في جنة الله التي فوق السماء السابعة ، فكان التزام هذا الإنسان بحمل الأمانة تكميلاً لنقصه وترقية لمقامه .

ولقد أبت السماوات والأرض والجبال حمل هذه الأمانة لأنها عرضت عليها عرضاً وتخييراً لا أمراً فلم تر في نفسها القابلية والاستعداد لحملها ، أما الإنسان فقد التزم حملها باختياره فألزمه الله حملها وأعده وأعانه على ذلك ، ومن استعان بالله أعانه الله ، ومن ركن إلى نفسه وكله الله إليها ، ولذلك أمر الله المسلم أن يقول { إياك نعبد وإياك نستعين } أي نستعين بك على عبادتك - وهي أمانة الله الكبرى - فأعنا على ذلك ، فالمؤمن استعان بالله على حمل الأمانة فأعانه الله تعالى ، والكافر لجأ إلى نفسه فخذله الله وأهلكه .

---

[١] المسند ١١٩٣٥

واعلم أن عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال عرض حقيقي لا خيالي أو مجازي ، وفي هذا ورد عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية: { إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ } قال: عرضها على السبع الطباق الطرائق التي زينت بالنجوم، وحملة العرش العظيم، فقيل لها: هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: قيل لها: إن أحسنت جُزِيت، وإن أسأت عوقبت ، قالت: لا ، ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد، التي شدت بالأوتاد، وذللت بالمهاد، قال : فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت : وما فيها؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت ، قالت: لا ، ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصعاب الصلاب ، قال : قيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت، وإن أسأت عوقبت ، قالت: لا) [١]

وهذا يدل على أن لكل من السماوات والأرض والجبال إدراكاً خاصاً لائقاً بها لا كإدراك الإنسان ولو لم يكن ذلك لما خاطبها بالعرض ولما أبت وخافت .

ومن جملة إدراكات الأرض أنها تحشر يوم القيامة ، قال تعالى :

{ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات }.

وتشهد بما عمل على ظهرها ، والشهادة لا تكون إلا عن مشاهدة وعلم فهي تشهد بما شاهدت وعلمت فلها علم ومشاهدة ، وإن جميع الأشياء تعرف ربها ، وما كان الشيء شيئاً إلا بقول الله له { كن } فكان ، فأول ما وعى هذه الشيء معرفة الله تعالى ، وليست معرفة الحجر كمعرفة البشر .

كما أن جميع الأشياء تعرف أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لأن معارف الإيمان سارية في جميع الأكوان ولهذا سمع الصحابة تسبيح الحصيات في كف رسول الله [٢]، و المعجزة أنهم سمعوا بذلك لأن الأشياء دوماً تسبح الله تعالى .

وجاء في الحديث أن الجبال تسأل بعضها كل يوم وجيرانها فيقول الجبل لجاره : هل مر عليك اليوم رجل ذكر الله تعالى - وذلك حتى تشهد له يوم القيامة -

---

[١] انظر تفسير ابن كثير لقوله تعالى { إنا عرضنا الأمانة } ...الآية

[٢] انظره في مسند البزار والمعجم الأوسط للطبراني عن أبي ذر رضي الله عنه وفيه : (فتناول النبي صلى الله عليه وسلم سبع حصيات أو تسع حصيات فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم وضعن في يد أبي بكر فسبحن في يده حتى سمع لهن حنينا كحنين النحل فوضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعن في يد عمر فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل ، ثم وضعن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعن في يد عثمان فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينا كحنين النحل ، ثم وضعن فخرسن)

قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور :

أخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان من طريق عون عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (إن الجبل لينادي الجبل باسمه يا فلان ، هل مر بك اليوم أحد ذكر الله؟ فإذا قال : نعم ، استبشر)

ومن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه :

(يا معاذ اذكر الله عند كل شجر وحجر) [١]

أي حتى يشهد لك يوم القيامة لأن هذا العالم هو كما قال الله تعالى عنه :

{ كل إلينا راجعون }

أي يحشرون في أرض الموقف ، وإن في الآية :{ إنا عرضنا } بياناً لخطورة وعظمة التكاليف الشرعية وهي الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال حملها ، كما أن فيها منزلة الإنسان من الأكوان وأنه أعظم استعداداً وقابلية من السماوات والأرض والجبال ، ثم إن فيها بيان أن الإنسان الذي حمل هذه الأمانة واستعان بالله تعالى أن مقامه يفوق السماوات السبع ، ولهذا كان مقام الجنة فوق السماء السابعة عند سدرة المنتهى ، فالمؤمن نال مقاماً تقاصرت عنه السماوات والأرض لأنه حمل الأمانة التي عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال

كما أن في ذلك نهضاً لهمة الإنسان المقصر الذي حمل الأمانة فليحملها وليستعن برب العالمين حتى يذهب عنه الجهل والظلم ويترقى في مقامات الكمال .

ثم بين سبحانه مراتب الناس في حمل الأمانة فمنهم من خان الأمانة ومنهم من تظاهر بحملها ومنهم من حملها بصدق فقال جل وعلا : { لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا }

أما رعاية العهود فالعهود هي الأمور الرابطة بين العبد وربه أو أمور رابطة بين العبد وبين خلق الله تعالى وإن للعهود أسباباً فهناك العهود بالمعاهدات والالتزامات القولية وهناك عهود حالية .

---

[١] الزهد الكبير للبيهقي

أما العهود القولية كمن تعهد ببيع سلعة ما أو شرائها فلا يصح له أن يبيعها لغيره بعدما التزم ببيعها لآخر ما لم يكن بينهما خيار وهكذا ، وهناك عهود مرتبطة بين البشر لا عن أقوال بل عن معاملة وأحوال كعهد الصداقة وعهد المجالس وعهد القرابة وعهد الجيرة وعهد الإحسان والمودة وجميع هذه العهود تتطلب من الإنسان حقوقاً .

أما عهد القرابة فهو كصلة الأرحام والتودد إليهم وأما عهد المجالس فمن جلس مجلساً مع أناس فلهم عليه حقوق أن لا يؤذيهم بكلام أو خشونة أو تدخين إذا كان هناك من يتأذى بذلك .

وقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى الجليس فقال :{والصاحب بالجنب }.

وأما عهد المودة والإحسان فيوجب على من أحسنت إليه ألا يتنكر هذا وأن يقابله بالجميل والمعروف ، وأما عهد الجيرة فيوجب على الجار ألا يؤذي جاره بنوع من الأذى وهكذا

وقد بين رسول الله أن الصداقة والمودة عهد يجب الحفاظ على حقوقه وأن حسن العهد من الإيمان

جاء في الحديث عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت :

(جاءت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها : كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟ ، قالت : بخير ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، قالت : فلما خرجت قلت : يا رسول الله ، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟ فقال : يا عائشة إنها كانت تأتينا زمان خديجة) - أي عندما كان صلى الله عليه وسلم في مكة قبل الهجرة – (وإن حسن العهد من الإيمان) [١]

فأكرمها سيدنا رسول الله ورحب بها حفظاً للعهد السابق معها وحفظاً لمودتها وصداقتها مع زوجته خديجة رضي الله عنها .

وجاء في سنن أبي داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً فأقبل أبوه من الرضاعة ، فوضع له بعض ثوبه ، فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه من الرضاعة فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر ، فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة ، فقام له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجلسه بين يديه[٢]

---

[١] مستدرك الحاكم وشعب الإيمان للبيهقي
[٢] سنن أبي داود كتاب الأدب

ولم يقصد صلى الله عليه وسلم بإكرامه لهم وحفظه عهدهم امتناناً وتفضلاً عليهم بل بين أن ذلك من الإيمان فقال : (وإن حسن العهد من الإيمان) وليس من الامتنان .

ومن جملة العهود التي تجب على الإنسان أن يرعاها حقوق أهل العلم فإن للعلماء العاملين حقوقاً يجب على الأمة أن ترعاها حق رعايتها ، وهو حفظ مقامهم ومراتبهم وتكريمهم واحترامهم لأنهم حملة دين الله تعالى .

وقد نبه إلى ذلك سيدنا رسول الله بقوله :

(ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه) [١]

وعليه فيجب تعظيم صحابة رسول الله الذين فتحوا البلاد ونشروا دين الله فيها وكذلك تعظيم التابعين وأئمة السلف بالترضي عليهم وذكرهم بالثناء والمدح والعمل بوصاياهم .

ولقد ذكر الله تعالى أهل العلم بثناء وشرف ، وقرَنَ ذكرهم بالملائكة وقرن شهادتهم مع شهادة الملائكة مقرونة بشهادة رب العالمين فقال جل وعلا :

{ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

وهناك عهد الأخوة في الإسلام التي عقدها الله تعالى بينهم ، قال تعالى :
{ إنما المؤمنون إخوة }

ومن جملة ما يترتب على هذا العهد أن يسلم المسلم على أخيه المسلم إذا مر به ويجب على الآخر أن يرد السلام ، وإن إفشاء السلام بين المسلمين يقوي عرى الإخاء والمودة بينهم .

وإن أول عهد عهد الله به إلى خلقه والتزموه يوم أخذ عليهم العهد في عالم الذر أن قال لهم :

{ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى } - أي أنت ربنا

فأقروا لله تعالى بالربوبية واعترفوا لأنفسهم بالعبودية ، وشأن العبد أن يعبد ربه ويمتثل أمره باتباع الشرائع التي أنزلها الله على رسله عليهم السلام

وقد جاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدد هذا العهد عن رب العالمين كما قال جل وعلا : { إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله }

---

[١] المسند ٢١٦٩٣

وإن من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقد عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على متابعته والعمل بما جاء به ، قال تعالى :

{ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله }

ولقد نبه النبي عليه الصلاة والسلام إلى رعاية هذا العهد مع الله ثم مع رسوله عليه الصلاة والسلام فقال صلى الله عليه وسلم :

(سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء لك بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، قال : ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة) [١]

أي إذا قال ذلك مخلصاً تائباً إلى الله من جميع ذنوبه ثم بعد ذلك مات فقد ختم أمره بالتوبة ، والله يقبل التوبة للعبد مالم يغرغر ، فقوله :

(اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت) اعتراف العبد بالعهد الأول الوارد في قوله سبحانه : { ألست بربكم قالوا بلى }

(وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت)

أي أنا أسعى كل السعي وأبذل كل الجهد في وفاء هذا العهد وأداء حقوقه .

ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

---

[١] صحيح البخاري كتاب الدعوات

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الثانية

حول الإخلاص : مراتبه - فضائله

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

إن الإخلاص هو المنزلة الثانية من منازل أهل المعاملات مع الله تعالى وهم الذين أهلوا أنفسهم لمعاملة رب العالمين بالعبادة و القربات الخاصة وذلك بأن تحققوا بمنازل أهل البدايات الذين يريدون السلوك إلى الله تعالى .

ومنازل أهل البدايات إنما هي اليقظة والمحاسبة بأن يحاسب العبد نفسه على فرطاتها وتقصيرها مما يحمله على التوبة حتى إذا صح له المقام في منزلة التوبة صار أهلاً أن يعامل الله تعالى بالمعاملة الخاصة ويلتحق بأهل المعاملات الذين تطهروا من المعاصي والذنوب ، وأقبلوا يعاملون الله تعالى معاملة قلبية قائمة على حب لله تعالى والتقرب إليه سبحانه .

وأول منازل أهل المعاملات مع الله تعالى هي الرعاية وتقدم الكلام عليها مفصلاً ثم الإخلاص ثم الاستقامة ثم الحياء ثم الشكر

أما الإخلاص فاعلم أنه لابد للسالك إلى الله تعالى والعابد له أن يتحقق بمرتبة الإخلاص لرب العالمين سبحانه ، وإن الإنسان يحتاج إلى الإخلاص قبل أن يدخل في العمل وبعدما يدخل في العمل وبعدما ينتهي من العمل .

أما الإخلاص قبل العمل فهو أن يقصد الإنسان في تحركه للعمل وجه الله سبحانه وان يبتغي من عمله رضوان الله تعالى .

وأما الإخلاص حين العمل فهو أن لايرى الإنسان لنفسه فضلاً على الله تعالى وأن لا يرى لنفسه منة على الله تعالى ، بل لله تعالى الفضل والمنة عليه بأن وفقه للعمل

وأما الإخلاص بعد العمل فهو أن يسلم أنه مهما عمل فإنه مقصر مع الله تعالى

وإليك تفصيل ذلك مؤيداً بأدلة بالكتاب والسنة .

فالإخلاص قبل العمل هو تصفية النية من الالتفات إلى غير الله تعالى من أمور الدنيا كجاهها وسلطانها ويشمل أيضاً تصفية النية من الرياء والسمعة بأن يقصد العبد من عمله أن يراه الناس ويسمعوا به وفي هذا يقول سبحانه وتعالى :

{ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ }

{ أَلَا } : أداة تنبيه على أمر مهم منبه إليه وهو { لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ }

أي لا عبرة للدين الذي تدين به وللعمل الذي تعمله أيها الإنسان لا عبرة له عند الله تعالى إلا إذا كان خالصاً له سبحانه .

كما بين سبحانه أنه لا يقبل من الأعمال والعبادات إلا ما كان منها خالصاً لوجهه الكريم فقال جل وعلا :{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا }

والمراد بالشرك في الآية الرياء ، أي ولا يرائي في عبادته مع الله تعالى ، وذلك لأن الرياء نوع من الشرك كما سيتضح بعد قليل .

ويقول سبحانه : { وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى }

{ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ } أي بالإخلاص له سبحانه - { وَهُوَ مُحْسِنٌ } - أي في عمله بأن يكون العمل مشروعاً موافقاً لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لأنه قد يخلص الإنسان في عمله لكن عمله غير مشروع فربما يستحسن أموراً لم يشرعها الله ورسوله زاعماً أنه يتقرب بها إلى الله تعالى ، فعمله هذا باطل وإن زعم الإخلاص فيه ، قال جل وعلا :

{ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا }

ولم يقل سبحانه زينة لهم ، بل زينة لها ، فما على الأرض من معادن وزخارف وخيرات إنما هي زينة لها لا لك أيها الإنسان وإنما تستفيد منها كما شرع الله لك .

{ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } أي لنختبرهم أيهم أخلص وأصوب عملاً فمنهم من يعمل العمل يبتغي الدنيا وزينتها ، ومنهم من يعمل العمل يبتغي وجه الله تعالى ولهذا قال الفضيل بن عياض رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: { لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } قال : يعني أيهم أخلص عملاً وأصوب عملاً *

فإخلاص العمل إخلاص مع الله تعالى ، وصواب العمل بأن يكون متابعاً لرسول الله ، ومن حقق الصواب والإخلاص في العمل فقد استمسك بالعروة الوثقى

وقد أمر النبي بالإخلاص في العمل قبل التحرك إليه وذلك لما قال معاذ بن جبل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن : يا رسول الله ، أوصني قال : (أخلص دينك يكفيك القليل من العمل) [١]

أي قليل من العمل مع الإخلاص خير من كثير لا إخلاص فيه

وقد بين عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وذلك بقوله :

---

[١] شعب الإيمان للبيهقي

(يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله عز وجل ، فإن الله عز وجل لا يقبل إلا ما أخلص له ، ولا تقولوا هذا لله وللرحم ، فإنها للرحم ، فليس لله عز وجل منها شيء ، ولا تقولوا هذه لله ولوجوهكم ، فإنها لوجوهكم ليس لله منها شيء)[1]

أي لا تقصدوا من أعمالكم مراءاة فلان وفلان من الناس .

وإن نسبة الإخلاص إلى العمل كنسبة الروح إلى الجسد فالعمل الذي لا إخلاص فيه كالجسم الذي لا روح فيه .

[1] شعب الإيمان للبيهقي

** الأسباب التي تحمل الإنسان على الإخلاص في عمله

أولاً : أن يعلم الإنسان أن العمل إذا لم يخلص فيه بل فعله مرائياً فإن هذا يحبط العمل .

روى الإمام الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال :

(حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم ، وكل أمة جاثية ، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل يقتتل في سبيل الله ورجل كثير المال) - أي وهؤلاء في الظاهر عملوا صالحاً - (فيقول الله للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي ؟ قال : بلى يا رب ، قال : فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال : إن فلانا قارئ ، فقد قيل ذاك) - أي لقد أخذت ثواب عملك من الناس الذين عملت من اجلهم فليس لك ثواب عند الله تعالى - (ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له : ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى يا رب ، قال : فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدق ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله تعالى : بل أردت أن يقال : فلان جواد ، فقد قيل ذاك ، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله له : في ماذا قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله تعالى له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جريء فقد قيل ذاك) - أي لقد أخذت ثواب عملك من الناس الذين عملت من أجلهم فما لك ثواب عند الله تعالى – (ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال : يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة) [1]

وفي الحديث أن سيدنا عمر بن الخطاب خرج يوماً إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد معاذ بن جبل رضي الله عنه قاعداً عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يبكي ، فقال ما يبكيك ؟ قال : يبكيني شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إن يسير الرياء شرك) - أي أن اليسير من الرياء في العمل شرك يحبط ثواب العمل – (وإن من عادى لله ولياً فقد بارز الله بالمحاربة ، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإن حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة)[2]

---

[1] سنن الترمذي كتاب الزهد

[2] سنن ابن ماجه كتاب الفتن

أي إنهم مخلصون لله تعالى ويُخفون أعمالهم عن الناس فقلوبهم مصابيح الهدى - أي بالإخلاص - ولا تضرهم الفتن التي تمر على أهل زمنهم بل يخرجون من كل غبراء مظلمة - وهي الفتن - ..

ثانياً : إن مما يحمل الإنسان على الإخلاص في عمله أن يعلم أن الله تعالى مطلع على قلبه فليستح من الله تعالى أن يرائي غيره

ولهذا قال جل وعلا: { قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

أي أنه قدير على حشركم وحشر أعمالكم التي أخلصتم فيها والتي راءيتم فيها ويبرزها سبحانه وتعالى أمامكم ولذلك قال سبحانه في الآية بعدها :

{ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ } - أي خافوا من الله تعالى واحذروا منه - { وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ }

أي ومن رأفته ورحمته بالعباد أنه أمرهم أن يأخذوا حذرهم منه سبحانه ، فليخلصوا العمل له سبحانه ، وإن من أنذر فقد أعذر - أي من نبهك وحذرك لم يبق لك عنده عذر بعد .

وقد بين صلى الله عليه وسلم أن المرائين بأعمالهم يفتضحون يوم القيامة ويشهر بهم على رؤوس الخلائق كما ورد في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(يؤتى يوم القيامة بصحف مختمة) - أي مختوم عليها - (فتنصب بين يدي الله تبارك وتعالى ، فيقول تبارك وتعالى : ألقوا هذه ، واقبلوا هذه ، فتقول الملائكة : وعزتك ما رأينا إلا خيراً ، فيقول عز وجل : إن هذا كان لغير وجهي ، وإني لا أقبل اليوم من العمل إلا ما ابتغي به وجهي)[1]

ومن ذلك تعلم أن الملائكة قد تكتب بعض الأعمال التي ظاهرها الصلاح ولكن حقيقتها تظهر يوم القيامة .

ثالثاً : يجب على العبد أن يخلص مع الله تعالى لأنه مهما حصل من أمور الدنيا وزينتها فهي أمور فانية ويجب عليه أن يكون همه أن يظفر بحبه وقربه لرب العالمين ، ومن حصل على هذا حصل على كل خير ، ومن فاته الله والتقرب إليه فاته كل خير ، فلا تجعل أيها العبد بديلاً من الله ، ولا تتخذ عوضاً عنه لأنه سبحانه لا يعوض .

---

[1] المعجم الأوسط للطبراني

ويرحم الله القائل :

لكل شيء إذا ضيعته عوض وليس لله إن ضيعت من عوض

وقد بين صلى الله عليه وسلم أن اعتبار الأعمال عند الله تعالى إنما هو بنياتها لا بصورها فقال عليه الصلاة والسلام :

(إنما الأعمال بالنيات) أي إنما اعتبار الأعمال بنياتها

(وإنما لكل امرئ) من عمله

(ما نوى) لا ما عمل ، وما للإنسان من عمله إلا ما نوى فيه من خير وإخلاص وإن نوى غير ذلك فله غير ذلك .

(فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها) لتجارة أو نحو هذا

(أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه) [١]

أي وليس له ثواب الهجرة ، وإن كان بالظاهر مهاجراً

وقد قال هذا عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة إلى المدينة ، وذلك أن رجلاً في مكة كانت له محبوبة في المدينة فخطبها فأبت وقالت : لا أقبل زواجك حتى تهاجر إلى المدينة وتترك مكة ، فهاجر إلى المدينة ، فصورة الهجرة هجرة إلى الله ورسوله وحقيقتها إلى امرأة يصيبها ، لذلك بيّن صلى الله عليه وسلم موقف المهاجرين ، وأن الصادق في هجرته هو من المهاجرين إلى الله ورسوله ، وأما من ابتغى من هجرته غير ذلك فله ما نوى من هجرته .

واعلم أيها المؤمن أن القلب المخلص مع الله تعالى هو مستودع سر الله تعالى ، وأن القلب الفارغ من الإخلاص هو محط للبليات والوساوس والآفات .

ودليل هذا ما نبه إليه صلى الله عليه وسلم في أثر الإخلاص في النفس والقلب ، كما جاء في أنه خطب صلى الله عليه وسلم فقال :

(نضر الله امرأ) - وفي رواية : (نضر الله عبداً) [٢]-

(سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه ، فرُب مبلغ أوعى من سامع ، ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم) - وفي رواية : (ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن) [٣]

---

[١] سنن أبي داود كتاب الطلاق وأصله في صحيح البخاري كتاب بدء الوحي

[٢] سنن ابن ماجه في المقدمة

[٣] سنن ابن ماجه كتاب المناسك

(إخلاص العمل لله ، والنصيحة لكل مسلم ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإن دعاءهم محيط من ورائهم)[1]

أي : ثلاث إذا اجتمعت في قلب مؤمن فإن هذا القلب لا يحمل غلاً ولا حقداً ولا خيانة ولا غشاً بل يكون طاهراً نقياً ، لأن وجود هذه الخصال فيه يتنافى مع الغش والمكر والخيانة ، وذكر أولها الإخلاص ، فمن تحقق بالإخلاص تطهر قلبه وصفا.

وعن عبد الواحد بن زيد قال : سألت الحسن البصري رضي الله عنه عن الإخلاص ما هو ؟ فقال لي الحسن : سألت حذيفة بن اليمان عن الإخلاص ما هو ؟ فقال لي حذيفة : سألت النبي عن الإخلاص ما هو ؟ فقال لي رسول الله : سألت جبريل عن الإخلاص ما هو ؟ فقال لي : سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو ؟ فقال سبحانه : سر من سري استودعته قلب من أحببته من عبادي [2]

** الإخلاص حين العمل :

وذلك بأن يرى المؤمن المنة لله عليه وأن لا يتكبر ، ولا يستصغر غيره وفي هذا يقول سبحانه : {ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً } .

فالفضل لله تعالى أن وفق العامل للعمل .

** الإخلاص بعد العمل :

فمن أخلص النية في العمل وصوَّب العمل بأن عمل عملاً متابعاً لرسول الله فيجب عليه أن لا يقف موقف من وفى الله حقه ، أو قدر الله حق قدره ، بل يجب عليه أن يعلم أنه مهما أخلص وعمل وصوب فإن مقام رب العالمين أعلى وأجل ومهما عمل فهو مقصر مع رب العالمين .

قال الله تعالى في وصف مقامات أهل الإيمان الكامل :

{ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ }

وفي هذا بين سبحانه أنهم من السابقين المقربين فما هي صفتهم وحالهم مع الله تعالى حين يقومون بالأعمال والقربات قال تعالى :

{ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ } أي مشفقة خائفة ـ

---

[1] سنن الدرامي في المقدمة

[2] انظر الرسالة القشيرية

وقد سألت السيدة عائشة أم المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية { والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة } فقالت:

أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟

- أي يأتون ما آتوا من معاصي وذنوب ويخافون أن يعذبهم الله

فقال صلى الله عليه وسلم: (لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم) [١] - أي لخوفهم من عدم تحققهم بالإخلاص الكامل ولأن الإخلاص يحتاج إلى إخلاص ، وإن رؤية العبد نفسه أنه مخلص يعتبر شيء من الرياء والدعوى .

ثم إنهم أخلصوا وصوبوا العمل ومع ذلك علموا أنهم ما قدروا الله حق قدره ، وعلموا أن الفضل لله عليهم فزادوا في شكرهم لله تعالى وعرفوا فقرهم إلى الله سبحانه ، وقلوبهم خائفة مشفقة وفيها الخجل والحياء من رب العالمين .

فإذا وقفوا يوم القيامة يقول لهم سبحانه :عملتم كذا وكذا - أي من الصالحات - فيستحيون ويقولون : الفضل منك يا رب ، ويقول لهم سبحانه :

هذه الجنة جزاء بما كنتم تعملون ، فيقولون : الفضل لك يا رب

فهم يرون أنفسهم مقصرين مع الله تعالى وما قدروا الله حق قدره وأن الفضل لله عليهم أن وفقهم للعمل ويخافون أن يشوب إخلاصهم شيء من الرياء .

واعلم أن هذا الوجل والخوف صفة الملائكة والأنبياء عليهم السلام ، فعلى الرغم من أن الملائكة دائماً في عبادة لله سبحانه ومخلصون له فإذا جاء يوم القيامة قالوا : (سبحانك ما عبدناك حق عبادتك) .[٢]

وهذا سيد الأنبياء والرسل وإمام العباد والعباد يقول :

(لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) [٣] أي أنت يا رب أعظم مما نثني عليك وأجل وأكبر ، ولا يستطيع أحد أن يحصي حمدا وثناء عليك يا رب بل أنت كما أثنيت على نفسك

ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين.

---

[١] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن وسنن ابن ماجه كتاب الزهد

[٢] روى الطبراني في الكبير عن جابر رضي الله عنه عن البي صلى الله عليه وسلم قال : (ما فى السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك راكع أو ملك ساجد فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعًا : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك)

[٣] صحيح مسلم كتاب الصلاة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الثالثة

حول الاستقامة ، وهي منزلة من منازل أهل المعاملة مع الله تعالى

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فالاستقامة هي أن يقيم العبد نفسه على الصراط المستقيم دون اعوجاج أو التفات أو اتباع أهواء وآراء وشهوات .

والصراط المستقيم الذي ينبغي على المستقيم أن يستقيم عليه هو صراط سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى فيه :

{ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ }

وقال تبارك وتعالى : { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ }

أي قل يا محمد : تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ثم قال بعد ذلك جل جلاله :

{ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ }

- أي قل لهم يا رسول الله : وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه -

{ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }

أي لا تتبعوا الجوانب المتفرعة عن هذا الطريق المستقيم لأن هذا اتباع للأهواء والآراء ، فصراط رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الصراط المستقيم وهو صراط الله الذي أمر عباده باتباعه والاهتداء به ، وإن الهادي إلى هذا الصراط هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو إمام أهل الاستقامة وأمامهم .

وقد تحقق صلى الله عليه وسلم بأعلى مراتب الاستقامة .

وإن من سلك الصراط المستقيم فقد استقام على أوامر الله سبحانه كما قال تعالى :

{ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }

وفي هذه الآية يبين جل وعلا أن إمام أهل الاستقامة هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فذكره أولاً ثم قال سبحانه : { وَمَنْ تَابَ مَعَكَ } أي فليستقيموا متبعين لك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم -

{ وَلَا تَطْغَوْا } - أي لا تجاوزا هذا الصراط لا يمنة ولا يسرة ولا إفراطاً ولا تفريطاً ، ولم يقل سبحانه { ولا تطغ } لأنه صلى الله عليه وسلم على الاستقامة الكاملة وهو الهادي إلى الصراط المستقيم

** أصول ومراتب الاستقامة :

وأولها الاستقامة على صراط التوحيد لرب العالمين ، ثم الاستقامة على صراط شريعة رب العالمين وأوامره سبحانه ، وذلك على وجه الاستحسان لها لا الاستحسان للأهواء والآراء .

وإن هذه الأصول في الاستقامة قد ذكرها سبحانه في القرآن الكريم وأشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم .

ويقول سبحانه في الاستقامة على أمر الله :

{ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }

وهذا الأمر لجميع الأمة وأول من خوطب به سيدنا سيد الأمة صلى الله عليه وسلم والمقصود أمَّته ، وإن استقامة كل مؤمن على حسبه .

فهذه الاستقامة تعني أن لا تجاوز أوامر الله تعالى لا إفراطاً ولا تفريطاً وإنما على وجه معتدل في جميع الأمور فإذا مدحت إنساناً فليكن مدحك له باستقامة ، وإذا ذممت من هو مذموم شرعاً فليكن ذلك باستقامة ، وإذا عظمت من أمر الله بتعظيمه فعظمه باستقامة ، وإذا أحببت من أمر الله بحبه فأحببه باستقامة ، وإذا أبغضت من أمر الله ببغضه فأبغضه باستقامة ، وهكذا

{ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا }

- أي لا تجاوزوا لا إفراطاً ولا تفريطاً - { إنه بما تعملون بصير} .

أي فراقبوا أن الله بصير بكم وبأعمالكم ولتكن استقامتكم على مراقبة لله سبحانه .

وقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إن هذه الآية هي أشد آية نزلت لأن فيها الأمر بالاستقامة

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله شِبتَ - أي ظهر في شعر رأسه الشريف بعض الشيب ، فشابت فيه العنفقة الشريفة وشيء قليل من شعره الشريف صلى الله عليه وسلم [١] - فقال عليه الصلاة والسلام : (شيبتني هود وأخواتها [٢]) وذلك لأن سورة هود ذكر فيها سبحانه قوله :

---

[١] جاء في مسند الإمام أحمد عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ :
مَا عَدَدْتُ فِي رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِحْيَتِهِ إِلَّا أَرْبَعَ عَشْرَةَ شَعَرَةً بَيْضَاءَ .
وفي صحيح مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : وَلَمْ يَخْتَضِبْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا كَانَ الْبَيَاضُ فِي عَنْفَقَتِهِ وَفِي الصُّدْغَيْنِ وَفِي الرَّأْسِ نَبْذٌ

[٢] المعجم الكبير للطبراني وأصله في سنن الترمذي ورواه الحاكم في مستدركه بلفظ قريب وصححه

{ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }

أما أخوات سورة هود فهي التي ورد فيها الأمر بالاستقامة وهي سورة فصلت والشورى فقال سبحانه في سورة فصلت : { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ }

والمراد من الاستقامة في هذه الآية الاستقامة على توحيد الله وعبادته فقال تعالى :

{ فاستقيموا إليه } عابدين له وحده ومتوجهين إليه وحده

{ واستغفروه } أي من فرطات وهفوات تصدر عنكم ، فالاستقامة هنا هي الاستقامة على (لا إله إلا الله) أي على توحيد الله تعالى وعبادته وحده .
وقد يقال :وهل هناك مسلم غير مستقيم على (لا إله إلا الله) ؟

فيقال : إن الآية الكريمة تقول :

{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ }

أي لا تجعلوا معه إلهاً آخر بشرك جلي كما عليه الكفار والمشركون ، ولا تجعلوا معه إلهاً آخر من مال أو دنيا أو متاع أو هوى نفس ، وقد نبه إلى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس عبد المرأة *

وهناك عبد الهوى كما قال سبحانه :{أفرأيت من اتخذ إلهه هواه }

فقد يكون الإنسان موحداً ويقول (لا إله إلا الله) ولكن فيه شيء من العبودية لغير رب العالمين بأن يحب المال مثلاً كحب الله أو أشد ويغار على ماله ويحرص عليه أشد من حرصه على دين الله وشرعه ، فيقال : إن هذا لقد اتخذ إلهاً آخر مع الله وهو المال فتعس عبد الدينار والدرهم .

وهناك من يهيم في زوجته ويطيعها في كل شيء ولو كان محرماً فيقال له : إنك اتخذت زوجتك إلهاً مع الله تعالى وتعس عبد المرأة .

وهناك من يكون همه الزينة واللباس الفاخر وأن يظهر أمام الناس بالأناقة كالطاووس الظاهر فمن كان هذا همه الأكبر ولم يهتم إذا قصر في صلاته أو شيء من دينه فإنه عبد للناس والزينة وتعس عبد الخميصة .

وهناك من يتبع هواه مستحسناً له دون أن يحكم ذلك على شرع الله فيقال له :

إنك اتخذت هواك إلهاً آخر ولهذا قال سبحانه :

{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ }

فلا تعوجوا إلى هوى نفس أو مال أو خميصة أو امرأة .

{ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ }
الذين حادوا عن طريق الاستقامة في توحيد الله تعالى .

وقد أمر سبحانه أيضاً بالاستقامة في سورة الشورى فقال فيها :

{ فلذلك فادع واستقم }.

فهذه السور الثلاث أخوات ، لأن الأمر بالاستقامة جاء فيها بالآيات المذكورة سابقاً

فأول الاستقامة إذاً الاستقامة على توحيد رب العالمين والإيمان به ، والاستقامة على عبادته وحده سبحانه ، وأن لا يشرك معه بأصنام كبرى كالحجارة ، أو أصنام صغرى كالدراهم والدنيا وغيرها ، فهذه الاستقامة تقتضي أن يكون الإنسان عبداً خالصاً لله تعالى ومتبعاً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول سبحانه في فضل من استقام على شريعة الله تعالى :

{ وألَّو استقاموا على الطريقة } - أي الشريعة وهي شريعة الله تعالى كما يقال : شارع وشريعة وشرعة أي الطريق ، ويقال لها : طريقة لأنها طريق موصل إلى الله تعالى كما قال سبحانه : {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً }

{لأسقيناهم ماء غدقاً } - أي لأنعمنا عليهم نعماً كثيرة ولأحييناهم حياة طيبة ولأنزلنا عليهم الأرزاق الواسعة في الدنيا والثواب والأجر العظيم في الآخرة

وهذا كما قال جل وعلا : { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى } - أي البلاد -

{ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }

{لنفتنهم فيه } أي لنختبرهم بهذه النعم حتى يتبين الشاكر من الجاحد .

{ومن يعرض عن ذكر ربه } - أي عن تذكير الله ووعظه سبحانه –

{ يسلكه عذاباً صعداً} أي يجعله سبحانه يوم القيامة في مسلك العذاب الذي يعلوه ويغمره بالنيران .

أو كما قال بعض السلف : { يسلكه عذاباً صعداً } : هو جبل من نار في جهنم يؤمر هذا المعرِض عن ذكر الله أن يتصعده فيتصعده بمشقة ثم يهوي في أسفل النار وهكذا دواليك أبد الأبدين .

روى الإمام الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الصعود جبل من نار يتصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ويهوي فيه كذلك أبداً)[١]

وإن من متطلبات الاستقامة أن يستقيم الإنسان في أعماله وأقواله وقلبه ومداركه كلها ولا يكون الإنسان من أهل الاستقامة إلا إذا تحقق بذلك كله .

جاء في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل رجل الجنة لا يأمن جاره بوائقه)[٢]

ومعنى استقامة اللسان هي أن يتكلم كلاماً شرعياً سديداً لا إفراط ولا تفريط ، ولذلك كان كلام أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلاماً متابعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه رفعه قال :

(إذا أصبح ابن آدم) - أي إذا أصبح الصباح على ابن آدم –

(فإن الأعضاء كلها تكفِّر اللسان فتقول : اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا)[٣]

وليس معنى (تكفر) هنا التكفير الشرعي المعروف وإنما له معنى خاص في اللغة فيقال : (كفَّره) بمعنى انحنى له وذل وخضع

ومن هذا ورد أن النبي بعث عمرو بن العاص إلى النجاشي ، فلما أتى عمرو النجاشي وجد من كان عنده يدخلون مكفِّرين - أي منحنين خاضعين كأنهم راكعون- من خوخة ، فلما رأى عمرو الخوخة ، ودخولهم عليه ولى ظهره ، ثم دخل يمشي القهقرى ، فلما دخل منها اعتدل[٤]

لأن انحناء الركوع أو ما يقرب منه لا يكون إلا لرب العالمين سبحانه ، فالأعضاء إنما تكفر اللسان أي تخضع وتذل له وتطلب منه برجاء وتقول له : إنما نحن بك فإن استقمت أيها اللسان استقمنا وإن اعوججت اعوججنا ، أي فاتق الله فينا ، وهذا يدل على تأثير اللسان على سائر الجوارح والأركان ، وقد ينحرف أحد أعضاء

---

[١] سنن الترمذي كتاب صفة جهنم
[٢] المسند ١٢٥٧٥
[٣] سنن الترمذي كتاب الزهد والمسند ١١٤٧٢
[٤] المعجم الأوسط للطبراني

اللسان عن منهج الاستقامة فيقع صاحبه في خطأ وخطيئة ، ألا ترى إلى الإنسان إذا انحرفت أحد شعرات جفونه فقد ينحرف عن رؤية الصواب ويقع في الخطأ ؟!

وقد وقع هذا في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما خرج معه جماعة من الصحابة لرؤية الصحابة لرؤية الهلال في أول الشهر وبينما ينظرون ويتحرونه في جهة الغرب قال رجل منهم : الهلال الهلال ، فنظر الصحابة ومعهم عمر فلم يروا شيئا فقال عمر له : امسح عينيك امسح عينيك ، فمسح عينيه فقال له : هل ترى شيئا الآن ؟ فقال : لا .

وقد كانت شعرة من شعر الحاجب قد انحرفت إلى عينه فأخرجته عن صواب الرؤية وظن أنها الهلال فلما مسح عينه واستقامت الشعرة رجع إلى صحة الرؤية

واعتبر في هذا أيها الإنسان واحذر أن يعوج منك عضو أو ركن فربما أوقعتك في الحرام .

قال عليه الصلاة والسلام : (لن ينجي أحداً منكم عمله)

وفي رواية : (واعلموا أنه لن يُدخل أحدكم عمله الجنة)[1]

(قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة)

وفي رواية : (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة)[2]

وفي رواية : (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة)[3]

فقوله صلى الله عليه وسلم : (سددوا) - أي اسلكوا طريق السداد المستقيم - (وقاربوا) - أي ابذلوا جهودكم في مقاربة الهدف والاستقامة في السير - (واغدوا وروحوا ، وشيء من الدلجة ، والقصد القصد تبلغوا)[4] - أي تبلغوا النهاية المرضية وهي جنة الله تعالى ، والمعنى : ابذل جهدك أيها الإنسان في سداد العمل والمقاربة إليه ، واسع أن تعمل وتعبد ربك في أوقات نشاطك وهي في الغدو والآصال مع شيء من الدلجة - أي بالعمل آخر الليل ، ويقال : أدلج إذا سار في آخر الليل كما هو شأن المسافر أن يسرع السير في آخر الليل حتى يتقي حر النهار ، وما العبادة إلا سير إلى الله تعالى (واعلموا أنه لن يُدخل أحدكم عمله الجنة)

---

[1] صحيح البخاري كتاب الرقاق
[2] صحيح البخاري كتاب المرضى
[3] صحيح البخاري كتاب الرقاق
[4] صحيح البخاري كتاب الرقاق

أي :ابذلوا جهودكم في العمل لكن اعلموا أنكم مهما عملتم فلا تدخلون جنة الله جبراً وإيجاباً على الله وإنما فضلاً منه سبحانه ورحمة ، وإن الذي وفقك للعمل بفضل منه هو الذي يثبتك عليه ويدخلك الجنة بفضل منه سبحانه .

وقد يقال : ما دام الأمر بالفضل فلم لا يتفضل على الكفار بدخول الجنة ؟

فيقال : إنه سبحانه إنما يضع الفضل في موضعه فمن آمن وعمل صار أهلاً أن يتفضل الله عليه كما قال جل وعلا :{ ويؤت كل ذي فضل فضله }

وأما الكفار فإن الجنة حرام عليهم وليسوا أهلاً لها فالقضية رحمة وفضل مقرون بالحكمة ، والحكمة وضع الشيء في موضعه .

** مراتب الاستقامة :

ومما يدل على أن للاستقامة مراتب أن الله تعالى قرن في بعض الآيات الاستقامة بالاستغفار فقال سبحانه :{ فاستقيموا إليه واستغفروه }.

وفي هذا تنبيه للإنسان أنه مهما استقام فقد يقع في بعض الهفوات والتقصيرات ، فقد يستقيم في الأعمال والأحوال إلا أن لسانه قد يجاوز حد الاستقامة أحياناً فعليه أن يتدارك ذلك بالاستغفار حتى يكمل له مقام الاستقامة ولذلك قال جل وعلا : {واستغفروه } - أي تلافياً وجبراً للاستقامة .

ويقول عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم :

(استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) [1] - أي كامل الإيمان حتى يصير أهلاً أن تحف به الملائكة فقوله عليه الصلاة والسلام : (استقيموا ولن تحصوا) - أي ولن تحصوا مراتب وأنواع الاستقامة ، ولن تطيقوا حدود الاستقامة كلها ، فقد تقعون في بعض الهفوات فتداركوا ذلك بالاستغفار .

وليس أهل الاستقامة على مرتبة واحدة في الاستقامة فاستقامة الصحابة ليست كاستقامة غيرهم واستقامة أبي بكر رضي الله عنه ليست كاستقامة أحد من الصحابة وهكذا ..

** الأسباب التي تحمل الإنسان على الاستقامة

لقد أمر الله تعالى بالاستقامة فقال :

{ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا }

[1] سنن ابن ماجه كتاب الطهارة وسننها والسند ٢١٣٤٤

ثم نبه سبحانه إلى السبب الذي يحمل على الاستقامة فقال :

{إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }

فالسبب أن يوقن الإنسان أن الله تعالى بصير بأعماله القلبية والجارحية ، فإن هذه المراقبة تحمل الإنسان إلى أن يستحي من ربه ، ويستقيم في أعماله وأقواله وأحواله الظاهرة والباطنة .

وإن الإيقان بأن الله تعالى مطلع على سريرة الإنسان وعلانيته ، وأنه سبحانه بصير به وبأعماله القلبية والقالبية أمر محتم على كل مؤمن حتى يدفع عن نفسه الوساوس الشيطانية والخواطر الرديئة والتي إن تمكنت فيه صارت همة ثم نية ثم عزيمة ثم إرادة ثم فعلاً .

ولقد بين سبحانه أنه مطلع على الظواهر والبواطن فقال :

{ ألم يعلم بأن الله يرى } أي يرى ما نوى هذا الإنسان وأراد

فعلى المؤمن أن يستحي من ربه أن يرى في قلبه ما لا يرضاه ، أو أن يراه حيث نهاه ، وإن هذه المراقبة تحمل الإنسان على حسن النية والإخلاص في العمل وأن لا يظهر خلاف ما يبطن .

ويقول جل وعلا :

{ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ }

أي اتقوا الله واحذروا أن تبطنوا في نفوسكم ما لا يرضاه جل وعلا ، أو أن تظهروا وتراؤوا الناس بخلاف ما تضمرون في نفوسكم فإنه سبحانه يعلم ما تخفون وما تبدون .

وإن من استحكم فيه الرياء فإنه يفتضح يوم القيامة ويشهر به كما ورد في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(يؤتى يوم القيامة بصحف مختمة ، فتنصب بين يدي الله تبارك وتعالى ، فيقول تبارك وتعالى : ألقوا هذه ، واقبلوا هذه ، فتقول الملائكة : وعزَّتك ما رأينا إلا خيرا) - أي بالظاهر - (فيقول عز وجل : إن هذا كان لغير وجهي ، وإني لا أقبل اليوم من العمل إلا ما ابتغي به وجهي) [١]

وروى الطبراني عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يؤمر يوم القيامة بناس من الناس إلى الجنة ، حتى إذا دنوا منها

---

[١] تقدم تخريجه

واستنشقوا ريحها ، ونظروا إلى قصورها وما أعد الله لأهلها فيها نودوا : أن اصرفوهم عنها ، لا نصيب لهم فيها ، فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون بمثلها

فيقولون : يا ربنا ، لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما رأينا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا ، قال : ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتم بارزتموني بالعظائم ، فإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين) - أي مظهرين لهم التقوى -

(تراءون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم ، هبتم الناس ولم تهابوني ، وأجللتم الناس ولم تجلوني ، وتركتم للناس ، ولم تتركوا لي ، فاليوم أذيقكم أليم العذاب مع ما حرمتكم من الثواب) [١]

وفي هذا تنبيه للمؤمن أن يحسن العمل ويخلص النية وأن يراقب ربه في ظاهره وباطنه وأن يستقيم في أعماله وأقواله ، قال جل وعلا :

{ إنه بما تعملون بصير }.

** فضل أهل الاستقامة في الدنيا والآخرة :

أما فضل الاستقامة فقد تقدم أن الله تعالى يغدق عليهم النعم والأرزاق الحسية والمعنوية والقلبية : { وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا }

ويقول سبحانه في فضل أهل الاستقامة أيضاً :

{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ }

قال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه في هذه الآية :

{ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا } فلم يلتفتوا إلى إله غيره [٢].

والمعنى : لم يلتفتوا إلى حطام الدنيا ولم تأخذ بقلوبهم وإنما تعاطوا أسباب الدنيا كما شرع الله لهم .

و قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يخطب الناس على المنبر :

{ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة }

قال : استقاموا والله بطاعة الله ، ثم لم يروغوا روغان الثعلب[٣]

---

[١] المعجم الأوسط للطبراني

[٢] عزاه في كنز العمال لمسند ابن راهويه وعبد بن حميد وأبي نعيم في الحلية

[٣] الزهد لأحمد ابن حنبل

أي لم تتبدل وجهتم ، ولم يتغير حالهم مع الله وإنما على منهج الاستقامة القويمة ، وهذا لأن الثعلب لا يمشي في طريق مستقيم بل يمشي ملتوياً وهذا من مكره بمن وراءه .

وكان الحسن البصري رضي الله عنه إذا قرأ الآية : { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا } كان يقول : اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة [1]

فلم يزك نفسه ويدعي أنه من أهل الاستقامة بل راح يدعو أن يكون من أهل الاستقامة وهذا من دأبه وتواضعه لرب العالمين سبحانه

وقال بعض العارفين رضي الله عنهم في قوله تعالى : { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا } قال : { قالوا ربنا الله } في عالم الذر وذلك لما استخرج سبحانه الذراري على هيئة الذرات وقال لهم { ألست بربكم قالوا بلى } - أي أنت ربنا فجميع الخلائق من بني آدم قالوا : ربنا الله ، ثم لما جاؤوا إلى الدنيا فإن كثيراً منهم كفر ولم يستقيموا على ما قالوا في عالم الذر وقسم منهم وهم أهل الإيمان استقاموا على ما قالوا أي استقاموا على قولهم {ربنا الله }

ولهذا ورد في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا } قال : قد قال الناس ثم كفر أكثرهم ، فمن مات عليها فهو ممن استقام) [2]

فأهل الاستقامة قالوا (ربنا الله) في عالم الذر وقالوا (ربنا الله) لما جاؤوا إلى عالم الدنيا واستقاموا على ما قالوا ، لأن من اعترف لله بالربوبية اعترف لنفسه بالعبودية ، وراح يعبد الله متبعاً مستقيماً على صراط رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو صراط الله .

فمعنى { استقاموا } : أقاموا نفوسهم مستقيمة على الصراط المستقيم دون انحراف أو اعوجاج ، فقد استقاموا على شرع الله تعالى الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن الصراط الذي دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صراط الله تعالى ، ولهذا ورد في الحديث عن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتي الصراط سوران)

وفي رواية : (داران)

---

[1] الزهد والرقائق لابن المبارك

[2] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

(فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتفرجوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه ، والصراط الإسلام والسوران حدود الله تعالى والأبواب المفتحة محارم الله تعالى وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله عز وجل) - الذي بلغه رسول الله - (والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم) [١]

وهذا ما يشعر به كل مؤمن ، فإنه لما يريد أن يميل إلى الحرام يجد في نفسه مانعاً وهاتفاً يحذره من الحرام إلا أنه يقع في الحرام بتجرئة شياطين الإنس و الجن ، ولا يبالي بذلك الواعظ القلبي .

وفي الحديث عن سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه قال : (قلت : يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً) - أي قولاً جامعاً - (لا أسأل عنه أحداً بعدك) - وفي حديث أبي أسامة : (غيرك)

(قال : قل : آمنت بالله فاستقم) [٢]

وفي رواية : (قال : قل ربي الله ثم استقم)

أي أن قول (لا إله إلا الله) أمر يسير إلا أن المهم كل الاهتمام أن يستقيم الإنسان على قول (لا إله إلا الله) والقيام بحقها ومطالبها .

ثم قال سفيان رضي الله عنه : (قلت : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي ؟) - أي إن أنا استقمت في أعمالي - (فأخذ بلسان نفسه ، ثم قال : هذا) [٣]

منبهاً صلى الله عليه وسلم إلى أهمية وضرورة استقامة اللسان في الأقوال لأنه ربما يتكلم الإنسان بكلمة غير شرعية وتحبط له كثيراً من أعماله وحسناته

كما قال صلى الله عليه وسلم : (وإن العبد ليتكلم بالكلمة مِنْ سَخط الله تعالى لا يُلقي لها بَالاً يهوي بها في النار سبعين خريفاً) [٤] .
فمن أراد أن يحفظ عليه أعماله وحسناته فليحفظ لسانه

---

١ المسند ١٦٩٧٦

٢ صحيح مسلم كتاب الإيمان

٣ سنن الترمذي كتاب الزهد وسنن ابن ماجه كتاب الفتن

٤ قال في: (التيسير): أخرجه الثلاثة والترمذي.

ومعنى قوله جل وعلا : { إن الذين قالوا ربنا الله }

أي خالقنا ومالكنا ومربينا وممدّنا ومصلح أمرنا وسيدنا بالسؤدد المطلق هذا هو الله سبحانه لأن كلمة الرب تطلق على الخالق والمالك والسيد والثابت الوجود والبقاء ، وكل هذه المعاني محققة في جناب الحق جل وعلا ، فهو الذي خلق الخلق وهو مالكهم وهم مماليك له ، وهو سبحانه مربيهم وسيدهم والخلق كلهم مفتقرون إليه محتاجون له فهو ممدهم بما يحتاجون لأنه ثابت الوجود والبقاء فلا أول له ولا آخر له ، وإنما قام العالم به فهو القيوم القائم بذاته والمقيم لغيره جل وعلا .

أما فضل الاستقامة فقد قال جل وعلا : { إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة } - أي لوجود المناسبة بينهم وبين الملائكة .

وهذا التنزل إنما هو في كل العوالم ، وإن الملائكة لا تنزل إلا بأمر الله

كما قال جل وعلا : { وما نتنزل إلا بأمر ربك }.

فمن جملة تنزلاتهم أن يتنزلوا على أهل الاستقامة عند الاحتضار وبعد الموت ويقولوا لهم { لا تخافوا } - مما أنتم مقدمون عليه – { ولا تحزنوا } على ما مضى منكم وما تركتم من ولد وزوجة وأهل بل كونوا في أمان واطمئنان { وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون }.

وتقول الملائكة لأهل الاستقامة عندما يصيرون في عالم القبرما أخبر سبحانه عنهم :{ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة }.

أي نحن أحبابكم وأنصاركم وبيننا وبينكم ولاء ومحبة ومناصرة .

فمن جملة ولائهم لأهل الاستقامة في الدنيا أنهم يأتون إلى قلوبهم ويلهمونهم الخير ويدلونهم عليه ويأتونهم بالمبشرات والمسرات عندما تصيبهم المضايق والشدائد .

وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن للشيطان لمة بابن آدم) - أي إلمام به – (وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ { الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً})[1] أي بإنزال الملائكة إلى قلوبكم

[1] سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

ومن جملة ولائهم لأهل الاستقامة في الدنيا : حضورهم معهم الصلوات

كما ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا قال الإمام { غير المغضوب عليهم ولا الضالين } فقولوا : آمين ، فإن الملائكة يقولون : آمين ، وان الإمام يقول : آمين ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه) [1]

ومن ذلك : حضورهم معهم صلاة الجمعة

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :

(إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد الملائكة يكتبون الأول فالأول ، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر) [2]

ومن ذلك : حضورهم وشهودهم قراءة القرآن كما ورد أن من قرأ القرآن فإن الملائكة تدنو منه وتنزل عليه بالسكينة ، كما حصل عن أسيد بن حضير رضي الله عنه بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة ، وفرسه مربوطة عنده ، إذ جالت الفرس – أي : جعلت تضطرب - فسكت فسكتت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت وسكتت الفرس ، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف ، وكان ابنه يحيى قريباً منها ، فأشفق أن تصيبه فلما اجتره - أَي: فَلَمَّا جر أسيد ابْنه يحيى من الْمَكَان الَّذِي هُوَ فِيهِ حَتَّى لَا يطَأه الْفرس - رفع رأسه إلى السماء ، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم فقال :
(اقرأ يا ابن حضير ، اقرأ يا ابن حضير) - أي ليتك كنت تقرأ ولم تتوقف عن قراءتك - (قال : فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى ، وكان منها قريباً ، فرفعت رأسي فانصرفت إليه ، فرفعت رأسي إلى السماء ، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح) - أي غمامة قوية النور كالمصابيح المجتمعة إلى بعضها ، والمصباح يدل على النور القوي ، وما سمي ذلك إلا لأنه في نوره وضيائه كالصباح -

(فخرجت حتى لا أراها) - أي صعدت ملائكة السموات إلى السماء بعد أن تنزلت لقراءة القرآن ، وهذا ما يدل على أنها ملائكة من ملائكة السماوات وليست من ملائكة الأرض .

(قال : وتدري ما ذاك ؟ ، قال : لا ، قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها ، لا تتوارى منهم) [3]

---

[1] المسند ٦٨٩٠ وسنن الدارمي كتاب الصلاة

[2] صحيح البخاري كتاب بدء الخلق

[3] صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن وصحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

وفي رواية : (أما إنك لو أمضيت) ـ أي لو بقيت على قراءتك ـ (لرأيت الأعاجيب) [1]

ومن جملة ولاء الملائكة لأهل الاستقامة ومناصرتهم لهم أنهم يدافعون عنهم ويقاتلون معهم الأعداء والمشركين ، ومن هذا لما وقعت غزوة بدر ونزلت الملائكة تناصر المؤمنين كما قال جل وعلا :

{ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ }

فقوله تعالى مخبراً عن الملائكة عليهم السلام قولهم : { نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا } ـ أي أحبابكم ونصحاؤكم وأنصاركم ، وكنا نحضر معكم الصلوات ونشهد معكم مجالس عباداتكم وطاعاتكم وقراءتكم .

ومن ذلك لما قرأ ثابت بن قيس رضي الله عنه مرة في الليل جاء الصحابة إلى النبي صباح تلك الليلة وقالوا :أَلَمْ تَرَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ " لَمْ تَزَلْ دَارُهُ الْبَارِحَةَ تُزْهِرُ مَصَابِيحَ ؟ ـ أي تضيء ـ قَالَ : فَلَعَلَّهُ قَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ ، قَالَ : فَسُئِلَ ثَابِتٌ ، فَقَالَ : قَرَأْتُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ. " [2]

ـ فتنزلت ملائكة السماء لقراءته وأضاء بيته لذلك

ومن جملة ولاء الملائكة لأهل الاستقامة : حضورهم معهم مجالس ذكر الله وتلاوة القرآن ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده) [3]

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(إن لله سيارة من الملائكة يطلبون حلق الذكر ، فإذا حفوا عليهم و أتوا بهم ثم بعثوا رائدهم إلى السماء إلى رب العزة تبارك وتعالى فيقولون : ربنا أتينا على عباد من عبادك يعظمون آلاءك ويتلون كتابك ويصلون على نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ويسألونك لآخرتهم ودنياهم ، فيقول تبارك وتعالى : غشُّوهم رحمتي

---

[1] مسند ابن أبي شيبة

[2] انظر كتاب فضائل القرآن الكريم للقاسم بن سلام

[3] سنن أبي داود كتاب الصلاة وسنن ابن ماجه في المقدمة

فيقولون : يا رب إن فيهم فلانا الخطّاء إنما اعتنقهم اعتناقاً ، فيقول تبارك وتعالى : غشوهم رحمتي فهم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم) [١]

وكذلك فإن الملائكة تحضر وتشهد مجالس العلم التي تنشر فيها آيات الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم كما في الحديث :

(من سلك طريقا يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم)[٢]

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من غدا يريد العلم يتعلمه لله فتح الله له باباً إلى الجنة ، وفرشت له الملائكة أكتافها ، وصلّت عليه ملائكة السموات وحيتان البحر ، وللعالم من الفضل على العابد كالقمر ليلة البدر على أصغر كوكب في السماء) [٣]

وفي هذا دليل فضل العلم وفضل مجالس العلم وفضل العلماء العاملين عند رب العالمين ، ولا يستخف بالعلماء ومجالس العلم إلا منافق كما ورد في الحديث

عن أبي أمامة رضي الله عنه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق : ذو الشيبة في الإسلام ، وذو العلم ، وإمام مقسط) [٤] أي : حاكم عادل .

وأما تنزل الملائكة على أهل الاستقامة وولاؤهم لهم في الآخرة فإنهم يحفون بهم ويحيطون بهم ويبشرونهم وإن أول ما يبشرون به المؤمن حين انتقاله إلى البرزخ أن يقولوا له ما جاء في الحديث :

(اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان)[5]

ومن جملة ولائهم لأهل الاستقامة في الآخرة أنه إذا صار المؤمن المستقيم في قبره تنزلت عليه الملائكة وآنسته ولاطفته وبشرته بالجنة وقالت لهم : { لا تخافوا ولا تحزنوا } على ما تركتم من ولد وأهل فنحن أولياؤكم ونحن نخلفكم فيهم ونتعهدهم من بعدكم .

ومن جملة ولاء الملائكة للمؤمنين في الآخرة :

---

[١] عزاه في مجمع الزوائد للبزار
[٢] سنن ابن ماجه في المقدمة وسنن الترمذي كتاب العلم
[٣] شعب الإيمان للبيهقي
[٤] عزاه في مجمع الزوائدللطبراني في المعجم الكبير
[٥] سنن ابن ماجه كتاب الزهد

شفاعتهم بهم في مغفرة زلاتهم ورفع درجاتهم وترقية مقاماتهم

ولذلك قال بعض السلف رضي الله عنهم في قوله تعالى :

{ألا تخافوا ولا تحزنوا }: أي لا تخافوا مما تقدمون عليه من عالم فإن أعمالكم الصالحة مشكورة ، ولا تحزنوا من فرطات أو سيئات أو هفوات صدرت منكم في الدنيا فإنها مغفورة ، أي فما مضى منكم فهو مغفور ، وما صلح منكم فهو مشكور. وكذلك فإن الملائكة تنزل على أهل الاستقامة في برازخ الآخرة كلها حتى إذا دخلوا الجنة وحلوا في قصورهم العالية جاءت الملائكة وفوداً وفوداً يرحبون بهم ويحيونهم ويسلمون عليهم بأمر من رب العالمين قال تعالى : { وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ }

وهذا لأن لكل مؤمن في الجنة عدة قصور ولكل قصر عدة أبواب تلي بعضها ، وعلى كل باب بوّاب وخدم مصطفين سماطين أي صفين ، فيأتي الملك من رب العالمين إلى أول باب ويستأذن من بوابه بالدخول على المؤمن فيستأذن البواب الأول من البواب الثاني وهكذا إلى آخر بواب حتى يستأذن له من المؤمن فيقول : ائذنوا له ، فينتقل الخبر من بواب إلى بواب حتى يؤذن للملك فيدخل على المؤمن وهو في قصره [1] ويقول له عن أمر رب العالمين :{سلام عليكم }- أي سلام عليكم من الله السلام - {بما صبرتم }- على العمل بدين الله وشرعه { فنعم عقبى الدار }- أي نعم الجنة دار العاقبة لكم- .

ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين.

[1] انظره في صفة الجنة لابن أبي الدنيا والزهد والرقائق لابن المبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الرابعة

حول الحياء : فضائله - آثاره

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فإن الحياء مقام كبير له آثاره على الإنسان ، وهو أمر محتم عليه بمقتضى الإيمان وهو من مقامات ومنازل أهل المعاملات مع الله تعالى وهو يلي مقام الاستقامة .

تعريف الحياء : هو خلق يمنع صاحبه عما يشينه ، ويحمله إلى ما يزينه ، فهو خلق يبعد صاحبه عن الرذائل والنقائص ، ويحمله على الكمالات والفضائل .

وليس الحياء أمراً جزئياً مختصراً وإنما هو أمر ضروري إيماني يتعلق بالحواس والمدارك الإنسانية كلها .

وقد بين صلى الله عليه وسلم أن الحياء شعبة عظيمة من شعب الإيمان ، لذلك أفرده بالذكر لأنه إذا تحقق به الإنسان حمله ذلك على التحقق بشعب الإيمان كلها .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان)[١]

وفي رواية :(الإيمان بضع وستون شعبة)[٢]

إلا أن رواية الزيادة مقبولة وهي الأولى .

كما بين صلى الله عليه وسلم أن الحياء أمر محتم على الإنسان وجاءت به جميع الشرائع الإلهية السابقة وذلك لأن الحياء أمر تتوقف عليه سعادة الدنيا والآخرة .

وإذا زال الحياء من بين الناس فما هم إلا كالبهائم والحيوانات بين بعضها البعض .

وفي هذا يقول عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم :

(إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى)

---

[١] صحيح مسلم كتاب الإيمان

[٢] صحيح البخاري كتاب الإيمان

أي مما هو منقول عن النبوات السابقة ومن جملة ما جاؤوا به واتفقوا عليه
(إذا لم تستح فاصنع ما شئت)[1]

أي مَن ذَهَبَ حياؤه فليس ببعيد عنه أن يصنع ما يشاء ويهوى ، لأن المانع للرزيلة قد زال منه والحامل على الفضيلة قد نزع منه ، فلا تعجب ممن زال حياؤه إذا فعل ما فعل من الفواحش وظهر ما ظهر منه من الرذائل .

وإن قوله صلى الله عليه وسلم : (إذا لم تستح فاصنع ما شئت)

أي : واعلم أن الله تعالى سيحاسبك يوم القيامة ، ولهذا نظائر كثيرة كقوله سبحانه وتعالى : { اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير }

** متعلقات الحياء

لا تظن أن الحياء يقتصر على احمرار الوجه أمام الناس وعند الخلوة عن الناس يظهر من صاحبه ما لا يرضي الله تعالى !!

ولكي تدرك معنى الحياء فاعلم أنه خلق صابغ تنصبغ به النفس وما حوَت من مدارك وحواس ظاهرة وباطنة ، ومن تم له هذا الانصباغ بالحياء فيقال عنه : إنه صاحب حياء من الله تعالى وإلا فلا ، ولهذا بين صلى الله عليه وسلم شمولية الحياء للحواس والمدارك كلها .

كما في سنن الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(استحيوا من الله حق الحياء ، قال : قلنا : يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله ، قال : ليس ذاك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى) - أي وما جمع - (والبطن وما حوى وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء)[2]

فلما قال صلى الله عليه وسلم : (استحيوا من الله حق الحياء)

فهم بعض الصحابة الذين هم حديثو عهد بالإسلام فهموا أن مراده صلى الله عليه وسلم جانب من جوانب الحياء فقالوا : (إنا نستحي والحمد لله) .

فبين لهم صلى الله عليه وسلم أنه لا يريد ذلك بل يريد كامل الحياء وحق الحياء ، وجامع الحياء ، وذلك بأن تحفظ الرأس وما وعى أي وما جمع من عقل وسمع

---

[1] صحيح البخاري كتاب الأدب
[2] سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع والمسند ٣٤٨٩

وبصر ولسان وشم وتفكير فحق الحياء من الله أن تحفظ بصرك أن يمتد إلى الحرام وكذلك سمعك ولسانك وأن تشغل فكرك فيما يقربك إلى الله .

ومن حق الحياء أن تحفظ البطن وما حوى وذلك بالتوقي عن أكل المال الحرام وأن تحفظ ما حوى البطن من شهوات وأن تصرفها في مصارفها المشروعة ..

ويشمل هذا أن تحفظ أطرافك التي تستمد القوة من بطنك وغذائك .

ثم عليك أن تذكر الموت والبلى لأنه لا بد لك منه وما الموت إلا رحمة وحكمة بك أيها الإنسان إلا أنها خفيت عنك في هذا العالم .

واذكر رقودك في قبرك وكيف تولى عنك أصحابك وأهلك وأقاربك وقد تركت أموالك وأولادك وخلوت بعملك في قبرك ، وهذا الذكر يحملك على الحياء من الله تعالى والعمل على طاعته سبحانه ..

قال : (ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا) - أي الزينة المحرمة تركها ادخاراً للآخرة وكف هواه عن المحرمات ، فمن تحقق بذلك كله فقد استحيا من الله حق الحياء ، ومن تحقق بشيء فيها وأهمل الآخر فهو على جانب من الحياء ولقد كان صلى الله عليه وسلم أشد العالمين حياء ، فلقد كان صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها أي أنه كان متصفاً بأكمل مراتب الحياء حتى وصفه الصحابة رضي الله عنهم بأنه (أشد حياء من العذراء في خدرها)[١]

وهي المرأة الباكر حينما كانوا يصنعون لها خيمة وحدها لأنها لم تتزوج وهي حديثة السن مفطورة على الحياء فيضعونها في خدر خاص حتى لا يتطلع إليها نظر الضيوف ولا تخالط الناس حياء وخجلاً منها وحفظاً لجوهرها وصدفها وحرمتها ، وهذا يدل على ضرورة حجاب المرأة وأن تلبس ما يحجبها ويحجب جسمها وزينتها عن الآخرين وهذا من مقتضى إيمانها وحيائها وإلا فهي ناقصة الإيمان وحياؤها في زوال .

وقد بين صلى الله عليه وسلم آثار الحياء وأنه لا يأتي إلا بخير فقال : (الحياء لا يأتي إلا بخير)[٢]

---

١ صحيح البخاري كتاب المناقب
٢ صحيح البخاري كتاب الأدب وصحيح مسلم كتاب الإيمان

** الأسباب التي تحمل الإنسان على الحياء من الله تعالى :

أولاً : أن يوقن الإنسان أن الله يراه أينما كان في سره وعلانيته وفي خلوته وفي جلوته وفي الشارع والجامع ، ومن أيقن بذلك صار عنده حياء من الله تعالى لأن شأن الإنسان أن يستحي ممن له عليه مقام أو ولاية .

فمن يستحي مثلاً من والده أو قائده أو رئيسه أو شيخه ولا يصدر منه أمامهم أيّ مخالفة أو سيئة ، وإذا أراد ذلك توارى عنهم ، فاعلم أن الله تعالى لا يغيب ، وبصير بك لا يحجبه شيء بل يراك أين كنت فراقبه أين كنت ..

وهذه المراقبة تحملك على الحياء منه سبحانه مما يمنعك عن ارتكاب المخالفات .

ولهذا بين سبحانه أنه من انتزعت منه مراقبة الله ولم يلاحظ أن الله يراه فإنه يقدم على كل رزيلة فقال جل وعلا من باب التوبيخ والتعنيف لأبي جهل لما صدر عنه ما صدر من جهل وأراد أن يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم بأن يمنعه عن السجود لله تعالى ، فلما أقدم على ذلك منعه الله تعالى من ذلك وحفظ نبيه وأنزل آيات يوبخ فيها أبا جهل ومن جملتها : { ألم يعلم بأن الله يرى } .

وهذا كما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم - أي ساجداً لله تعالى - ؟

قال : فقيل : نعم ، فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب ، قال : فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي زعم ليطأن على رقبته ، قال : فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه - أي لم يرجع مستقيماً بل رجع مضطرباً متمايلاً لشدة خوفه وذعره مما رأى - قال : فقيل له : مالك ؟ فقال : إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً)

(قال : فأنزل الله عز وجل { كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى * إن إلى ربك الرجعى * أرأيت الذي ينهى * عبداً إذا صلى * أرأيت إن كان على الهدى * أو أمر بالتقوى * أرأيت إن كذب وتولى }يعني أبا جهل

{ ألم يعلم بأن الله يرى * كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة * فليدع ناديه * سندع الزبانية * كلا لا تطعه واسجد واقترب })[1]

قوله تعالى : (كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى)

أي أن شأن كل إنسان أن يطغى إذا رأى نفسه استغنت ، فإذا رأى نفسه استغنى بالمال طغى ، وإذا رأى نفسه استغنى بالجاه طغى ، وإذا رأى نفسه استغنى بعشيرته وجماعته طغى كأبي جهل ، أما من أعطاه الله مالاً أو جاهاً وشكر الله تعالى على ذلك وصرف المال فيما يرضي الله تعالى فإن المال نفسه لا يطغي إلا إذا رأى نفسه استغنت

{أرأيت الذي ينهى * عبداً إذا صلى }خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ملاطفة له

ثم خاطب سبحانه أبا جهل تعنيفاً وتوبيخاً { أرأيت إن كان على الهدى } وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فكيف تمنعه من ذلك ؟

ثم خاطب سبحانه رسول الله صلى الله عليه وسلم ملاطفاً له

{أرأيت إن كذب وتولى} يعني أبا جهل

{ ألم يعلم بأن الله يرى} أي ألم يعلم أبو جهل بأن الله يرى ، أي ولو أيقن بذلك أبو جهل وراقب أن الله يراه لَمَا نوى هذا الفعل السيء ، وفي هذا تنبيه للمؤمن ألا يحمله جهله بأن يقدم على أمور لا يرضاها الله تعالى ظناً منه أن الله لا يراه

وفي هذا يقول جل وعلا : { إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ }

أي ظن الكافر أنه لا يرجع إلى الله سبحانه

{ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا }

أي أنه بصير بأعمالكم فراقبوا ربكم في أعمالكم ..

وهذا كما قال الله تعالى :

{ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ * أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ }

قوله تعالى : {لا }كما يقول الكفار أن محمداً صلى الله عليه وسلم ساحر أو شاعر أو كاهن

---

[1] صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار

{ أقسم بهذا البلد} وهي مكة المكرمة

{وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ } أي أن حلولك فيها يا رسول الله زاد هذه البلدة فضلاً وشرفاً

{ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ } ويشمل كل والد ومولود من آدم عليه السلام إلى يوم الدين فذكر سبحانه الوالد الجسماني وهو آدم عليه السلام بعدما ذكر الوالد الروحاني وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

{ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ }

قال كثير من المفسرين :{ في كبد } أي استقامة وطول ولم يخلقه منحنياً ، وهذا ما دل عليه سياق الآيات ودل عليه قوله جل وعلا : { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ }

وقال بعضهم : { في كبد } أي في مكابدة للأمور ، فأعطيناه القوة والإرادة والفهم فهو يكابد فيها حتى ينتهي أمره إلى رب العالمين سبحانه ، قال جل وعلا :

{ يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ }

قوله تعالى : { أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ }

فإن الذي أعطاه القوة على المكابدة والجمع والمنع له القدرة المطلقة فكيف يظن هذا الإنسان أن لن يقدر عليه أحد ؟؟

{ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا }

أي أن هذا الإنسان يفخر بماله وقوته وجمعه فيقول : أنا أصرف كذا وأعمل كذا مفتخراً بصرفه على نفسه

{ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ } بل إن الذي خلقه يراه وهو مطلع عليه بدليل قوله سبحانه : { أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ }

يرى بهما ، والذي أعطاه البصر أشد بصراً منه ويبصره أينما كان ، وإذا كنت أيها الإنسان ترى بواسطة عينين مخلوقتين فإن الله سبحانه يرى بذاته من ذاته ، وبصره ذاتي له سبحانه ، وله جل وعلا البصر المطلق ..

{ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }

أي بينا له طريق الحق والهدى من طريق الباطل والضلال

{ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ }

والعقبة هي المكان المرتفع الذي يتصعد إليه بصعوبة ، أي أن أمرها عظيم وهي التكاليف الشرعية ، ثم بينها سبحانه فقال : { فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا

الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ }

أي أنه ينبغي لك أيها الإنسان أن تقتحم العقبة لأن الله تعالى أعطاك القوة والادراكات التي تساعدك على ذلك ، ومن اقتحم عقبة النفس ولم يلتفت إلى أهوائها ولم يلتفت إلى وساوس الشياطين واتبع صراط رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقال عنه : إنه قد اقتحم العقبة ..

ومن اقتحم العقبة في الدنيا هان عليه اقتحام عقبة الصراط في الآخرة وجاوز بأمان وسلام

ثانياً : إن مما يحمل الإنسان على الحياء أن يلاحظ معية الله له ، قال تعالى : { وهو معكم أينما كنتم }.

قوله سبحانه: { وهو } يدل على أن معيته لكم غيبية وليست جسمانية فأيقنوا بذلك ، وكيف تخالفون أمره وهو معكم أينما كنتم وليس هذا من الحياء في شيء ؟! ومن راقب معية الله له حمله ذلك على الحياء من الله سبحانه ، وإن أفضل الإيمان ما ورد في الحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت [1])

ولهذا قال بعض الشيوخ لأحد المريدين: [يا بني إياك أن يراك مولاك حيث ينهاك] أي بل ينبغي أن يراك حيث أمرك

ثالثاً : وإن مما يحمل الإنسان على الحياء من الله تعالى معرفته بنعم الله عليه التي لا تعد ولا تحصى وإن القوة والمدارك التي أعطاك الله إياها إنما هي نعم منه عليك فكيف بك تعصيه بنعمه عليك ؟!

فاستح من ربك أن تفعل ذلك

وإن من انصبغت نفسه بالحياء وتحقق بالحياء كلياً فإن الملائكة تستحي منه فإن صدرت منه هفوة أو زلة فإنهم يستحيون أن يكتبوها عليه

وهذا ما ورد عن السيدة عائشة أم المؤمنين وسيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع على فراشه - أي وهو في بيته - لابس مرط عائشة فأذن لأبي بكر وهو

[1] المعجم الأوسط للطبراني

كذلك فقضى إليه حاجته ثم انصرف ، ثم استأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحال فقضى إليه حاجته ثم انصرف ، قال عثمان رضي الله عنه : (ثم استأذنت عليه فجلس وقال لعائشة : اجمعي عليك ثيابك ، فقضيت إليه حاجتي ثم انصرفت فقالت عائشة : يا رسول الله مالي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن عثمان رجل حيي) - أي شديد الحياء – (وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إلي في حاجته) [١]

وفي رواية : (فقال : ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة) [٢]

ولا تتوهم أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما غير متحققين بالحياء ، ولكن للأوصاف بعض مظاهر قد تتغلب على غيرها ولها أحكامها ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرف الناس بأمزجة خلق الله تعالى فكان يلاحظ ذلك .

وإن من استحيا من الله حق الحياء فإن الله تعالى يستحي منه أن يعذبه - أي حياء كرم -

كما دل على ذلك الحديث عن أبي واقد الليثي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب واحد ، قال : (فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهباً ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله) - وهو الذي أوى وتقرب إلى رسول الله ، ومن آواه الله صار في ضمان الله -

(وأما الآخر فاستحيا) - أي من رسول الله - (فاستحيا الله منه) - أي لا يعذبه (وأما الآخر) - وكان منافقاً - (فأعرض فأعرض الله عنه [٣])

كما ورد أنه سبحانه يستحيي أن يعذب أبناء الثمانين [٤]- أي من أهل الإيمان -

و قال صلى الله عليه وسلم : (إن ربكم تبارك وتعالى حيي كريم) - أي متصف بالحياء وهو حياء كرم - (يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً) [٥]

---

[١] صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة

[٢] صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة

[٣] صحيح البخاري كتاب العلم

[٤] روى أبو نعيم في الحلية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ أَبْنَاءَ السَّبْعِينَ ، وَيَسْتَحِي مِنْ أَبْنَاءِ الثَّمَانِينَ)

[٥] سنن أبي داود كتاب الصلاة

ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الخامسة

حول الشكر : مراتبه - فضائله

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

إن مقام الشكر لله تعالى هو من جملة مقامات أهل اليقين وأهل المعاملات الخاصة مع رب العالمين جل وعلا

يقول جل وعلا : { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ }

أما ذكر العبد لربه فيكون بأنواع الذكر النفسي والقولي والقلبي وبصيغ الذكر المتنوعة كالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل وغير ذلك مما فيه ذكر الله تعالى ..

وأما ذكر الله تعالى لعبده الذي يذكره فهو أن يثني عليه سبحانه في الملأ الأعلى ويباهي به ملائكته ، وأن يذكره في المقامات والفضائل والكمالات .

ومما جاء في فضل الذكر ما ورد في الحديث القدسي الذي رواه الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى: (أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني)[١]

وفي رواية : (وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملإٍ) - أي في جمع - (ذكرته في ملإٍ خير منه)[٢]

وفي رواية : (وإن ذكرني في ملإ ذكرته في الملأ الأعلى) *

قوله تعالى : {واشكروا لي } - أي واشكروا لي نعمي عليكم

ولقد قدم سبحانه الذكر لأنه متعلق بالذات الإلهية وهو قوله : { فاذكروني } ثم ثنى بالشكر فقال جل وعلا : { واشكروا لي } لأنه متعلق بنعم الله على العباد

---

١ صحيح البخاري كتاب التوحيد

٢ صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

{ ولا تكفرون }أي ولا تكفروا الله في نعمه عليكم بأن تصرفوها فيما لا يرضيه سبحانه .

وإن للشكر مراتب لابد للمؤمن أن يتحقق بها وهي :

أولاً : اعتراف العبد أن ما به من نعمة فمن الله ، وهذا اعتراف قلبي يقيني بنعم الله سبحانه المنعم على عباده بنعم لا تعد ولا تحصى ، وفي هذا يقول جل وعلا :
{ وما بكم من نعمة فمن الله }أي وما بكم من نعمة صغيرة أو كبيرة ظاهرة أو باطنة خفية أو جلية فهي من الله ، ونعم الله تعالى على الإنسان لا تعد ولا تحصى كما قال جل وعلا :{ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها }.

ثانياً : أن يحب العبدُ المنعمَ عليه وهو الله سبحانه حباً قلبياً صادقاً وذلك بعد ما اعترف له بنعمه عليه سبحانه ، وإن الحب يقتضي الذل والخضوع للمحبوب .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه) - أي يمدكم - (وأحبوني بحب الله ، وأحبوا أهل بيتي بحبي)[1]

وهذا لأن شأن الإنسان بفطرته وذوقه أنه يحب من أحسن إليه ، فكيف والإحسان كله من الله سبحانه وهو المحسن إلى عباده بأنواع الإحسان والنعم ؟! .

فقوله صلى الله عليه وسلم : (وأحبوني بحب الله) أي أحبوني لأن الله تعالى يحبني واتخذني حبيباً أعظم له ..

واعلم أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم يجب أن يُحَب لأنه رسول الله ، وقد خصه الله تعالى بالكمالات والفضائل التي لم يعطها أحداً من خلقه .

كما أنه صلى الله عليه وسلم جمعت له جميع الرسالات والنبوات السابقة وزاده الله بالرسالة المحمدية الخاصة ، ثم إن الله تعالى اتخذه حبيباً له كما قال صلى الله عليه وسلم : (ألا وأنا حبيب الله ولا فخر)[2]

ولهذا يجب على المؤمن أن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حباً قوياً فوق حب كل محبوب .

---

[1] سنن الترمذي كتاب المناقب

[2] سنن الترمذي كتاب المناقب وسنن الدارمي في المقدمة

ثالثاً : ومن الشكر أيضاً أن يثني العبد على الله سبحانه بالنعمة ، وذلك بأن يحمد الله تعالى على ما أنعم عليه ، وفي هذا يقول عليه أفضل الصلاة والتسليم :

(الحمد رأس الشكر)[1]

أي من حمد الله تعالى فقد شكره شكراً قولياً ثنائياً .

رابعاً : ومن الشكر أيضاً أن يصرف العبد نعم الله التي أنعم بها عليه يصرفها فيما فيه رضا الله تعالى وطاعته .

وإن من تحقق بهذه الأمور فهو شاكر لله سبحانه ومن فقد واحدة منها فهو كافر بنعمة الله سبحانه ، وعلى هذا فالشكر أن يعترف العبد بنعم الله المنعم عليه وأن يحبه ويخضع ويذل له سبحانه ثم أن يثني عليه ويحمده على ذلك ثم أن يصرف نعم الله عليه في طاعاته ومرضاته ..

وإن من استعان بنعم الله عليه على معاصيه وفسقه فقد كفر نعم الله عليه .

ولهذا قال سبحانه { واشكروا لي ولا تكفرون } .

أي ولا تكفروني في نعمي عليكم بأن تصرفوها فيما لا يرضيني .

ومن جملة نعم الله على الإنسان السمع والبصر والعقل والفكر والكلام والقوة والعافية والمال والبنين ، وهناك النعم السماوية والأرضية والفلكية ،
قال جل وعلا : { وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها }

وأول نعمة لله تعالى على الإنسان هي نعمة الإيجاد .

قال سبحانه في سورة الرحمن التي يذكر فيها نعمه على الإنس والجن وذكر فيها خلقه للإنسان فقال جل وعلا : { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }

أي : فبأي نعم ربكما يا معشر الثقلان تكذبان ؟ !

لا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

ولو لم يتفضل سبحانه على الإنسان بالإيجاد والخلق فمن يخلقه ويوجده ؟؟

ثم خلق سبحانه لهذا الإنسان السمع والبصر والعقل والمدارك فقال تعالى :

{ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }

---

[1] شعب الإيمان للبيهقي ومصنف عبد الرزاق

فيجب على الإنسان أن يصرف جميع هذه النعم فيما يرضي الله تعالى ، وإلا فقد كفر بنعمة الله عليه ، فمن مد بصره إلى محرم فقد كفر نعمة الله عليه ، ومن استمع إلى محرم فقد كفر نعمة الله عليه وهكذا ، وإن من كفر نعم الله عليه فقد عرض هذه النعم للزوال لأن الله تعالى يقول { لئن شكرتم لأزيدنكم }.

فمن شكر الله على العافية وصرفها في طاعة الله زاده الله عافية وقوة ، ومن شكر الله على نعمة المال الحلال زاده الله مالاً حلالاً وهكذا .

ثم قال جل وعلا : { ولئن كفرتم } - أي بنعم الله عليكم بأن صرفتموها فيما لا يرضيه سبحانه -

{إن عذابي لشديد }

وينبغي على المؤمن أن يستعين بالله سبحانه على شكره وأن يسأل الله سبحانه أن يوفقه لذلك

ولما كان أمر الشكر أمراً مهماً شاملاً جامعاً فقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أحبابه وأصحابه دعاء بعد الصلوات - وهذا الوقت من الأوقات التي جاء فيها أنها من أوقات إجابة الدعاء - علمهم أن يسألوا الله الإعانة على الشكر

فمن جملة ذلك ما رواه أبو داود والإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بيده يوماً ثم قال :

(يا معاذ إني لأحبك ، فقال له معاذ : بأبي أنت وأمي يا رسول الله وأنا أحبك) - وكان معاذ يقول : إن أحب ما يكون إلي من الدنيا وما فيها أن قال لي رسول الله : والله إني لأحبك

(قال : أوصيك يا معاذ) - أي وصية محب لمحبوب (لا تدعن) - أي لا تتركن - (دُبُرَ) - أي وراء - (كل صلاة أن تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[1]

أي : اللهم أعني على أن أذكرك بأنواع الذكر القولي والقلبي والعملي وما هنالك ، وأعني على الشكر لك بأن أشكرك شكراً قلبياً بالاعتراف والحب ، وشكراً قولياً بالثناء والحمد ، وشكراً عملياً بصرف النعم في طاعتك كما قال جل وعلا :

{ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ }

أي قل من يجمع مراتب الشكر ويتحقق بها .

[1] سنن أبي داود كتاب الصلاة والمسند ٢١١٠٣ واللفظ له

(وحسن عبادتك) أي وأعني على أن أعبدك عبادة المحسنين الذين يعبدون الله بإحسان .

وهو كما ورد في صفة الإحسان :

(أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) [1]

فالإحسان في العبادة أن تعبد الله على مشاهدة له بالقلب ، ومن لم يتمكن من ذلك فعليه بالمراقبة وهي أن يراقب الله مراقبة الله عليه ، فالمحسن ما بين مشاهد لله أو مراقب له في عبادته .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم سيد الشاكرين وأحمد الحامدين لرب العالمين يعلِّم الناس شكر الله تعالى ويدعو الله أن يعينه على تمام الشكر له حتى يسمع الصحابة ويتعلموا ذلك وينقلوه لمن بعدهم .

فكان صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من طعامه قال :

(الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ، الحمد لله الذي كفانا وآوانا ، الحمد لله الذي أنعم علينا وأفضل ، نسألك برحمتك أن تجيرنا من النار) [2]

وفي رواية : (الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين) [3]

وهذا شكر بالقول وبالاعتراف القلبي بأن الله تعالى هو المطعم والمنعم .

و عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها) [4]

فمن لم يحمد ربه على الطعام والشراب ويعترف له سبحانه بذلك فقد عرض نفسه لسخط الله لأنه سبحانه يرضى عن العبد إذا أكل الأكلة أن يحمده عليها لما تقدم

وهو سبحانه يغضب إذا لم يحمده عبده عليها .

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم : (رب أعني ولا تعن علي ، وانصرني ولا تنصر علي ، وامكر لي ولا تمكر علي ، واهدني ويسر الهدى لي ، وانصرني على من بغى علي ، رب اجعلني لك شكاراً ، لك ذكاراً ، لك رهاباً ، لك مطواعاً

---

[1] صحيح مسلم كتاب الإيمان

[2] مسند البزار

[3] سنن الترمذي كتاب الدعوات

[4] صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار وسنن الترمذي كتاب الأطعمة

، لك مخبتاً ، إليك أوّاهاً منيباً ، رب تقبل توبتي واغسل حوبتي وأجب دعوتي وثبت حجتي وسدد لساني واهد قلبي واسلل سخيمة صدري) [١]

وإن من فضائل الشكر أن من تحقق في مقام الشكر فقد دخل في أمان الله وكنفه لأن الله تعالى يقول

{ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا }

أي ليس لله غرض في تعذيبكم إن أنتم شكرتم الله وآمنتم به

وقد تنزه سبحانه أن يعذب من آمن به وشكره حقاً ، بل إن أنتم شكرتم وآمنتم فإنه يؤمنكم من العذاب ويؤجركم حسن الثواب ، قال جل وعلا :

{ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا }

فإن من شكر الله وأطاعه فإن الله يشكره لأنه سبحانه شاكر ، وعليم بالشاكرين ، وعليم بالمقربين .

واعلم أن الله تعالى يشكر عباده الطائعين بدليل قوله جل وعلا :

{ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا }

أي أن سعيكم وأعمالكم وطاعاتكم أمر مشكور عند الله تعالى ، والله يشكركم على ذلك ، أما معنى شكر الله تعالى لعبده فهو بأن يثني عليه ويمدحه ويزيده من نعمه ويؤمنه من خزيه وعقوبته ويرحمه ويغفر له .

كما روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخَّره) - أي أزاحه - (فشكر الله له فغفر له) [٢]

ومثله ما ورد في الرجل الذي سقى الكلب بنعله فشكر الله له فغفر له ، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال : لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي ، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له) [٣]

---

[١] سنن الترمذي كتاب الدعوات وسنن ابن ماجه كتاب الدعاء
[٢] صحيح البخاري كتاب الأذان وصحيح مسلم كتاب الإمارة
[٣] صحيح البخاري كتاب المساقاة وصحيح مسلم كتاب السلام

ومما جاء في فضل الشاكرين ما ورد في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من أُلْهِمَ خمسة لم يحرم خمسة :

من ألهم الدعاء لم يحرم الاجابة؛ لأن الله تعالى يقول : { ادعوني استجب لكم } ، ومن ألهم التوبة لم يحرم القبول؛ لأن الله تعالى يقول: { وهو الذي يقبل التوبة عن عباده } ، ومن ألهم الشكر لم يحرم الزيادة؛ لأن الله تعالى يقول { لئن شكرتم لأزيدنكم } ، ومن ألهم الاستغفار لم يحرم المغفرة؛

لأن الله تعالى يقول : { استغفروا ربكم إنه كان غفاراً } ، ومن ألهم النفقة لم يحرم الخلف؛ لأن الله تعالى يقول { وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه }) [1]

وفي حلية الأولياء عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين رحمه الله لما قال سفيان الثوري : لا أقوم حتى تحدثني ، قال له : أنا أحدثك ، وما كثرة الحديث لك بخير يا سفيان ، إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها ودوامها فأكثر من الحمد والشكر عليها ، فإن الله عز وجل قال في كتابه : { لئن شكرتم لأزيدنكم }
وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار ، فإن الله تعالى قال في كتابه :
{ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً* ويمددكم بأموال وبنين * ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً } - أي في الآخرة - ،

يا سفيان إذا حزبك أمر من سلطان أو غيره فأكثر من [لا حول ولا قوة إلا بالله] ؛ فإنها مفتاح الفرج ، وكنز من كنوز الجنة ، فعقد سفيان بيده ، وقال : ثلاث وأي ثلاث ، قال جعفر : عقلها والله أبو عبد الله ، ولينفعنه الله بها

وفي الأثر الإلهي عن رب العالمين جل وعلا :

(أهل ذكري أهل مجالستي ، وأهل شكري أهل زيادتي ، وأهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا إلي فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب) [2]

فأهل ذكر الله تعالى هم أهل المجالسة مع الحق سبحانه ،ومن أراد أن يكون من جلساء الحق سبحانه وأن ينال فضل هذه المجالسة فليكثر من ذكر الله تعالى .

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ،

---

[1] عزاه في الدر المنثور للضياء المقدسي في المختارة و البخاري في تاريخه
[2] ذكره ابن القيم رحمه الله في (مدارج السالكين) وعزاه للإمام أحمد في مسنده

قال : فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم : ما يقول عبادي ؟ قال : يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك ، قال : فيقول : هل رأوني ؟ قال : فيقولون : لا والله ما رأوك ، قال : فيقول : وكيف لو رأوني ؟ قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً وتحميداً وأكثر لك تسبيحاً ، قال : يقول : فما يسألوني ؟ قال : يسألونك الجنة ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا رب ما رأوها ، قال : يقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة ،

قال : فمم يتعوذون ؟ قال : يقولون : من النار ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا رب ما رأوها ، قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة ، قال : فيقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم ، قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم) [1]

- أي هم الجلساء للحق لا يشقى بهم جليسهم من الخلق ، فافهم .

وفي رواية : (هم القوم لا يشقى بهم جليسهم) [2]

وإن مما يستفاد من الحديث أن قوله تعالى للملائكة : (هل رأوني ؟) - أي بالأبصار - (فيقولون : لا والله ما رأوك ، قال : فيقول : وكيف لو رأوني ؟ قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً وتحميداً وأكثر لك تسبيحاً) وهذا يدل على أن أهل الجنة هم على ذكر الله دائماً دونما كلفة أو مشقة وذلك لأنهم في الجنة يرون ربهم .

ولقد كان سيد الشاكرين من الأولين والآخرين وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد بلغ مقاماً في الشكر لم يبلغه أحد غيره .

كما ورد في الحديث أن عبيد بن عمير وكان معه عطاء بن أبي رباح سأل السيدة عائشة رضي الله عنها- وهي من وراء حجاب - (خبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسكتت) - وفي رواية أنها بكت - (قالت : كل أمره كان عجباً) [3] - أي أن كل أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم أمور عظيمة جليلة -

(ثم قالت : لما كان ليلة من الليالي قال : " يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي ، قلت : والله إني لأحب قربك ، وأحب ما سَرَّك ، قالت : فقام فتطهر ، ثم قام يصلي

---

[1] صحيح البخاري كتاب الدعوات

[2] المسند ٧١١٧

[3] أخلاق النبي لأبي الشيخ الأصبهاني

، قالت : فلم يزل يبكي حتى بل حجره ، قالت : ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته ، قالت : ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض ، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة ، فلما رآه يبكي ، قال : يا رسول الله ، لِم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر ؟ ، قال : أفلا أكون عبداً شكوراً) - أي أنه صلى الله عليه وسلم لا يبكي خوف عذاب أو ذنب ،وإنما قام وأطال القيام حتى تورمت قدماه شكراً لله مولاه -

(لقد نزلت علي الليلة آية ، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: { إن في خلق السموات والأرض } الآية كلها) [١]

وقد سئل الإمام الأوزاعي :ما هو أقل الدرجات أن يفكر الإنسان فيها حتى يخرج من هذا الويل المهدد به ؟؟

فقال في الجواب : أقل ما يكون أن يقرأها المؤمن ويعقل معناها - أي أن يفهم معناها ولو إجمالاً حتى يخرج نفسه من الويل المهدد به ..

ولقد كان صلى الله عليه وسلم إذا قام في الليل متهجداً مسح النوم عن وجهه بيده الشريفة صلى الله عليه وسلم ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : (سبحان الملك القدوس ثلاث مرات ، ثم قرأ الآيات من آخر سورة آل عمران

ثم يدعو في سجوده : اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن شمالي نوراً ، وأمامي نوراً ، وخلفي نوراً ، وفوقي نوراً ، وتحتي نوراً ، واجعل لي نوراً ، أو قال : واجعلني نوراً) [٢]

ونسأل الله تعالى التوفيق ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد إمام الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه والتابعين إلى يوم الدين كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون ، والحمد لله رب العالمين .

---

[١] صحيح ابن حبان كتاب الرقائق

[٢] صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها